سلسلة أركان الإيمان ١

الإيمان بالله جل جلاله

د. علي محمد محمد الصلابي

دار ابن كثير

الإيمان بالله جلَّ جلاله

قال تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[التغابن : ١١]

الإيْمَانُ بِالله جلَّ جَلاَلُهُ

تأليف

د. علي محمد الصلابي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل إنسان في الوجود يبحث عن الطريق لمعرفة الله؛ والإيمان به؛ وتحقيق عبوديته الشاملة على المنهج الصحيح؛ أهدي هـٰذا الكتاب، سائلاً المولى عز وجلّ بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصاً لوجه الكريم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ـ ٧١] .

يا ربِّ لك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيتَ ، ولك الحمد بعد الرضى .

أما بعدُ : فهـذا الكتاب يتحدّث عن الخالق العظيم ، والرازق الكريم ، الفعّال لما يريد ، الكريم المنّان ، الواسع العليم ، الذي رأيتُ من خلال مسيرتي في عالم التاريخ عظمتَه في الحياة ، وفي قيامِ الدول وزوالها ، وانتشارِ الحضارات واندثارِها ، وعزِّ الحكومات وإذلالها ، وقصص الناس ، وفي مخلوقاته العجيبة الغريبة ، وفي هـٰذا الكون الفسيح ، وحركة التاريخ .

هـٰذا الكتابُ إنّما كان نتاجَ هـٰذه المسيرة ، بل إحدى ثمارِها ، حيثُ وجدتُ

أنَّ الذين آمنوا بالله العظيم ، واتبعوا رسوله الكريم ﷺ ، هدى الله قلوبهم ، بل زادها إيماناً ، لقد عرفوا ربهم ، وعلموا أنّ الله هو التواب الرحيم ، ذو الفضل العظيم ، العزيز الحكيم ، الذي ابتلى إبراهيمَ بكلمات ، وسمع نداءَ يونسَ في الظُّلمات ، واستجابَ لزكريا ، فوهبه على الكِبَرِ يحيى هادياً مهدياً ، وحناناً من لدنه وكان تقياً.

الله جلّ وعلا الذي أزال الكرب عن أيوب ، وألان الحديد لداود ، وسخَّر الريح لسليمان ، وفلق البحر لموسى ، ورفع إليه عيسى ، ونجّىٰ هوداً ، وأهلك قومه ، ونجّىٰ صالحاً من الظالمين ، فأصبح قومُه في دارهم جاثمين ، وجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، وفدىٰ إسماعيل بذبحٍ عظيمٍ ، وجعل عيسى وأمَّه آيةً للعالمين.

الله جلّ وعلا الذي أغرق فرعون وقومه ، ونجّاه ببدنه ، ليكون لمن خلفَه آية ، وخسفَ بقارون ودارِه الأرض ، ونجّىٰ يوسف من غيابة الجُبِّ ، وجعلَه على خزائن الأرض ، ونصرَ نوحاً على القوم الكافرين ، ونجّاه وأهلَه من الكرب العظيم.

الله جلّ وعلا الذي أضحك وأبكى ، وأمات وأحيا ، وأسعد وأشقى ، وأجدَّ وأبلى ، ورفع وخفض ، وأعزَّ وأذلَّ ، وأعطى ومنع.

الله جلّ وعلا الذي هدى نوحاً ، وأضلَّ ابنَه ، واختار إبراهيمَ ، وأبعد أباه ، وأنقذَ لوطاً ، وأهلك امرأته ، ولعن فرعونَ ، وهدى زوجتَه ، واصطفى محمّداً ، ومقت عمَّه ، وجعل من أنصار دعوته أبناءَ ألدِّ خصومه ، كخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ، فسبحانه عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته[(١)].

الله جلّ وعلا الذي جمع في هٰذا الوجود بين الكمال والجمال ، وعنصرُ الجمال في هٰذا الكون مقصودٌ قصداً ، جمالٌ مقصودٌ ، وكمالٌ بلا حدودٍ ، فرؤيةُ الجمال على حقيقته لا تكونُ إلا حينما ينظرُ القلبُ بنور الله ، فتتكشفُ له

---

(١) الله أهل الثناء والمجد ، د. ناصر الزهراني ص: (٤١).

الأشياءُ عن جواهرها الجميلة وروائعها البديعة ، ويتذكّر اللهَ كلّما وقعت عينُه أو حِسُّه على شيءٍ بديع ، أو منظرٍ حَسَنٍ ، فيُحِسُّ بالصلةِ ، ويشعرُ بالترابط بين المبدع وما أبدعَ ، والجميلِ وما جمّل ، والمحسنِ وما أحسنَ ، ويرى مِنْ وراء هـٰذا الجمال جمالَ الله وجلالَه وكمالَه ، والقرآنُ الكريم يوقظُ القلوبَ لتتبُّع مواضعِ الحسنِ وآياتِ الجمالِ في هـٰذا الكون البديع ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧] وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

وتأمّلْ كلمةَ ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ﴾ إنّه استفهامٌ استنكاري لأولئك الذين لهم أعينٌ لا يبصرونَ بها ، وقلوبٌ لا يفقهون بها ، ولا يرونَ ذلك الجمالَ الساحرَ ، والإبداعَ الأخّاذ ، والحُسْنَ الجذّابَ ، الذي يدلُّ على ربِّ العبادِ ، ولذلك يكثرُ في القرآن الكريم الأمرُ بالنظرِ لأخذِ العبرةِ ، وللإحساسِ بالجمال.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [يونس: ١٠١].

فأينَ الأعينُ الناظرةُ ، والقلوبُ المبصرةُ ، والأذهانُ المتوقدةُ ، والفطرةُ السليمةُ ، والمشاعِرُ الحيةُ ، والأحاسيسُ المرهَفَةُ؟!

يا الله ، ما أروعَ هـٰذا الكون! وما أجملَ هـٰذا الوجود! إنَّ المتأمِّلَ فيه يُبْهَرُ بجماله ، وروعةِ نظامه ، وعظمةِ إحكامِهِ ، كلُّ شيءٍ فيه جميلٌ ، ليلُه ونهارُه ، صبحُه ومساؤه ، أرضُه وسماؤه ، بدرُه وشمسُه ، حرُّه وبردُه ، غيمُه وصحوه ،

أخضرُه وأغبرُه ، جبالُه وتلالُه[1] ، سهولُه ووديانه ، بَـرُّه وبحرُه ، كلُّ شيءٍ جميلٌ ، وكلُّ شيءٍ بديعٌ ، وكلُّ شيءٍ متقَنٌ ، وكلُّ شيءٍ متناسِقٌ ، وكلُّ شيءٍ منتَظِمٌ ، وكلُّ شيءٍ بقدرٍ ، وكُلُّ شيءٍ بإحكامٍ ، مِنَ الذرّةِ الصغيرةِ ، إلى الجِرْمِ الكبير ، ومنَ الخليّةِ الساذجةِ إلى أعقدِ الأجسامِ .

انظر إلى الإنسان وروعة خَلْقه ، وتباينِ أجناسِه ، وتعدُّدِ لغاتِه ، واختلافِ نغماتِه ، فهو جلَّ وعلا قد أحسنَ كُلَّ شيءٍ خلقه ، ومنْ أحسنِ مخلوقاتِهِ وأجملِها الإنسانُ ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التغابن : ٣] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الإنفطار : ٦ ـ ٨] قال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] .

انظر إلى السماء وهيبتِها ، والنجومِ وفتنتِها ، والشَّمسِ وحُسنِها ، والكواكبِ وروعتِها ، والبدرِ وإشراقِه ، والفضاءِ ورحابتِه ، تأمّلْ السماء في ليلةٍ حالكةٍ ؛ وقد انتشرت فيها الكواكبُ ، وبُثَّتْ فيها النجوم .

انظر إلى الأرض كيفَ دحاها ، وأخرجَ منها ماءها ومرعاها ، والجبالَ أرساها ، هـٰذه البحارُ ، هـٰذه الأنهارُ ، هـٰذا الليلُ ، هـٰذا الصبحُ ، هـٰذا الضياءُ ، هـٰذه الظلالُ ، هـٰذه السُّحبُ ، هـٰذا التناغُمُ الساري في الوجودِ كلّه ، هـٰذا التناسقُ ، هـٰذه الزهرةُ ، هـٰذه الوردةُ ، هـٰذه الثمرةُ اليانعةُ ، هـٰذا اللَّبنُ السائغُ ، هـٰذا الشَّهْدُ المُذابُ ، هـٰذه النخلةُ ، هـٰذه النحلةُ ، هـٰذه النملةُ ، هـٰذه الدُّويبةُ الصغيرةُ المجهّزةُ بالأرجلِ والشُّعيراتِ ، لتشقَّ طريقَها ، وتتعاملَ مع واقعَها ، هـٰذه السمكةُ ، هـٰذا الطائرُ المغرِّدُ ، والبلبلُ الشادي ، هـٰذه الزاحفةُ ، هـٰذا الحيوانُ جمالٌ لا ينفد ، وحُسْنٌ لا ينتهي ، وقُرَّةُ عينٍ لا تنقطعُ[2] ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم : ١٧ ـ ١٩] .

الله سبحانه إلهٌ واحدٌ ، ليس له شريكٌ ، وليسَ له مثيلٌ في ذاته وصفاته

---

(١) الله أهل الثناء والمجد ، ص : (٦٦ ، ٦٧) .

(٢) الله أهل الثناء والمجد ، ص : (٦٨ ، ٦٩) .

وأفعاله ، كلُّ ما في الكون من إبداع ونظامٍ وانسجامٍ يدلُّ على أنَّ مبدعَه ومدبِّره واحدٌ ، ولو كان وراءَ هـٰذا الكون أكثرُ من مدبِّرٍ ؛ وأكثرُ من منظِّمٍ ؛ لاختلَّ نظامُه ، واضطربَتْ سننُهُ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] .

وليس التوحيدُ مجرَّد إقرارِ العبد بأنّه لا خالقَ إلا الله ، وأنَّ اللهَ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه ، كما كان عُبّادُ الأصنامِ مقرّين بذلكَ ، وهم مشركون ، بل **التوحيدُ يتضمّن محبَّةَ اللهِ ، والخضوعَ له ، والذلَّ له ، وكمالَ الانقيادِ لطاعتهِ ، وإخلاصَ العبادةِ له ، وإرادةَ وجهِهِ الأعلى بجميعِ الأقوالِ والأعمالِ ، والمنعِ والعطاءِ ، والحُبِّ والبغض ، وهو واحدٌ سبحانه في ألوهيته ، فلا يستحقُّ العبادَةَ إلا هو ، ولا يجوزُ التوجُّه بخوفٍ أو رجاءٍ إلا إليه ، لا خشيةَ إلا منه ، ولا ذلَّ إلا إليه ، ولا طمعَ إلا في رحمته ، ولا اعتمادَ إلا عليه ، ولا انقيادَ إلا لحكمه**[١] .

الله جلّ وعلا كلُّ الخلقِ مفتقرونَ إليه ، قال تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] .

قد يُعْطَىٰ الإنسانُ أموالاً ، وقد يُمْنَحُ عقاراً ، وقد يُرْزَقُ عيالاً ، وقد يُوْهَبُ جاهاً ، وقد يَنَالُ منصباً عظيماً ، أو مركزاً كريماً ، أو زعامةً عريضةً ، أو رياسةً مكينةً ، قد يحفُّ به الخدمُ ، ويحيطُ به الجندُ ، وتحرسُه الجيوشُ ، ويرضَخُ له الناسُ ، وتذلُّ له الرؤوسُ ، وتدينُ له الشعوبُ ، **ولكنّه مع ذلك فقيرٌ إلى الله ، محتاجٌ إلى مولاه**[٢] .

الله تعالى أسعدَ عبادَه بكتابه ، وأبهجَ قلوبَهم بكلامه ، وأنارَ بصائِرَهم بقراءته ، أكثرُهم قراءةً له أشدُّهم تعظيماً له ، وأقربُهم منزلةً منه أقربُهم من كلامه ، وأقرؤهم لوحيه .

كلامٌ معجزٌ ، وقرآنٌ مبهجٌ ، وحبلٌ متينٌ ، ونورٌ مبينٌ ، ينطِقُ بالعظمةِ ،

---

(١) الله أهل الثناء والمجد ، ص: (٨٥) .

(٢) المصدر نفسه ص: (١٢٦ ، ١٢٧) .

ويهتِفُ بالإبداعِ ، ويصدَحُ بالألوهيةِ ، ويشهدُ بالربوبية(١) .

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

وجودُ الله جلّ وعلا أمرٌ ثابتٌ في النفوس ، متمكّنٌ في الفِطَرِ ، مزروعٌ في الأذهانِ ، مغروسٌ في الأفئدةِ ، لا يحتاجُ إلى دليلٍ ، ولا يتطلّب إثباتٍ ، ولا يفتقِرُ إلى توكيدٍ .

قال الشاعر (من الوافر) :

وليسَ يصحُّ في الأذهانِ شيءٌ إذا احتاجَ النهارُ إلى دَلِيْلِ(٢)

ولكنَّ بعضَ ذوي الفِطَرِ المنكوسةِ ، والأنْفُسِ المريضةِ ، والعقليّات المتعنّتَةِ ، قد يجادلون في ذلك ، مع أنّه مغروسٌ في حقيقة ضمائرهم ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ﴾ [النمل : ١٤] .

وجاء القرآنُ الكريمُ مزدهراً بآياتٍ تنطِقُ بالعظمةِ ، وتشهدُ بالربوبيَّةِ ، تَسُرُّ نفوسَ الواثقين ، وتدحَضُ مزاعمَ المارقين ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور : ٣٥] .

وقد تعرّضَ أنبياءُ اللهِ وأمناءُ الوحي؛ وحملةُ الدعوةِ؛ ومصابيحُ الدجى؛ وأنصارُ التوحيدِ؛ لعددٍ من المتعنتين على مرِّ العصورِ ، مع اختلافٍ في طبقاتهم ، وتبايُنٍ في تفنُّناتِهم ، إلاّ أنّ بعضَهم وصلَ به الأمرُ إلى أنِ ادّعى أنَّه ربُّ العالمين ، فأيَّد اللهُ أولياءَه بحججٍ قاهرةٍ ، ودلائلَ باهرةٍ ، وأدلةٍ قاصمةٍ ، وصواعقَ مرسلةٍ ، تدمِّرُ أباطيلَهم ، وتنسِفُ افتراءاتِهم ، وتزلزِلُ كياناتِهم ، وتُظْهِرُ سُخْفَ عقولِهم ، وقلّة فهمهم ، وانحطاطَ أمانيهم .

فهذا إبراهيمُ عليه السلام يحاوِرُ النمرود ، الذي طغى وتجبّر ، وعتا وتكبّر ، وادّعى الربوبيةَ من دون المولى عزّ وجل ، قال تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ

(١) المصدر نفسه ص : (٤٩٠) .

(٢) المصدر نفسه ص : (٥٦٥) .

إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

فحينما أدلى إبراهيمُ بالدليلِ الأوّلِ على وجودِ الله تعالى وربوبيتِهِ فقال: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ قال النمرود: وأنا أحيي وأميتُ (فأتى برجلين قد تحتّمَ قتلُهما، فأمرَ بقتلِ أحدِهما، وعفا عن الآخر، فكأنّه قد أحياه، وأماتَ الآخر) وهـٰذه حجةٌ واهيةٌ، وردٌّ سخيفٌ، ولكنَّ إبراهيمَ عليه السلام تدرّجَ معه في المحاجَّةِ، فأتاه بالضربةِ القاضيةِ، والحجَّةِ الدامغةِ، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾: أي هـٰذه الشمسُ مسخرةٌ كلَّ يوم، تطْلعُ من المشرقِ، كما سخّرها خالقُها ومسيِّرُها وقاهِرُها اللهُ، الذي لا إله إلّا هو، خالقُ كلِّ شيءٍ، فإنْ كنتَ كما زعمتَ أنّك تحيي وتميتُ، فأتِ بهـٰذهِ الشمسِ مِنَ المغربِ، فإنَّ الذي يحيي ويميت هو الذي يفعلُ ما يشاءُ، ولا يمانَعُ، ولا يغالَبُ، بل قد قهرَ كلَّ شيءٍ، ودانَ له كُلُّ شيءٍ، فإنْ كنتَ كما تزعمُ فافعل هـٰذا، فإنْ لم تفعلْه، فلستَ كما زعمتَ، وأنتَ تعلمُ وكلُّ أحدٍ يعلمُ أنك لا تَقْدِرُ على هـٰذا، ولم يبقَ للنمرود كلامٌ يجيبُ فيه الخليلَ عليه السلام[١]، ولهـٰذا قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

وقال الشاعر (من المتقارب):

فيـا عجبـاً كيـفَ يُعْصَـى الإلـهُ ... أمْ كيـفَ يجحَـدُهُ الجـاحِـدُ
وللهِ فـي كـلِّ تحـريكـةٍ ... وفـي كـلِّ تسكينـةٍ شـاهِـدُ
وفـي كُـلِّ شـيءٍ لـه آيـةٌ ... تـدُلُّ علـى أنَّـه واحِـدٌ[٢]

وما أجمل هـٰذه الأبياتِ الرائعةِ التي قالها الشاعِرُ إبراهيمُ بريول رحمه الله! (من الكامل):

إنّـي أويـتُ لكـلِّ مـأوًى فـي الحيا ... ةِ فمـا رأيـتُ أعـزَّ مِـنْ مـأواكـا
وتَلَمَّسَتْ نفسي السبيـلَ إلـى النجا ... ةِ فلـمْ تجِـدْ منجًـى سوى مَنْجَاكـا
وبحثـتُ عَـنْ سِـرِّ السعـادةِ جاهِـداً ... فـوجـدتُ هـذا السِّـرَ فـي تَقْـوَاكـا

(١) أهل الثناء والمجد ص: (٥٦٧).
(٢) المصدر نفسه ص: (٥٧٢).

فليرضَ عنِّي الناسُ أو فليسخطوا   أنا لم أعدْ أسعَىٰ لغيرِ رِضَاكا
أدعوكَ يا ربِّي لتغفِرَ حوبتي   وتعينَني وتمدَّني بهُدَاكا
فاقبلْ دعائي، واسْتَجَبْ لرجائيا   ما خابَ يوماً مَنْ دَعا ورَجَاكا
إلى أن قال:
يا أيُّها الإنسانُ مَهْلاً ما الذي   باللهِ جَلَّ جلالُه أَغْرَاكا
فاسجدْ لمولاكَ القديرَ فإنَّما   لا بدَّ يوماً تَنْتَهِي دُنياكا
وتكونُ في يومِ القيامةِ ماثلاً   تُجْزَىٰ بما قَدْ قدَّمَتْهُ يَدَاكا[١]

إنَّ حقائقَ الإسلام ثابتةٌ لا تتغير، منذ أُنزلتْ على رسول الله ﷺ إلى قيام الساعة، المرجعُ فيها كتابُ اللهِ وسنة رسوله ﷺ، ولكنّ علماءَ الأُمّة في كلِّ جيلٍ ـ وطلاّبَ العلمِ فيها ـ يتناولونها بالشرح والتفسيرِ، من خلالِ الواقع الذي يعيشُه كلُّ جيلٍ، وما جدَّ فيه من نوازلَ، وما حدثَ فيه من انحرافٍ في الفهمِ أو السلوكِ، وإنَّ جيلنا الذي نعيشُ فيه لهو مِنْ أحوجِ الأجيالِ إلى التعرُّفِ على حقائق دينه، وخصوصاً أركانِ الإيمان الستّةِ، وهٰذا الكتابُ الذي بين يدي القارئ يتناول الركن الأول (**الإيمان بالله عز وجل**) وستلحقه بإذن الله تعالى دراساتٌ أخرى في أركانِ الإيمان الستة، والأخلاقِ، والتربيةِ الروحيةِ، والسُّننِ الإلهية، ومقاصدِ الشريعةِ، والسياسةِ الشرعيةِ، وعلمِ المصالحِ والمفاسدِ، وغيرها من الدراساتِ المنهجيّةِ الهادفةِ إلى المساهمة في نهضة الأمةَ، وانطلاقتها الحضارية الجديدة المرتقبة.

هـذا وقد قسّمتُ هٰذا الكتابَ إلى سبعة مباحثَ:

المبحث الأول: معنى (لا إله إلا الله محمَّدٌ رسول الله)، وبيّنتُ فضلَ (لا إله إلا الله)، وأنَّها أفضلُ الذكر، وتحدّثتُ عن شروطها: كالعلمِ، واليقينِ، والقبولِ، والانقيادِ، والصدقِ، والإخلاصِ، والمحبَّةِ، وارتباطِها بالولاءِ والبراءِ، وآثارِ الإقرارِ بهـذه الكلمةِ في حياتنا.

وفي المبحثِ الثاني والثالث: تكلّمتُ عن إثباتِ **وجود الخالق**، **وتوحيدِ الربوبيّةِ**، وأشرتُ لدليلِ الخَلْقِ، ودليلِ الفِطْرةِ والعَهْدِ، ودليلِ الآفاقِ، ودليلِ

(١) المصدر نفسه ص: (٥٥٠).

الأَنْفُسِ ، ودليلِ الهدايةِ ، ودليلِ انتظامِ الكونِ وعدمِ فسادِهِ ، ودليلِ التقدير ، ودليلِ التسويةِ ، التي جاءت في القرآن الكريم .

ووضحّت في **المبحثِ الرابع والخامس** : **توحيدَ الأسماءِ والصفاتِ ، وتوحيدَ العبادة** ، وتكلّمت عن علاقةِ تحكيم الشريعة بالتوحيدِ ، **والآثارِ الحسنةِ للحُكْمِ بما أنـزل الله** : كـالاستخـلافِ ، والتمكيـنِ ، والأمـنِ ، والاستقـرارِ ، والنَّصـرِ ، والفتحِ ، والعزِّ ، والشَّرفِ ، وبركةِ العيشِ ، ورَغَدِهِ ، والهدايةِ ، والتثبيتِ ، والفلاحِ ، والفوزِ ، والمغفرةِ ، وتكفيرِ السيئاتِ ، ومرافقةِ النبيّينَ والصدّيقين .

كما وقفتُ مع **الآثارِ السيئةِ للحكم بغير ما أنزلَ الله** : كقسوةِ القلبِ ، والضَّلالِ عن الحقِّ ، والوقوعِ في النفاقِ ، والحرمانِ من التوبةِ ، والصدِّ عن سبيل اللهِ ، وغيابِ الأمنِ ، وانتشارِ الفوضى ، وانتشارِ العداوةِ والبغضاء ، والحرمان من النَّصْرِ والتمكينِ ، وهول العقابِ الذي يَنْتَظِرُ المبدّلين لشرعِهِ ، والإهانةِ عند قَبْضِ الأرواح ، والأكلِ من النار ، وغضبِ الجبارِ ، والعذابِ المهين .

وتكلّمتُ عن **جهودِ النبيِّ ﷺ في حمايةِ توحيدِ العبادة** : كالنهي عن الغلوّ والإطراء لشخصه الكريم ، وكيفيّةِ التعامل مع الرُّقىٰ والتمائم ، ونهيه عن الكهانة . . . إلخ .

أما في المبحثِ السادسِ : فكان الحديثُ عن **الإيمان بالله عز وجل** ، واخترتُ كلمةَ الإيمان بدلاً من العقيدةِ ، واستخدمتُها في كتابي تماشياً مع العَرْضِ القرآني ، الذي عرضَ مقرَّرات الإيمانِ ، وخصائصَه ضمنَ المصطلح اللطيف ، والكلمة الحبيبة **(الإيمان)** ولا شكَّ أنَّ العودةَ إلى تعبيرِ القرآنِ الكريم والرسولِ ﷺ أنفعُ وأولى مع استعمال المصطلحات الأخرى ، فكلمةُ الإيمانِ أرقى معنًى ، وأشفُّ ظِلاًّ ، وأدلُّ على المقصودِ من الكلمات الأُخرى ، فهي تُشيعُ في الأجواءِ ـ عندما تُكْتَبُ أو تُنْطَقُ ـ معانيَ الأمنِ والثقةِ ، وتلقِي ظلالَ الطمأنينةِ واليقينِ ، وتوحي بمعاني الإلزامِ والتصديقِ والخضوع ، وتُطْلِقُ إيحاءاتِ الثباتِ والدوامِ ، والمتانةِ والحيويةِ ، وكلمةُ العقيدةِ لا تتضمَّنُ كلَّ هـٰذا .

كما أني بيّنتُ **الفرقَ بين الإسلام والإيمانِ والإحسانِ** ، والأسسَ التي يقومُ عليها الإيمانُ بالله عز وجل ، وشرحتُ بعضَ الآياتِ القرآنية التي تحدّثتْ عن

الإيمانِ ، كزينةِ الإيمانِ ، ونورِ الإيمانِ ، وروحِ الإيمانِ ، ولخّصتُ في هـٰذا الكتاب أهمَّ أسبابِ قوةِ الإيمان مثل :

١ ـ معرفة أسماء الله الحسنى .

٢ ـ تدبر القرآن على وجه العموم .

٣ ـ معرفة النبيِّ ﷺ .

٤ ـ التفكير في الكون ، والنظر في الأنفس .

٥ ـ الإكثار من ذكر الله في كلِّ وقت .

٦ـ معرفة محاسن الدين .

٧ ـ الاجتهاد في التحقق من مقام الإحسان .

٨ ـ الدعوة إلى الله .

٩ ـ توطين النفس على مقاومة ما ينافي الإيمان .

١٠ ـ معرفة حقيقة الدنيا ، واعتبارها مزرعةً للآخرة .

وعرضتُ بعضَ **صفات المؤمنين** التي جاءت في القرآن الكريم ، وشرحتُها ، وبيّنْتُ أهميتَها ، وركّزتُ على أهمِّ **فوائد الإيمان وثمراته** ، كالاغتباطِ بولايةِ الله الخاصّة ، ودفاع اللهِ عن المؤمنين ، والفوزِ برضا الله ، وحصولِ البشارةِ بكرامةِ الله ، وحصول الفلاحِ والهدى ، والانتفاع بالمواعظِ والتذكيرِ ، والشكرِ ، والصبرِ ، وتأثيرِه على الأعمالِ والأقوالِ ، وهدايةِ الله إلى الصراط المستقيم ، ومحبةِ الله وللمؤمنين مِنْ خلقه ، ورفع الله لمكانتهم .

وفي **المبحثِ السابع والأخير** : كان الحديثُ عن الشركِ ، والكُفْرِ ، والنفاق ، والردة ، والفسق ، والمعاصي .

أيها القارئُ الكريم ، أضعُ بين يديكَ هـٰذا الكتابَ ، راجياً من اللهِ أن يحيا قلبُك ، وتزدادَ هدايةً مع كلِّ معرفةٍ جديدةٍ عن ربِّكَ ، فالهدفُ من كتابتِهِ هو زيادةُ إيمانِكَ بربِّ العالمين ، بعيداً عن العوائق التي وُضعتْ في طريق الإيمانِ ، الذي بيّنه رسولُنا محمَّدٍ ﷺ ، وسار عليه الصحابةُ الكرامُ ، سهلاً ميسّراً ، دونَ عناءٍ ولا شقاءٍ ، فآمنوا بربهم ، فهدى الله قلوبَهم ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن : ١١] .

هـٰذا وقد انتهيتُ من هـٰذا الكتاب يوم الأحد في الساعة الثالثة إلا ربع ظهراً بتاريخ ٨/ ٥/ ١٤٣٠ هـ = ٣/ ٣/ ٢٠٠٩ م بالدَّوحة ، والفضلُ للهِ منْ قبلُ ومِنْ بعدُ ، وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أنْ يجعلَ عملي لوجهه خالصاً ، ولعبادِه نافعاً ، ويشرحَ صدورَ العبادِ للانتفاع به ، ويباركَ فيه بمنّه وكرمِهِ وجودِه ، وأن يثيبَ إخواني الذين أعانوني من أجلِ إتمام هـٰذا الجهد المتواضِع ، ونرجو من كلِّ مسلمٍ يصلُه هـٰذا الكتاب أنْ لا ينسى العبدَ الفقير إلى عفو ربِّه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩] .

وقال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢] .

وقال تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٣] .

سبحانك اللهمَّ وبحمدك ، أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ أنتَ ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليك ، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين[1] .

علي محمد محمد الصلابي

---

(١) أيها الإخوةُ الكرامُ: يسرّني أن تصلني ملاحظاتُكم وانطباعاتُكم حول هـٰذا الكتابَ وغيرِه من كتبي من خلال دور النشر ، وأطلبُ من إخواني الدعاءَ لي في ظهرِ الغيب بالإخلاصِ للهِ والصوابِ لخدمة دينهِ العظيم.

mail: info@alsallaby.com
website: www.alsallaby.com

المبحث الأول

معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله
وفضلُها وشروطُها

أولًا ـ معنى (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

ثانياً ـ فضل كلمة (لا إله إلا الله).

ثالثاً ـ أفضل الذكر (لا إله إلا الله).

رابعاً ـ أشعة (لا إله إلا الله) تبدِّدُ ظلماتِ القلوب.

خامساً ـ التوافق بين (لا إله إلا الله) و(إياك نعبد).

سادساً ـ شروط (لا إله إلا ا لله).

سابعاً ـ ارتباط (لا إله إلا الله) بالولاء والبراء.

ثامناً ـ آثار الإقرار (بلا إله إلا الله).

* * *

المبحث الأول

معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله وفضلُها وشروطُها

أوَّلُ كلمةٍ يدخلُ بها الإنسانُ بوّابةَ الإسلامِ ، ويصلُ إلى مدارجِ التوحيد ، ويرتقي في مراقي العبودية ، هي كمةُ **(لا إله إلا الله محمد رسول الله)** التي بموجبها يعترفُ العبدُ للهِ عزّ وجلّ وحدَه بالربوبية والألوهية ، ولمحمَّدٍ ﷺ بالرسالةِ.

أنْ يشهدَ العبدُ أنَّ الله هوَ المستحقُّ للعبادةِ ، وأنْ تنصَرفَ قواه ـ قوى عقلِهِ وقلبِهِ وبدنِهِ وجوارحِه ـ في التسبيح ، والتهليلِ ، والتمجيد ، والعبودية لهذا الإلهِ العظيم ، الذي أنتَ أيُّها الإنسانُ من بعضِ فضلِه ، ومن بعضِ خلقِه ، فكلُّ ذرَّاتِ كيانك الداخلية تعترِفُ به ، وتمجِّده ، وتسبِّحه ، شئتَ أم أبيتَ ، غفلتَ أم انتبهت ، حَيِيْتَ أم مِتَّ ، آمنتَ أم كفرتَ ، فيبقى اختيارُ الإنسانِ أن يعبدَ ربَّه سبحانه وتعالى طَوْعاً بما أمره الله تعالى ، وبما جاء على ألسنةِ رسلِهِ المكرّمين عليهم الصلاة والسلام[1].

وأن يشهدَ أنَّ محمَّداً ﷺ الخاتمَ للرسل هو عبدُ اللهِ ورسولُه ، أرسلَه ربُّنا إلى الخَلْقِ أجمعين ، من الإنس والجن ، وذلك إقراراً باللسانِ ، وإيماناً بالقلب ، بأنَّه رحمةٌ مهداةٌ للعالمين.

أولاً ـ معنى (لا إله إلا الله محمد رسول الله):

إن معنى كلمة: **(لا إله إلا الله)** أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله ، فهو وحدَه سبحانه المستحقُّ بأنْ تصرفَ له جميعُ العباداتِ ، وتكونَ خالصةً له دون سواه ، قال

---

(١) مع الله ، د. سليمان العودة ، ص: (٣٩).

تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨] وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

ومعنى شهادةِ (**أنَّ محمد رسول الله**) الإقرارُ باللسانِ، والإيمان بالقلبِ، بأنَّ محمَّدَ بنَ عبد الله القرشيَّ الهاشميَّ رسولُ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى جميعِ الخلقِ من الجنِّ والإنسِ، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

فكلمة **لا إله إلا الله** تشمل جزأيين، **النفي والإثبات**:

١ ـ أما (لا إله): فنافيةٌ جميعَ ما يُعْبَدُ مِنْ دونِ الله تعالى، فلا يستحقُّ أنْ يُعْبَدَ أحدٌ سواه، و«**النكرةُ في سياق النفي تفيدُ العمومُ**» فهي تشملُ كلَّ ما يمكِنُ أنْ يُتوجَّه إليه بالعبادةِ، وكلَّ مَنْ تُصْرَفُ إليه غير الله تعالى(١).

٢ ـ أما (إلا الله): فَمُثْبِتَةٌ العبادةَ للهِ تعالى، فهو الإله الحقُّ، المستحقُّ للعبادة، فإنَّ خبر (لا) المحذوفَ (بحق) هو الذي جاءت به نصوصُ الكتاب المبين، فمعنى (لا إله بحق إلا الله) أي: لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، فكما تفرَّد سبحانه وتعالى بالخَلْقِ، والرزق، والإحياءِ، والإماتةِ، والإيجادِ، والإعدامِ، والنفعِ، والضّرِ، وغير ذلك من معاني ربوبيته، ولم يشارِكْه أحدٌ في خلقِ المخلوقات، ولا في التصرّفِ في شيءٍ منها، فكذلك تفرُّدُه سبحانه بالألوهيةِ حقٌّ لا شريكَ له، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

٣ ـ أما لفظ الجلالة في كلمة الشهادة (الله) عزَّ وجلَّ فهو اسمٌ من أسمائه جلَّ وعلا، بل هو اسمه الأعظم عندَ قومٍ، وهٰذا أكثرُ الأسماءِ تردُّداً في القرآن والسنة.

---

(١) العقيدة الصافية، سيد سعيد عبد الغني، ص: (٢٦٠).

و(الله) هو أكثرُ الأسماءِ اشتهاراً وترديداً على ألسنةِ المخلوقين كلّهم بمختلف لغاتهم وألسنتهم.

و(الله) هو الاسم الدالُّ على الذاتِ العظيمةِ الجامعةِ لصفاتِ الألوهية والربوبية، وهو اسمٌ له وحدَه، لا يتعلّق به أحدٌ سواه، ولا يُطْلَقُ على غيره، ولا يدّعيه أحدٌ مِنْ خلقه.

و(الله) اسمٌ للربِّ المعبودِ المحمودِ، الذي يمجِّدهُ الخلقُ، ويسبّحونه، ويحمَدونه، وتسبّحُ له السماواتُ السبع، والأرضونَ السبعُ، ومن فيهنّ، والليل والنهار، والإنس والجن، والبَرُّ والبحر ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

و(الله) هو الربُّ الذي تألَهُهُ القلوبُ، وتحنُّ إليه النفوسُ، وتتطلَّعُ إليه الأشواقُ، وتحِبُّ وتأنَسُ بذكرهِ وقربِهِ؛ وتشتاقُ إليه؛ وتفتقر إليه: المخلوقاتُ كلُّها في كلِّ لحظةٍ وومضةٍ، وخطرةٍ وفكرةٍ، في أمورِها الخاصّةِ والعامّةِ، والكبيرةِ والصغيرةِ، والحاضرةِ والمستقبلةِ، فهو مبديها ومعيدُها، ومُنْشِئُها وباريها، وهي تدينُ له سبحانه وتُقِرُّ، وتفتقِرُ إليه في كلِّ شؤونها وأمورِها، فما مِنْ مخلوق إلا ويشعرُ بأنَّ الله تعالى طوّقه مِنَناً ونعماً، وأفاضَ عليه من آلائه وكرمه وإفضاله وإنعامه بالشيء الكثير، فجديرٌ إذًا أنْ يتوجَّه قلبُ الإنسان إلى الله تبارك وتعالى بالحبِّ والتعظيم والحنين.

و(الله): عظيمٌ في ذاته، وصفاته، وأسمائه، وجلاله، ومجده، لا تحيطُ به العقولُ، ولا تدرِكُه الأفهام، ولا تَصِلُ إلى عظمته الظنون، فالعقولُ تحارُ في عظمته، وإن كانت تستطيع بما مُنِحَتْ من الطَّوْقِ والقدرةِ على أن تدرِكَ جانباً من هذه العظمةِ، يمنحُها محبةَ اللهِ، والخوفَ منه، والرجاءَ فيه، والتعبُّدَ له، بكلِّ ما تستطيع(١).

قال الشاعر (من الكامل):

للهِ فـي الآفـاقِ آيـاتٌ لعـلْ ... لَ أقلَّها هـو مـا إليـه هَـدَاكَـا
ولعـلَّ مـا فـي النَّفْـسِ مِنْ آيـاتِـهِ ... عَجَـبٌ عُجَـابٌ لـو تَـرَى عَيْنَـاكَـا

---

(١) مع الله، د. سليمان العودة، ص: (٣٦، ٣٧).

والكـــونُ مشحـــونٌ بـــأســـرارٍ إذا حـــاولـتَ تفسيـراً لهـا أعيـاكـا[١]

و(الله) هو الإله المعبود ، الذي يُخْلِصُ له المؤمنون قلوبَهم ، وعبادتهم ، وصلاتَهم ، وحَجَّهم ، وأنساكَهم ، وحياتَهم ، وآخرتَهم ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣] .

وروحُ (لا إله إلا الله) وسرُّها: إفرادُ الربِّ جلّ ثناؤه ، وتقدّست أسماؤه ، وتبارك اسمُه ، وتعالى جَدُّه ، ولا إله غيرُه بالمحبةِ ، والإجلالِ ، والتعظيمِ ، والخوفِ ، والرجاءِ ، وتوابع ذلك من التوكلِ ، والإنابةِ ، والرغبةِ ، والرهبةِ ، فلا يُحَبُّ سواه ، بل كلُّ من كان يحِبُّ غيره فإنّما يحبُّه تبعاً لمحبته ، ولأنّه وسيلةٌ إلى زيادةِ محبته ، ولا يُخَاف سواه ، ولا يُرْجَىٰ سواه ، ولا يُتَوَكَّلُ إلاَّ عليه ، ولا يُرْغَبُ إلاَّ إليه ، ولا يُرْهَبُ إلاَّ منه ، ولا يُحْلَفُ إلاَّ باسمِهِ ، ولا يُنْذَرُ إلاَّ له ، ولا يُتَابُ إلاَّ إليه ، ولا يُطَاعُ إلاَّ بأمرِهِ ، ولا يُحْتَسَبُ إلاّ له ، ولا يُسْتَعَانُ في الشدائِد إلاّ به ، ولا يُلْتَجَأُ إلاّ إليه ، ولا يُسْجَدُ إلاّ له ، ولا يُذْبَحُ إلا له وباسمِهِ ، يجتمع ذلك في حرفٍ واحدٍ ، هو أنْ **لا يُعْبَدَ بجميع أنواعِ العباداتِ إلاّ هو** .

فهـذا **هو تحقيقُ شهادةِ أنْ لا إله إلا الله** ، ولهـذا حرَّمَ الله على النارِ مَنْ شهدَ أنْ لا إله إلا الله حقيقةً ، ومحالٌ أن يدخلَ النارَ مَنْ تحقَّقَ بحقيقةِ هـٰذه الشهادة ، وقامَ بها كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ [المعارج: ١٣] فيكونُ قائماً بشهادتهِ في باطنهِ وظاهره ، وفي قلبه وقالبه[٢] .

ومقتضى هـٰذه الشهادة أنْ تصدِّقَ رسول الله ﷺ فيما أخبرَ ، وأن تمتثلَ أمرَه فيما أمر ، وأنْ تتَجَنَّبَ ما عنه نهى وزجر ، وأنْ لا تعبدَ الله إلا بما شرع ، وأنْ لا تعتقدَ أنَّ لرسول الله ﷺ حقّاً في الربوبية ، وتصريفِ الكون ، أو حقّاً في العبادةِ ، بل هو ﷺ عبدٌ لا يُعْبَدُ ، ورسولٌ لا يكذَّبُ ، ولا يملِكُ لنفسِهِ ولا لغيرِهِ شيئاً منَ النفع أو الضرِّ إلا ما شاء الله[٣] .

---

(١) المصدر نفسه ، ص: (٣٩).
(٢) الجواب الكافي لابن القيم ، ص: (١٣٩).
(٣) الأمثال في القرآن ، د. عبد الله جربوع (١؛ ٢٣٣).

لقد عُرِفَتْ (**لا إله إلا الله**) لدى المسلمين (**بكلمة التوحيد**) و(**كلمة الإخلاص**) و(**كلمة التقوى**) ، وكانت (**لا إله إلا الله**) إعلانَ ثورةٍ على جبابرةِ الأرض وطواغيتِ الجاهلية ، ثورةٍ على كل الأصنام والآلهة المزعومة من دون الله ، سواء كانت شجراً أم حجراً أم بشراً.

وكانت (**لا إله إلا الله**) نداءً عالمياً لتحريرِ الإنسان من عبوديةِ الإنسان والطبيعة وكلّ مَنْ خُلِق ، وكانت (**لا إله إلا الله**) عنوانَ منهجِ اللهِ الذي لا تعنو الوجوهُ إلاّ له ، ولا تنقادُ القلوبُ إلاّ لحكمه ، ولا تخضعُ إلاّ لسلطانه[١].

ثانياً ـ فضل كلمة (لا إله إلا الله):

لقد ورد في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من الفضائل الجمّة لهـذه الكلمة ، والخصالِ العديدة ، والأوصافِ الحميدةِ ، ما يَصْعبُ استقصاؤه في هـٰذا الموضع ، فهي كلمةٌ قامت بها الأرضُ والسماوات ، وخُلِقَتْ لأجلها جميعُ المخلوقاتِ ، وبها أَرسلَ الله تعالى رسلَه ، وأنزلَ كتبَه ، وشرعَ شرائعَه ، ولأجلِها نُصِبَتْ الموازينُ ، ووضعت الدواوينُ ، وقام سوقُ الجنّة والنارِ ، وبها انقسمتِ الخليقةُ إلى المؤمنين والكفار ، والأبرار والفجّار ، فهي منشأُ الخلقِ والأمر ، والثوابِ والعقابِ ، وهي الحقُّ الذي خُلِقَتْ له الخليقةُ ، وعنها وعن حقوقها السؤالُ والحسابُ ، وعليها يقعُ الثوابُ والعقابُ ، وعليها نُصِبَتِ القبلةُ ، وعليها أُسِّسَتِ الملّةُ ، ولأجلِها جُرِّدَتِ سيوفُ الجهادِ ، وهي حقُّ اللهِ على جميعِ العبادِ ، فهي كلمةُ الإسلام ، ومفتاحُ دارِ السلام ، وعنها يُسْأَلُ الأولون والآخرون ، فلا تزولُ قدما العبدِ بين يدي الله حتى يُسْأَلَ عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟.

فجوابُ الأولى: **بتحقيق (لا إله إلا الله) معرفةً ، وإقراراً ، وعملاً**.

وجواب الثاني: **بتحقيق (أن محمداً رسول الله) معرفةً ، وإقراراً ، وانقياداً ، وطاعةً**[٢].

ومما ورد في فضل هـٰذه الكلمة في القرآن الكريم أنّها وُصِفَتْ **بالكلمة**

---

(١) الإيمان والحياة للقرضاوي ، ص: (٣١).
(٢) زاد المعاد (١/ ٣٤).

الطيبة ، **والقولِ الثابتِ** ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥] وأنها **العروة الوثقى** ، كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

ومن **فضائلها** أنّ الرسل جميعَهم أُرسلوا بها مبشرين ومنذرين ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] إلى غير ذلك من الفضائل التي ذُكِرتْ في القرآن الكريم .

وأما ما ورد في **فضلها في السنة المشرفة** فكثيرٌ جدّاً ، نذكرُ منه بعضُها :

فمن ذلك أنها **أفضل شعب الإيمان** ، فقد ورد عنه ﷺ أنّه قال: «**الإيمانُ بضْعٌ وسبعونَ ، أو بِضْعٌ وستون ، شُعْبَةً ، أفضلُها قولُ لا إله إلاّ الله ، وأَدْناها إمَاطَةُ الأذى عن الطريق**»(١) .

ومن فضائلها أن **الجهاد أُقِيْمَ من أجل إعلائها** ، كما قال الرسول ﷺ: «**أُمِرْتُ أنْ أقاتِلَ النَّاسَ حتّى يَشْهَدوا أنْ لا إلهَ إلا الله ، وأنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ ، ويقيموا الصلاةَ ، ويؤتوا الزكاةَ ، فإذا فعلوا ذلك ، عَصَمُوا منِّي دماءَهم وأموالَهم ، إلاّ بحقِّ الإسلامِ ، وحسابُهم على اللهِ**»(٢) .

ومن فضائلها أنّها ترجُحُ بصحائفِ الذنوب ، كما في **حديث البطاقة** ، ، فعن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان عدد شعب الإيمان ، وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء ، وكونه من الإيمان (٣٥) وأخرجه بلفظ مختصر البخاري في صحيحه في كتاب: الإيمان ، باب أمور الإيمان (٩) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان عدد شعب الإيمان . (٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ ﴾ [التوبة: ٥] (٢٥) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبي ﷺ ، وأن من فعل ذلك عصم نفسه وماله إلا بحقها ، ووكلت سريرته إلى الله تعالى ، وقتال من منع الزكاة أو غيرها من حقوق الإسلام ، واهتمام الإمام بشعائر الإسلام (٢٢).

عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رجلاً مِنْ أُمَّتي على رؤوس الخلائق يومَ القيامةِ ، فَيَنْشُرُ عليه تسعةً وتسعينَ سِجِلًّا ، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ ، ثُمَّ يقولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هـٰذا شيئاً ، أظلَمَكَ كَتَبتي الحافظونَ؟**.

فيقولُ: لا يا ربِّ.

فيقولُ: أفلك عُذْرٌ؟.

فيقولُ: لا يا ربِّ.

فيقولُ: بلى إنَّ لكَ عِنْدَنَا حسنةً ، فإنه لا ظُلمَ عليكَ اليومَ ، فتُخْرَجُ بطاقةٌ ، فيها: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ ، وأشهدُ أنَّ محمّداً عبدُه ورسولُه ، فيقول: احْضُرْ وزنَكَ.

فيقول: يا ربِّ ما هـٰذهِ البطاقةُ مَعَ هـٰذهِ السجّلاتِ؟

فقال: إنّك لا تُظْلَمُ.

قال: فتوضع السجلّاتُ في كِفّةٍ ، والبطاقةُ في كِفّةٍ ، فطاشتِ السجلّاتُ ، وَثَقُلَتِ البطاقةُ ، فلا يَثْقُلُ مَعَ اسمِ اللهِ شيءٌ»(١).

ثالثاً ـ أفضلُ الذكرِ (لا إله إلا الله):

إنّ ذكرَ اللهِ من أفضل العباداتِ المقرّبةِ إلى اللهِ تعالى وأجلِّها ، وأعظمِها أجراً ، مع سهولته ويُسْرِه على مَنْ يسرّهُ الله عليه.

هـٰذا وإنّ أفضلَ أنواعِ الذكر بعدَ القرآنِ العظيم هو قولُ المرء: **(لا إله إلا الله)**.

وهي كلمةُ التوحيدِ ، كما ورد عنه ﷺ أنّه قال: «**أفضلُ الذكرِ لا إله إلا الله**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه ، كتاب: الإيمان عن رسول الله ﷺ ، باب: ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٢٦٣٩). وقال الترمذي: هـٰذا حديث حسن غريب. وبلفظ قريب أخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب: الزهد ، باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٣٠٠).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه ، كتاب: الدعوات عن رسول الله ﷺ ، باب: ما جاء أن دعوة =

وهٰذه الكلمةُ الجليلةُ واجبٌ على كلِّ مسلمٍ أنْ يتعلَّمَها ، ويعلمَ مضمونُها ومعناها ، وشروطها وأركانها ، وكلَّ ما يتعلّق بها ، لأنّها الكلمةُ التي يصيرُ بها المرءُ مسلماً ، فهي الفيصلُ بين الكفر والإسلام ، ولأنَّ الله جلّ جلاله أمر أفضلَ خلقِهِ وخاتمَ رسلِهِ ﷺ أنْ يَعْلمَ كلَّ ما يتعلَّقَ بها ويعتقدَه في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] .

وقد ذمَّ الله سبحانه من استكبرَ عنها ، وأعرضَ عنها ، وتركَ العمل بها في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾ [الصافات: ٣٥ ـ ٣٦] .

ووصف الله سبحانه نفسَه بما تضمنته هٰذه الكلمةُ في غير موضع من كتابه فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥] .

وحققها إبراهيمُ عليه السلام كما حكى الله عنه بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨] .

رابعاً ـ أشعةُ كلمةِ (لا إله إلا الله) تبدِّدُ ظلماتِ القلوبِ:

اعلمْ أنَّ أشعة (**لا إله إلا الله**) تبدّدُ مِنْ ضبابِ الذنوبِ وغيومِهَا بقدر قوّةِ ذلك الشعاع وضعفه ، فلها نورٌ ، وتفاوتُ أهلِها في ذلك النور قوةً وضعفاً لا يحصيه إلا الله تعالى ، فمن الناس مَنْ نورُ هٰذه الكلمةِ في قلبه **كالشمس** ، ومنهم مَنْ نورُها في قلبه **كالكوكب الدرِّي** ، ومنهم مَنْ نورُها في قلبه **كالمشعل العظيم** ، وآخَرُ **كالسراج المضيء** ، وآخرُ **كالسراج الضعيف** ، ولهٰذا تظهرُ الأنوارُ يومَ القيامةِ بأيمانهم ، وبينَ أيديهم ، على هٰذا المقدار ، بحسب ما في قلوبهم من نور هٰذه الكلمة علماً وعملاً ، ومعرفة وحالاً ، وكلّما عَظُمَ نورُ هٰذه الكلمة واشتدّ أحرقَ مِنَ الشبهاتِ والشهواتِ بحسب قوته وشدته ، حتى إنّه ربما وصلَ إلى حالٍ لا يصادِفُ معها شبهةً ولا شهوةً ولا ذنباً إلا أحرقه ، وهٰذا حالُ الصادقِ

= المسلم مستجابة (٣٣٨٣) ، وقال الترمذي: هٰذا حديث حسن غريب. وأخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب: الأدب ، باب: فضل الحامدين (٣٨٠٠).

في توحيدِه ، الذي لم يشركْ باللهِ شيئاً ، فأيُّ ذنبٍ أو شهوةٍ أو شبهةٍ دنت من هٰذا النور أحرقَها ، فسماءُ إيمانه قد حُرِستْ بالنجوم من كلِّ سارقٍ لحسناته ، فلا يَنَالُ منها السارقُ إلا على غرّةٍ وغفلةٍ ، لا بدّ منها للبشر ، فإذا استيقظَ وعلمَ ما سُرِقَ منه استنقذه من سارقه ، أو حصّل أضعافه بكسبه ، فهو هكذا أبداً مع لصوص الجنِّ والإنسِ ، ليسَ كمَنْ فتحَ لهم خزانتَه ، وولّى البابَ ظهره[1].

خامساً ـ التوافق بين (لا إله إلا الله) و(إياك نعبد):

إنّ معنى **(لا إله إلا الله)** تضمّنه قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] وهٰذه الآيةُ متضمّنةٌ لأجلِّ الغايات ، ففيها يُسْرُ الخلق والأمر ، والدنيا والآخرة ، وهي متضمِّنةٌ لأجلِّ الغايات ، وأفضل الوسائل ، فأجلُّ الغايات عبوديتُه ، وأفضل الوسائل إعانتُه ، فلا معبودَ يستحقُّ العبادة إلا هو ، ولا معينَ على عبادته غيره ، فعبادتُه أعلى الغاياتِ ، وإعانتُهُ أجلُّ الوسائلِ.

وقد اشتملت هٰذه الكلمةُ على نوعي التوحيد ، وهما: **توحيد الربوبية ، وتوحيد العبادة** ، وتضمّنت التعبُّدَ باسم الرب واسم الله ، فهو يُعْبَدُ بألوهيته ، ويُستعانُ بربوبيته ، ويُهْدَىٰ إلى الصراط المستقيم برحمته ، فكان أولُ السورةِ ذكر اسمه: (الله) و(الرب) و(الرحمن) تطابقاً لأجل الطالبِ من عبادته وإعانته وهدايته ، وهو المنفرد بإعطاء ذلك كله ، لا يعينُ على عبادته سواه ، ولا يهدي سواه[2].

سادساً ـ شروط (لا إله إلا الله): لمّا كان معنى **(لا إله إلا الله)** هو أنّه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله ، ولمّا كان كثيرٌ من الناس لا يدرِكُ معنى وأهمية **(لا إله إلا الله)** كان لا بدَّ لنا أن نتحدّث عن شروطِ هٰذه الكلمة.

ورحم الله وهب بن منبه حين سُئِلَ: أليستْ **(لا إله إلا الله)** مفتاح الجنّة؟.

قال: بلى ، ولكنْ ليس مفتاحٌ إلا له أسنان ، فإن جئتَ بمفتاحٍ له أسنانٌ فتَحَ لك ، وإلاّ لم يفتحْ لكَ[3] ، وهٰذه الأسنانُ هي شروطُ هٰذه الكلمة

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٦٩).

(٢) الإيمان بالله د. عمر الأشقر ص: (٩٦) نقلاً عن ابن القيم في الصلاة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقاً ، كتاب: الجنائز ، باب: في الجنائز ، ومن كان آخر =

العظيمة[١] ، والتي عددُها سبعة عند العلماء ، وليس المرادُ مِنْ هٰذا عدَّ ألفاظِها ، وحفظَها ، فكم مِنْ عاميٍّ اجتمعت فيه والتزمَها ، ولو قيل له عددها لم يُحْسِنْ ذلك. وكم حافظ لألفاظِها يجري فيها كالسهمِ ، وتراهُ يقعُ كثيراً في ما يناقِضُها. والتوفيق بيد الله[٢] .

إليك هٰذه الشروط مع أدلّتها من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ مع الاختصار :

١ ـ العلم بمعناها ـ نفياً وإثباتاً ـ علماً ينافي الجهل بها:

قال الله تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩] وقال تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

وفي «الصحيح» قال رسول الله ﷺ : **«مَنْ ماتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أنّه لا إله إلا الله دَخَلَ الجنّةَ»**[٣] .

٢ ـ اليقين المنافي للشك:

وذلك بأن يكونَ قائِلُها مستيقناً بمدلولِ هٰذه الكلمة يقيناً جازماً. قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] .

وقال رسول الله ﷺ : **«أشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ ، وأنّي رسولُ اللهِ ، لا يَلْقَى اللهَ بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ فيهما إلّا دخلَ الجنّة»**[٤] .

وقال رسول الله ﷺ لأبي هريرةَ رضي الله عنه : **«اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هاتَينِ فَمَنْ لقيتَ**

= كلامه : لا إله إلا الله (١/ ٤١٧). ووصله البخاري في تاريخه الكبير (١/ ٩٥) رقم (٢٦١) ، وأبو نُعيم في حلية الأولياء (٤/ ٦٦).

(١) مسائل هامة في توحيد العبادة ، محمد القحطاني ص : (٢١).

(٢) معارج القبول للحكمي (١/ ٣٧٧).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : الدليل على أنَّ مَنْ مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٢٦).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٢٧).

من وراءِ هـٰذا الحائطِ يَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ مستيقناً بها قلبُه ، فبشِّرْهُ بالجنّةِ»(١) .

٣ ـ القبول لما اقتضته هـٰذه الكلمة بالقلب واللسان:

وقد قصّ الله علينا من أنباء ما قد سَبق مِنْ إنجاءِ مَنْ قَبلَها ، وانتقامه ممّن ردّها وأباها.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] .

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٢] .

وقال تعالى عن الذين كذبوا بهـذه الكلمة ورفضوها ولم يقبلوها: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٥] .

وقال رسول الله ﷺ: **«مَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ بهِ مِنَ الهُدىٰ والعِلْم كَمَثَلِ الغَيْثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً ، فكانَ مِنْها نقيةٌ ، قَبلتِ الماءَ ، فَأَنْبَتَتِ الكلأَ والعُشْبَ الكثيرَ ، وكانتْ منها أجادِبُ أمسكتِ الماء ، فنفعَ اللهُ بها الناسَ ، فشربوا وسَقَوا وزَرَعُوْا ، وأصابتْ منها طائفةً أُخرى ، إنّما هيَ قِيعانٌ ، لا تمسكُ ماءً ، ولا تُنْبِتُ كلأً ، فذلك مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دينِ اللهِ ، ونَفَعَهُ ما بعثني اللهُ بهِ ، فَعَلِمَ وعَمِلَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْساً ، ولم يَقْبَلْ هَدْيَ اللهِ الذي أُرْسِلتُ به»**(٢) .

٤ ـ الانقياد لما دلّت عليه ، المُنافي لترك ذلك:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤] .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٣١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: العلم ، باب: فضل من عَلِم وعَلَّم (٧٩) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الفضائل ، باب: بيان مثل ما بُعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم (٢٢٨٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

٥ ـ الصدق المنافي للكذب:

وذلك بأنْ يقولَها صدقاً من قلبه، يواطِئُ قلبُه لسانَه. قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

وقال رسول الله ﷺ: **«ما مِنْ أحدٍ يَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ، وأنَّ محمَّداً رسول الله صِدْقاً مِنْ قلبِهِ إلَّا حَرّمَهُ اللهُ على النَّارِ»**(١).

٦ ـ الإخلاص:

وهو تصفيةُ العملِ الصالحِ النيةِ عن جميعِ شوائبِ الشرك، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وقال رسول الله ﷺ: **«أَسْعَدُ النَّاسِ بشفاعتي مَنْ قالَ لا إلهَ إلّا اللهُ خالِصاً مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»**(٢).

وقال رسول الله ﷺ: **«إنَّ اللهَ حرّمَ على النَّارِ مَنْ قالَ: لا إلهَ إلَّا اللهَ يبتغي بذلكَ وَجْهَ الله»**(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: العلم، باب: من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهيةَ أن لا يفهموا (١٢٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أنَّ من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: العلم، باب: الحرص على الحديث (٩٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: المساجد في البيوت (٤١٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (٣٣).

٧ ـ المحبةُ لهـذه الكلمة ولما اقتضته ودلّت عليه ، ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها ، وبغض ما ناقض ذلك:

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] .

وقال رسول الله ﷺ: «**ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ بهنَّ حلاوةَ الإيمان: مَنْ كانَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليهِ ممّا سواهما ، وأنْ يحبَّ المرءَ لا يحبُّهُ إلا للهِ ، وأنْ يكرَهَ أنْ يعُودَ في الكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أنقذَهُ اللهُ مِنْهُ ، كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ**»(١) .

وقال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمنُ أحدُكُم حتّى أكونَ أحبَّ إليهِ مِنْ ولدِهِ ووالدِهِ والناسِ أجمعين**»(٢) .

ومحبةُ اللهِ سبحانه وتعالى لا تتمَّ إلا بمحبَّةِ ما يحبُّه ، وكره ما يكرهه ، **وطريقُ معرفةِ ذلك هو اتباعُ الرسول ﷺ ومحبتُه ، فمحبةُ اللهِ تستلزمُ محبَّة الرسولِ ﷺ واتباعَه وطاعتَه**(٣) ، فهـذه الشروطُ مَنْ حقَّقَها ، وعَمِلَ بها ، وابتعدَ عمّا يناقِضُها ، أوجبَ له مغفرةَ الذنوب بإذن الله تعالى(٤) .

سابعاًـ ارتباط (لا إله إلا الله) بالولاء والبراء:

ولمّا كان أصلُ الموالاة: **الحبُّ** ، وأصلُ المعاداةِ: **البغضَ** ، وينشأُ عنهما من أعمالِ القلوبِ والجوارحِ ما يدخلُ في حقيقةِ الموالاةِ والمعاداةِ كالنُّفْرَةِ ، والأُنْسِ ، والمعاونة ، وكالجهادِ ، والهجرة ، ونحو ذلك(٥) ، فإنَّ الولاءَ والبراءَ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب حلاوة الإيمان (١٦) ، (٢١) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: حب الرسول من الإيمان (١٥) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين ، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هـذه المحبة (٤٤) .

(٣) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار ، (٢/ ٦٢٣) .

(٤) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار ، (٢/ ٦٢٣) .

(٥) الرسائل المفيدة ، عبد اللطيف بن عبد الرحمن ص: (٢٩٦) .

مِنْ لوازمِ (**لا إله إلا الله**) قال الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال رسول الله ﷺ: «**أوثقُ عُرى الإيمانِ الحبُّ في الله والبغضُ في الله**»(١).

ولقد ضربَ نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام نموذجَ الأسوة الحسنة في ولائه لربِّ العالمين، حيثُ كان عليه السلام أسوةً حسنةً، وقدوةً طيبةً في ولائه لربه ودينه وعباد الله المؤمنين، وبرائه ومعاداته لأعداءِ الله، ومنهم أبوه.

لقد كانت سيرةُ نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام مع قومه، كأيِّ نبيٍّ رسولٍ، حيث دعاهم بالتي هي أحسن إلى عبادة الله وتوحيده، وإفرادِه بالعبادة، والكفرِ بكلِّ طاغوتٍ يُعْبَدُ من دون الله(٢).

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٩].

تلك هي نقطةُ البَدْءِ في دعوة خليل الرحمن، دعوةٍ بالحسنى، مبتدئاً بأقرب الناسِ إليه، فإنْ لم يكن هناك تجاوبٌ مع هـٰذه الدعوة فالاعتزالُ لهـٰذا الباطل

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب: الإيمان والرؤيا، باب (٧/ ٨٠) رقم (٣٤٣٣٨)، والطيالسي في مسنده (١/ ١٠١) رقم (٧٤٧) عن البراء بن عازب. قال الألباني في تخريج أحاديث كتاب الإيمان لابن تيمية ص (١١٩): صحيح.

(٢) الولاء والبراء في الإسلام، د. القحطاني، ص: (١٤٥).

وأصحابه ، علّ في ذلك ردعاً وزجراً وتفكراً في هـٰذا الأمر الجديد ، ونجاة للداعي من مشاركة أهل الباطل في باطلهم ، إذا كان لا بدّ له من مخالطتهم ومعاشرتهم ، وعدم تمكّنه من الهجرة في أرضهم .

ثم يمضي القرآن في بيان دعوة إبراهيم عليه السلام ، مبيّناً أنّه استخدمَ مع قومه كلَّ حجة ودليل ، قال تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء : ٧٠ ـ ٧٧] .

ولمّا لم يجدوا حجةً ، وإنّما هو التقليدُ الأعمى لفعل الآباء والأجداد ، قال لهم إبراهيم عليه السلام : أنا عدو آلهتكم هـٰذه ، قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وعقيدة إبراهيم عليه السلام هـٰذه هي التي عبّر عنها علماؤنا الأجلاء بقولهم : «**لا موالاة إلا بالمعاداة ، ولا تصحُّ الموالاةُ إلا بالمعاداة**»(١) كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين ، أنه قال لقومه : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء : ٧٧] ، فلم تصحَّ لخليل الله هـٰذه الموالاةُ والخُلّةُ إلا بتحقيق هـٰذه المعادلة ، فإنّه لا ولاءَ إلا لله ، ولا ولاءَ إلا بالبراءِ مِنْ كلِّ معبودٍ سواه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف : ٢٦ ـ ٢٨] ، أي جعلَ هـٰذه الموالاة للهِ ، والبراءةَ مِنْ كلِّ معبودٍ سواه ، كلمةً باقيةً في عقبه ، يتوارثها الأنبياءُ بعضُهم عن بعضٍ ، وهي كلمةُ (**لا إله إلا الله**) ، وهي التي ورَّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة .

وقد كان من نتيجة هـٰذه المعاداةِ وهـٰذا البراء القويِّ أَنْ أجمعَ الطغاةُ على قتل إبراهيم ـ كما هو حال كل طاغية على مر عصور التاريخ في إبادة الدعاة إلى الله لا لشيء إلا لأنهم يدعونهم إلى عبادة الله وحده ـ وجمعوا له ناراً عظيمة ، فكانت رعايةُ اللهِ وحفظُهُ تحوطان خليله الصادق عليه الصلاة والسلام ، فصارت النارُ

---

(١) الولاء والبراء في الإسلام ، ص : (١٤٦ ، ١٤٧) .

برداً وسلاماً عليه ، قال تعالى : ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٩٧ ـ ٩٨] لقد عدلوا عن الجدال والمناظرة لمّا انقطعوا وغُلِبوا ، ولم تبقَ لهم حجةٌ ولا شبهةٌ إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم ، فكادهم الربُّ جلّ جلاله ، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه ، كما قال تعالى : ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠] .

وجاءت التوجيهاتُ الربانيّة لخاتم الأنبياء محمد ﷺ باتباع ملّة إبراهيم عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج: ٧٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ ﴾ [البقرة: ١٣٠] .

فهـذه الأخبار مِنَ اللهِ لأمّة محمد ﷺ عَنْ فعلِ إبراهيم عليه السلام من أجلِ الاقتداءِ به في الإخلاص والتوكل على الله وحده ، وعبادةِ الله وحدَه ، والبراءِ من الشركِ وأهلِه ، ومعاداةِ الباطلِ وحزبه[1] .

---

(١) الولاء والبراء في الإسلام ، ص: (١٤٨ ، ١٤٩).

والأمثلةُ على أنّ مِنْ لوازمِ (**لا إله إلا الله**) الولاءَ والبراءَ كثيرةٌ ، كقصة نوح عليه السلام مع زوجه ، وغيرها من القصص(١) .

لقد جمعت (**لا إله إلا الله**) صُهيباً الرومي ، وبلالاً الحبشي ، وسلمانَ الفارسي ، وأبا بكر العربي القرشي ، وتوارت عصبيةُ القبيلةِ والجنسِ والأرض ، وقال لهم رسول الله ﷺ: «**دعوها فإنّها منتنةٌ**»(٢) ، وقال: «**ليسَ مِنّا مَنْ دعا إلى عصبيةٍ ، وليسَ منّا مَنْ قاتلَ على عصبيةٍ ، وليس مِنّا مَنْ ماتَ على عصبيةٍ**»(٣) .

وتبقى سيرة المصطفى ﷺ وسيرة صحابته الأخيار رضوان الله عليهم منارَ هدًى وإصلاحٍ لمن سلكَ ذلك السبيل ، ورضي بذلك النهجِ القويم(٤) .

ثامناً ـ آثار الإقرار بـ (لا إله إلا الله):

إنَّ لكلمة (**لا إله إلا الله**) آثاراً عظيمةً في حياةِ المؤمنِ ، منها:

١ ـ **أنَّ المؤمن بهـذه الكلمة لا يكون ضيّقَ النظر** ، بخلاف من يقول بآلهةٍ متعددةٍ ، أو من يجحدُها .

٢ ـ **أن الإيمان بهـذه الكلمة ينشئُ في النفس من الأَنفة وعزّة النفس ما لا يقوم دونه شيءٌ** ، لأنّه لا نافعَ إلا الله ، ولا ضارَّ إلا الله ، وهو المحيي المميت ، وهو الحكيم القوي ، مالك الملك ، ومِنْ ثَمَّ يُنْزَعُ من القلبِ كلُّ خوفٍ

---

(١) المصدر السابق ، ص: (١٥٠) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: تفسير القرآن ، باب: قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦] (٤٦٢٢) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: البر والصلة والآداب ، باب: نصرُ الأخِ ظالماً أو مظلوماً (٢٥٨٤) .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب: الأدب ، باب: في العصبية (٥١٢١) . قال السندي: قال أبو داود: في رواية ابن العبد: هـٰذا مرسل ، عبد الله بن أبي سليمان لم يسمع من جبير . هـٰذا آخر كلامه . وفي إسناده: محمد بن عبد الرحمن المكي ، وقيل فيه: العكي . قال أبو حاتم الرازي: هو مجهول ، وقد أخرج مسلم في صحيحه ، والنسائي في سننه من حديث أبي هريرة بمعناه أتم منه ، ومن حديث جندب بن عبد الله البجلي مختصراً . عون المعبود (١٤/١٩) .

(٤) الولاء والبراء في الإسلام ، ص: (١٥٨) .

إلا منه سبحانه ، فلا يطأطِئُ الرأسَ أمامَ أحدٍ من الخلق ، ولا يتضرّعُ إلا إليه ، ولا يتكفّف إلا له ، ولا يرهب إلاّ من كبريائه وعظمته ، لأن لله وحده الكبرياء والعظمة والقدرة ، وهـٰذا بخلاف المشرك والكافر والملحد.

٣ ـ ينشأ من هـٰذه الكلمة ، تواضعٌ من غير ذلٍّ ، وترفُّعٍ من غير كِبْرٍ.

٤ ـ المؤمن بهـذه الكلمة ، يعلم علم اليقين أنَّه لا سبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح.

أما المشركون والكفار ، فإنَّهم يقضون حياتهم في أماني كاذبة:

فمنهم من يقول: إنَّ ابنَ الله قُتِلَ وصُلِبَ كفارةً لذنوبنا عند أبيه.

ومنهم من يقول: نحن أبناءُ اللهِ وأحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا.

ومنهم من يقول: إنّا سنتشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا.

ومنهم من يقدّمُ النذورَ والقرابينَ إلى آلهته ، زاعماً أنّه قد نالَ بذلك رخصةً في العمل بما يشاء.

أما الملحدُ الذي لا يؤمِنُ بالله ، فيعتِقدُ أنّه حرٌّ في هـٰذه الدنيا ، غيرُ مقيَّدٍ بشرعِ اللهِ ، وإنّما إلهه هواه وشهوته ، وهو عبدهما.

٥ ـ قائل هـٰذه الكلمة لا يتسرب إليه اليأس ، ولا يقعد به القنوط ، لأنَّه يؤمِنُ أنَّ الله له خزائنُ السماوات والأرض ، ومِنْ ثَمَّ فهو على طمأنينةٍ وسكينةٍ وأملٍ ، حتى لو طُرِدَ وأهينَ ، وضاقت عليه سُبُل العيش.

٦ ـ الإيمان بهـذه الكلمة يربي الإنسان على قوة عظيمة من العزم والإقدام ، والصبر والثبات والتوكل ، حينما يضطلع بمعالي الأمور ابتغاءَ مرضاة الله ، إنَّه يشعر أنَّ وراءه قوة مالك السماء والأرض ، فيكونُ ثباتُهُ ورسوخهُ وصلابتُه التي يستمدّها من هـٰذا التصور ، كالجبال الراسية ، وأنّى للشرك والكفر بمثل هـٰذه القوة والثبات؟

٧ ـ هـٰذه الكلمة تشجِّعُ الإنسان ، وتملأ قلبه جرأةً ، لأن الذي يجبِّنُ الإنسانَ ويوهّنُ عزمه شيئان:

١ ـ حبه للنفس والمال والأهل.

٢ ـ واعتقاده أنَّ أحداً غيرَ الله يميتُ الإنسان.

فإيمانُ المرءِ بـ (**لا إله إلا الله**) ينزعُ عن قلبه الأولَ (وهو حبّه للنفس والمال والأهل)، فيجعله موقناً أنَّ الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله، فعندئذٍ يضحّي في سبيل مرضاة ربه بكلِّ غالٍ ونفيسٍ عنده. وينزع الثاني (وهو اعتقادُه أنَّ أحداً غير الله يميت الإنسان) بأن يلقِي في روعهِ أنّه لا يقدِرُ على سلبِ الحياة منه إنسانٌ ولا حيوانٌ ولا غيرُه إلا إذا جاء أجله، منْ أجلِ ذلك لا يكونُ في الدنيا أشجعُ ولا أجرأُ ممّنْ يؤمِنُ بالله تعالى، فلا يكادُ يخيفه أو يثبتُ في وجهه زحَفُ الجيوش، ولا السيوف المسلولة، ولا مطرُ الرصاص، ولا وابلُ القنابل.

٨ ـ **الإيمان بـ (لا إله إلا الله) يرفع قدر الإنسان**، وينشئُ فيه الترفُّعَ والقناعةَ والاستغناء، ويطهِّرُ قلبَه من أوساخ الطمع، والشره، والحسد، والدناءة، واللؤم، وغيرها من الصفات القبيحة.

٩ ـ والإيمان بـ (لا إله إلا الله) يجعل الإنسان متقيداً بشرع الله، ومحافظاً عليه، فإنَّ المؤمنَ يعتِقدُ بيقينٍ أنَّ الله خبيرٌ بكلِّ شيءٍ، وهو أقربُ إليه مِنْ حبلِ الوريد، وأنّه إنْ كان يستطيعُ أن يفلتَ مِنْ بطشِ أيٍّ كانَ، فإنَّه لا يستطيعُ أن يفلتَ مِنْ اللهِ عزّ وجلّ، وعلى قَدْرِ ما يكونُ هـٰذا الإيمانُ راسخاً في ذهن الإنسان يكونُ متّبعاً لأحكام الله، قائماً عند حدودهِ، لا يجرؤ على اقترافِ ما حَرَّم الله، ويسارعُ إلى الخيراتِ والعملِ بما أمر الله.

لذا فالعبدُ الذي ملأ اللهُ قلبه إيماناً بـ (**لا إله إلا الله**) هو في الحقيقة عبدٌ مطيعٌ منقادٌ لربه سبحانه وتعالى، وهـٰذا هو أصلُ الإسلام، وهو مصدرُ قوته، وكلُّ ما عداه من معتقداتِ الإسلامِ وأحكامِه إنّما هي مبنيّةٌ عليه، ولا تستمدّ قوتها إلا منه، والإسلامُ لا يبقى منه شيءٌ لو زال هـٰذا الأساس(١).

* * *

(١) مبادئ الإسلام للمودودي، ص: (٨٧).

المبحث الثاني

إثبات وجود الخالق جل جلاله

أولاً ـ دليل الخلق

ثانياً ـ دليل الفطرة والعهد .

ثالثاً ـ دليل الآفاق .

رابعاً ـ دليل الأنفس

خامساً ـ دليل الهداية .

سادساً ـ دليل انتظام الكون وعدم فساده .

سابعاً ـ دليل التقدير

ثامناً ـ دليل التسوية

* * *

المبحث الثاني

إثبات وجود الخالق

رغم أنّه لا توجَدُ في القرآنِ الكريم مناقشةٌ صريحةٌ لمنكري الخالق إلاّ أنَّ الإيمانَ بوجودِ خالقٍ لهـذا الكونِ قضيةٌ ضروريةٌ لا مساغَ للعقلِ في إنكارِها ، فهي ليستْ قضيةً نظريةً تحتاجُ إلى دليلٍ وبُرهانٍ ، ذلك لأنَّ دلالةَ الأثرِ على المؤثِّرِ يدرِكُها العقلُ بداهةً ، والعقلُ لا يمكنُ أن يتصوّر أثراً من غيرِ مؤثِّرٍ ، أيَّ أثرٍ ، ولو كانَ أثراً تافهاً ، فكيف بهـذا الكون العظيم؟!.

ولذلك لم يناقشِ القرآنُ الكريم هـٰذه القضية حتى حينما أوردَ إنكارَ فرعونَ لربِّ العالمين ، يوم أن قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧] فكان موسى عليه السلام لا يعيرُ اهتماماً لهـذه الإنكارات ، وتعاملَ مع فرعونَ على أساسِ أنَّه مؤمنٌ بوجودِ الخالقِ ، فتراه يقولُ له مثلاً: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] .

وقد عزا القرآن الكريم هـٰذا الإنكارَ والتكبُّرَ والعِنادَ ، فقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٧] .

وأوضحَ ذلك أكثر فقال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] .

إنّ البيئةَ التي أُنزل فيها القرآنُ الكريمُ كانت وثنيةً في الغالب ، وكتابيةً في بعض القرى ، أو بعض الأشخاص ، والكتابيون لا ينكرون الخالق ، وأمّا

الوثنيون فمع عبادتهم للأوثان إلاّ أنّهم كانوا يؤمنون بالخالق سبحانه، وسجّل القرآن هٰذا لهم في أكثر من موضع[١]، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢] ولهـذا لم يَحْتَج القرآنُ الكريم أن يفتحَ الموضوع مع هؤلاء الناس.

بل حتّى خارج هٰذه البيئة لم يُعْرَفْ هناك منكِرٌ للخالق، يقول الشهرستاني: أمّا تعطيلُ العالم عن الصانعِ العليمِ القادرِ الحكيم فلستُ أراها مقالةً لأحدٍ، ولا أعرفُ عليها صاحبَ مقالةٍ، إلا ما نُقِلَ عن شرذمة قليلةٍ من الدهريّةِ، ولستُ أرى صاحبَ هٰذه المقالة ممّن ينكِرُ الصانع، بل هو معترِفٌ بالصانع، فما عُدَّتْ هٰذه المسألةُ من النظريات التي قام عليها دليل[٢]. ومع خلوِّ القرآن الكريم من مناقشةٍ صريحةٍ لمنكري الخالق، إلا أنّه تضمّن أدلةً كثيرةً لإثبات وجوده، غير أنها جاءت في الغالبِ لإثبات مسائلَ أخرى: كالوحدانية، والنبوة، والبعث[٣].

ومن هٰذه الأدلة التي ذكرت في القرآن الكريم:

أولاً ـ دليل الخلق:

وخلاصةُ هٰذا الدليل: أنَّ هٰذا الخلقَ بكلِّ ما فيه شاهدٌ على وجودِ خالقه العليِّ القدير سبحانه، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٦] يقول لهم: أنتم موجودون، هٰذه حقيقةٌ لا تنكرونها، وكذلك السماواتُ والأرضُ موجودتان، وقد تقرّر في بداهةِ العقول أنَّ الموجودَ لا بدَّ من سببٍ لوجودِهِ.

وهٰذا **يدركُه راعي الإبل**، فيقول: البعرةُ تدلُّ على البعيرِ، والأثرُ يدلُّ على المسير، فسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، وأرضٌ ذاتُ فِجاجٍ، أفلا يدلُّ ذلك على العليمِ الخبيرِ.

ويدركه كبارُ العلماء الباحثين في الحياة والأحياء، يقول أحدهم: إنَّ الله

---

(١) المحكم في العقيدة، د. محمد الكبيسي، ص: (٦٥ ـ ٦٦).
(٢) نهاية الإقدام للشهرستاني، ص: (١٢٣ ـ ١٢٤).
(٣) المحكم في العقيدة، ص: (٦٦).

الأزلي الكبير ، العالم بكل شيء ، والمقتدر على كل شيء ، قد تجلّى لي ببدائع صنعه ، حتى صرتُ دَهشاً متحيراً ، فأيُّ قدرةٍ ، وأيُّ حكمةٍ ، وأيُّ إبداعٍ أودعه مصنوعاتٍ يده صغيرِها وكبيرِها(١)؟!.

وهـٰذا الذي أشارتْ إليه الآيةُ هو الذي يُعْرَفُ عندَ العلماء باسم: **قانون السببية** ، هـٰذا القانونُ يقول: إنَّ شيئاً من «الممكنات» لا يحدُثُ بنفسِه من غيرِ شيءٍ ، لأنّه لا يحمِلُ في طبيعته السببَ الكافي لوجودِه ، ولا يستقلُّ بإحداثِ شيءٍ ، لأنَّه لا يستطيعُ أن يمنحَ غيرَه شيئاً لا يملكه هو(٢).

وبهـذا الدليل كان علماءُ الإسلام ولا يزالون يواجِهون الجاحدين.

فهـذا الإمام أبو حنيفة رحمه الله يعرِضُ له بعضُ الزنادقة المنكرين للخالق ، فيقول لهم: ما تقولون في رجلٍ يقولُ لكم: رأيتُ سفينةً مشحونةً بالأحمالِ ، مملوءةً من الأنفال ، قد احتوشتها في لُجَّةِ البحرِ أمواجٌ متلاطمة ، ورياحٌ مختلفة ، وهي مِنْ بينها تجري مستويةً ، ليس لها ملاّحٌ يجريها ، ولا متعهِّدٌ يدفعُها ، هل يجوزُ ذلك في العقل؟.

قالوا: هـذا شيءٌ لا يقبلُه العقلُ.

فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله! إذا لم يجزْ في العقلِ سفينةٌ تجري في البحرِ مستويةً من غيرِ متعهِّدٍ ولا مُجْرٍ ، فكيف يجوزُ قيامُ هـٰذه الدنيا على اختلافِ أحوالها ، وتغيُّرِ أعمالها ، وسَعَةِ أطرافها ، وتباين أكنافها ، من غير صانعٍ ولا حافظٍ؟!.

فبكوا جميعاً ، وقالوا: صدقتَ وتابوا(٣).

هـٰذا القانون الذي سلّمت به العقول ، وانقادت له ، هو الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] وهو دليلٌ يرغمُ العقلاءَ على التسليم بأنَّ هناك خالقاً معبوداً ، إلاّ أنَّ الآيةَ صاغته صياغةً بليغةً مؤثّرةً ، فلا

---

(١) مع الله ، للشيخ حسن أيوب ص: (٧٦).
(٢) العقيدة في الله ، د. عمر الأشقر ص: (٦٩).
(٣) مع الله ، حسن أيوب ص: (٦٨) ، العقيدة في الله ص: (٧٠).

تكادُ الآيةُ تمسُّ السمعَ حتى تزلزلَ النفسَ وتهزَّها[١].

قال أبو العتاهية (من المتقارب):

فـــواعجبـــاً كيـــفَ يُعْصَـــىٰ الإلٰـــهُ أَمْ كيـــفَ يَجْحَـــدُهُ الجَـــاحِـــدُ
وفـــي كـــلِّ شـــيءٍ لَـــهُ آيـــةٌ تـــدلُّ علـــى أنَّـــهُ وَاحِـــدُ

لقد تناولَ القرآنُ الكريمُ قضيةَ الخَلْقِ والتدبير تناولاً فريداً ، وعُني بتوجيه العقولِ إلى النظرِ في آفاقِ الكونِ وآياتِ الله الكثيرة ، وأهابَ بالعقلِ أنْ يستيقظَ من سُباته ، ليتفكَّرَ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، وما أودعَ فيها من الآياتِ.

ويكرِّرُ القرآنُ الكريم ذلك في أساليب متنوّعة ، ليرى هٰذا الإنسانُ ويسمعَ في آفاقِ الكونِ ما يقودُهُ إلى الإيمانِ بخالقه سبحانه وتعالى ، ويعلمَ أنَّ هٰذا الكونَ هو مِنْ صُنعِ الله الخالق المدبر ، المستحقّ للعبادة وحدَه لا شريكَ له[٢].

ثانياً ـ دليل الفطرة والعهد:

إنّ معرفةَ الخالق ، والإقرارَ بوجودِه تبارك وتعالى وربوبيته أمرٌ بدهي مغروسٌ في نفوس الناس وفطرهم ، إذ لو تُرِكَ الإنسانُ في مكانٍ خالٍ لا يوجدُ فيه أحدٌ ، بعيداً عن كل المؤثّرات الخارجية ، وعن كلِّ الشوائب العقدية ، لاستطاعَ بفطرته أن يعرفَ أنَّ لهـذا الكونِ خالقاً مدبِّراً ومتصرِّفاً ، ثم بفطرته يتوجَّه لمحبةِ خالقِهِ.

ومن هنا نعلمُ أنَّ مَنْ أنكرَ وجودَ الخالقَ جلَّ جلاله من الملحدين ، إنّما أُتوا من انحرافِ فطرهم ، ومن تأثيرِ الشياطين عليهم ، وتلاعبهم بهم.

ودليلُ الفطرة هٰذا دلَّ عليه القرآنُ الكريمُ والسنةُ النبويّةُ المطهرة ، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠] . فالمقصود بالفطرة هنا الإسلام ، فالله جل جلاله فطر الناسَ على دين الإسلامِ والتوحيد[٣].

قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ مولودٍ إلا يولدُ على الفِطْرَةِ ، فأبواه يهوّدانِهِ ، أو ينصّرانِهِ أو يمجّسانِهِ ، كما تُنْتِجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء ، هل تحسّون فيها مِنْ**

---

(١) العقيدة في الله ، للأشقر ص: (٧١).
(٢) حماية الرسول ﷺ حمى التوحيد للغامدي ص: (٢١٦).
(٣) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (١/ ٣٦٨).

جَدْعاء»[١]؟ ، وفي الحديث القدسي: «**يقول تبارك وتعالى: إنِّي خَلَقْتُ عبادِي حنفاء كلَّهم ، وإنّهم أتتهم الشياطينُ فاجْتالَتْهُم عن دينهم**»[٢]. ومعنى (**حنفاء**) أي: مائلينَ عن الأديانِ كلِّهم إلى دين الإسلام[٣]. ومعنى (**اجتالتهم**) استخفتهم، فجالوا معهم في الضلال[٤].

ومن أجل أهميّةِ الفطرةِ في دلالةِ الناسِ على ربّهم ، وتعريفهم به ، كان رسول الله ﷺ إذا أصبحَ أو أمسى يقرِّرُ أنه يُصْبِحُ ويُمْسِي على هـٰذه الفطرةِ فطرةِ الإسلامِ ، وأنّها لم تتأثَّرْ بالمؤثِّرات والعوارض الخارجية ، من نزعات الشياطينِ ووساوسهم ، فقد ورد عنه ﷺ أنّه كان يقولُ إذا أصبحَ وإذا أمسى: «**أصبحنا** (أو أمسينا) **على فطرةِ الإسلامِ ، وعلى كلمةِ الإخلاصِ ، وعلى دينِ نبيّنا محمّدٍ** ﷺ ، **وعلى ملّةِ أبينا إبراهيم ، حَنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**»[٥]. فقد أكّد على سلامة الفطرة من الانحراف بقوله: «**وعلى كلمَةِ الإخلاص**» وهي شهادة أن لا إله إلا الله. وبقوله: «**وعلى دينِ نبيِّنا محمَّدٍ** ﷺ» وهو الدين الإسلامي، وبقوله: «**وعلى مِلّةِ أبينا إبراهيمَ حنيفاً مسلماً**» أي مائلاً عن كلِّ ما يخالِفُ هـٰذه الفطرة من الأديان والعقائد الفاسدة، التي تنكِرُ الربَّ سبحانه وتعالى، أو تزعمُ أنَّ معه شريكاً في مُلْكِهِ أو عبوديتِهِ إلى الإسلام الخالص، فإذا حقَّقَ توحيدَ الألوهية (توحيد العبادة) كان توحيدُ الربوبية محقّقاً ، لأنَّ توحيدَ الألوهية (توحيد العبادة) يتضمَّنُ توحيدَ الربوبية، وبذلك تكونُ الفطرةُ قد دلّت على توحيدِ الربوبية[٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجنائز ، باب: إذا أسلم الصبيُّ فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (١٢٩٢) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: القدر ، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة ، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٥٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥).

(٣) تفسير القرطبي (٢٠/ ١٤٤).

(٤) النهاية في غريب الحديث ، لابن الأثير (جول).

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٤٠٦ ، ٤٠٧) مسند المكيين ، حديث عبد الرحمن بن أبزي الخزاعي. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١١٦): رواه أحمد والطبراني ، ورجالهما رجال الصحيح.

(٦) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (١/ ٣٧٠).

وهٰذه الفطرةُ التي فطرَ الله عليها عبادَه لها صلةٌ وارتباطٌ وثيقٌ بالعهدِ الذي أخذه سبحانه وتعالى على بني آدم ، وهم في عالم الذَّرِّ ، كما أشار اللهُ بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣] .

فهـذا العهدُ والميثاقُ الذي أخذه الله جل جلاله على الناس ، مضمونُه الاعترافُ والإقرارُ بربوبيته ، وأشهدَهم على أنفسِهم فشهدوا.

فمنَ الناس مَنْ حافظ على ذلك العهد ، وقام بمقتضاه ولازِمه ، من عبادة ربه وحده لا شريك له ، وتوحيده. وصَدّقَ رسلَ اللهِ ، وآمنَ بهم ، وبما جاؤوا به.

ومن الناس من تغيَّرتْ فطرتُه وانحرفت ، واجتالته الشياطين ـ والعياذ بالله ـ فنسيَ ما شهدَ عليه ، وما جُبِلَ عليه ، من الإقرار بربوبية الله عز وجل ، فوقع في الكفر والإلحاد ، مع أنَّ الله سبحانه لم يتركْ عبادَه سدًى ، بل أرسل لهم الرسلَ ، وأنزل معهم الكتبَ ، ليذكّروا الناس بهـذا الإشهاد. وهٰذا العهد والميثاق.

ولكي يبقى المسلمُ متذكِّراً هٰذا العهد الذي أخذه الله عليه في عالم الذَّرِ ، فقد علّم رسول الله ﷺ أصحابه ذِكْراً يقولونه في الصباحِ والمساءِ ، ففي الحديث الصحيح عنه ﷺ قال: «**سيّدُ الاستغفارِ أنْ يقولَ العبدُ: اللهمَّ أنتَ ربي لا إلٰهَ إلاَّ أنتَ ، خلقتَني وأنا عبدُكَ ، وأنا على عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ ، أعوذُ بكَ مِنْ شَرِّ ما صنعتُ ، أبوءُ لك بنعمتِكَ عليَّ ، وأبوءُ بذنبي ، فاغفر لي ، إنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ**»[(١)]. فقوله: «**وأنا على عهدِكَ**»: أي ما عاهدتُكَ عليه من الإيمان بِكَ ، والإقرارِ بوحدانيَّتِكَ ، لا أزولُ عنه[(٢)] ، قال ابن حجر: وقال ابن بطال: قوله: «**وأنا على عهدِكَ ووعدِكَ**» يريدُ العهدَ الذي أخذَه الله على عبادِه حيثُ أخرجَهم أمثالَ الذَّرِّ ، وأشهدهم على أنفسِهم: ألستُ بربِّكُم؟ فأقرّوا له بالربوبية ، وأذعنوا له بالوحدانية ، و(**بالوعدِ**) ما قاله على لسان نبيه[(٣)] ، فهـذا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الدعوات ، باب: أفضل الاستغفار (٥٩٤٧).
(٢) نتائج الأفكار في شرح حديث الاستغفار للسفاريني ص: (٢٤٠).
(٣) فتح الباري (١١/ ٩٩).

الذكرُ العظيمُ مَنْ داومَ عليه يومياً ولازمَه؛ حفِظَ نفسه ـ بإذن الله ـ من انحرافِ فطرتِهِ، وتغيّرها، ووفّى بعهدِهِ الذي بينه وبين ربه[١].

ثالثاً ـ دليل الآفاق:

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

فقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أي: علامات وحدانيتنا وقدرتنا[٢]، وقوله: ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ يعني أقطار السماوات والأرض: من الشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار، والرياح، والأمطار، والرعد، والبرق، والصواعق، والنبات[٣]، وغير ذلك ممّا فيها من عجائب خَلْق الله.

وفي حديثِ العلماء عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ما يدلُّ على آياتِ الله في الآفاق، والتي منها:

١ ـ نقص الأوكسجين في الارتفاعات:

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥] تنصُّ هٰذه الآية الكريمة على الإنسان عندما يصّعّد في السماء ـ أي يرتفع في أعالي الجو ـ يضيقُ صدرُهُ، ويشعر بالاختناق، وهٰذه حقيقةٌ علميةٌ سببها أنَّ نسبة الأوكسجين تقلُّ كلَّما ارتفعنا إلى أعلى، كما يقلُّ الضغطُ الجويُّ، وهٰذان السببان يجعلانِ الإنسانَ يشعر بضيق النفس.

٢ ـ حركة النجوم والكواكب في مداراتها:

كان الناسُ يرونَ أنَّ الأرضَ مركزُ الكون، ويدور حولها الشمسُ والقمرُ والنجومُ السيّارة، ويرونَ نجوماً ثابتة طوال السنة، فيصفونها بالثبات، ثم حدث في عصر (غاليلو) رأيٌ يعتبِرُ أنَّ الأرض هي التي تدورُ حولَ الشمس، وأنَّ الشمسَ هي مركزُ الكونِ.

---

(١) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (١/ ٣٧٣).
(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٧٤).
(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٧٤).

أمّا القرآنُ الكريمُ فقد رفضَ قبلَ ذلك جميعَ الآراءِ التي تزعمُ أنَّ للكونِ مركزاً ثابتاً ، قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وكانَ ذلكَ في عصره سَبْقٌ علميٌّ[١]. وقال تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦] .

فقد وجدَ العلماءُ أنَّ مواقعَ النجوم ومساراتها ليست اعتباطيةً ، فالكوكبُ وُضعَ في مسارٍ بحيثُ لا تؤدّي قوى التجاذبِ الكونيّةِ الكثيرةِ والقوى النابذةِ الناشئةِ عن الدوران إلى اضطرابٍ كوني ، ولقد اختِيْرَ له المسارُ الذي يحقّق له التوازنَ بين تلك القوى الكثيرة.

ووجد العلماء أيضاً أنَّ أبعادَ المجموعة الشمسية تتبعُ سلسلةً حسابيةً ، وأنّى للعربيِّ الجاهلي الذي كان يرى النجومَ مبعثرةً في صفحةِ السماءِ أن يعرفَ من تِلقاءِ نفسه أنَّ لمواقعِها شأنٌ عظيمٌ[٢] .

٣ ـ دوران الأرض والجبال:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ [النمل: ٨٨] لقدكان الناس قديماً يرون أنّ الأرضَ وجبالَها ثابتةٌ ، بل يضربون المثلَ بثباتها ، فجاء القرآن الكريم ليخالفَ ما ألفه الناسُ ، واستقرّ في أذهانهم ، وتحدَّثَ عن ظاهرةٍ كونية ، فقال عن الجبال: إنّها تمرُّ مرَّ السحاب ، أي إنَّ الجبال كالسحاب ، فكما أنَّ السحابَ لا يتحرّكُ ذاتياً إلا إذا كان هناك شيءٌ يدفعه إلى التحرك ، والذي يحرِّكُ السحابَ ويدفعُه هي الرياح ، فكذلك الجبالُ لا تتحرَّكُ بنفسِها ، لأنها أوتادُ الأرضِ ، ولكن تتحرك ، وحركتُها تابعةٌ لحركة الأرض ، فالأرضُ تتحرّكُ وتدورُ ، وإلا فكيفَ تتحرَّكُ الجبالُ ، وتمرُّ مرَّ السحاب ، وهـٰذا من صنع الله الذي أتقن كل شيء ، حينئذٍ يكون هناك يقينٌ ثابتٌ[٣]

٤ ـ حاجز بين بحرين مالحين:

قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٌ لَّا يَبۡغِيَانِ ٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١

---

(١) البراهين العلمية ، عبد المجيد العرجاوي ص: (١٠٥).
(٢) البراهين العلمية ، عبد المجيد العرجاوي ص: (١٠٦).
(٣) تأملات في العلم والإيمان ص: (١٧٨).

﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ [الرحمن: ١٩ ـ ٢٢]. تتحدّثُ الآياتُ الكريمةُ عن بحرين يتلاقيان، وفي مكان تلاقيهما يوجدُ حاجزٌ، والظاهر أنها تتحدّث عن بحرين حقيقيين مالحين، وليس عن بحرٍ ونهرٍ، لأنّه قال: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ والمرجان ـ وهو الخرز الأحمر ـ لا يخرجُ إلا من المياه المالحة، فالآية الكريمةُ إذاً تتحدَّثُ عن حاجزٍ حقيقي بين بحرين مالحين في مكان تلاقيهما، والبحرانِ يتلاقيانِ في المضايق، لأنه، إن لم يكن هناك مضيقٌ، فليس من مسوِّغٍ لاعتبارهما بحرين، بل يكونان بحراً واحداً، إنَّ هـٰذا الذي أثبتته الآية الكريمةُ مستغربٌ جداً في عرف الناس، إذ الانطباع السائد أنَّ المياه المتلاقية لا حواجز بينها، وما كان أحد يعرف هـٰذه الحقيقة، ولا تخطرُ له على بالٍ، إلى أن اكتُشِفَتْ عام ١٩٦٢ م، وثبت أنّ ما قاله القرآن الكريم حقيقةٌ مدهشَةٌ(١).

٥ ـ اهتزاز الأرض وزيادتها بالمطر:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: ٥] إن العلمَ يؤكّد أنَّ الأرضَ تهتزُّ فعلاً بنزول الغيثِ عليها، فالحبوبُ والبُصَيلاتُ والدّرناتُ والحُوَيصلاتُ والبكترية والجراثيمُ كلُّها تبدأُ بالحركة والانقسامات الخلوية، وامتصاص الماء، وتحليل الغذاء المعقّد إلى وحدات أقل ارتباطاً، وأكثر عدداً، وأكبر حجماً، وبامتلاء مسامِّ الأرضِ بالماء تتحرّك جُزيئات الطينِ، وتبدأُ عمليةُ تأيُّنٍ عجيبةٍ في جُزَيئات التربةِ، وتنشطُ الديدانُ الأرضيّةُ في شَقِّ الأنفاقِ الأرضيةِ، وابتلاع كمياتٍ كبيرةٍ من التربة المتلاصقة، وإخراجها بعدَ ذلك مفككةً، كلُّ هـٰذه النشاطات تؤدي إلى زيادةِ حجم التربة، ويمكنُنا رؤية صورةٍ مصغّرةٍ لهـٰذه العمليات بتخمير العجين، وزيادة حجمه، نتيجة نشاط خلايا الخمائر، وفي التربة تحدثُ ضروبٌ كثيرةٌ لمثل هـٰذا النشاط، مِنْ كلّ ما سبق نجدُ التوافقَ بين ما عرفه العلم وما وصفه القرآن الكريم(٢).

---

(١) البراهين العلمية، عبد المجيد العرجاوي ص: (١١١).
(٢) المصدر نفسه ص: (١٢٧).

٦ ـ أوهن البيوت:

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] إنَّ قوله سبحانه: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ وقوله بعد ذلك: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] يشيرانِ إلى أنَّ وَهْنَ بيت العنكبوتِ المتحدَّث عنه وَهْنٌ غيرُ ظاهرٍ ولا معروف لدى عامة الناس، وقد ضُربَ هٰذا الوهنُ مثلاً لموالاة الكافرين بعضهم لبعض، فماذا وجد العلماءُ عند دراسة العنكبوت؟ وجدوا أنَّ الروابطَ بين أفراد العنكبوت في غاية التفكّك، فالأُنثى كثيراً ما تأكل الذكرَ بعد الإلقاح، وقد تأكلُ أبناءها، والأبناءُ يأكُل بعضُهم بعضاً، فهو بيتٌ متفكّكٌ متداعٍ، وذلك مثلُ موالاةِ الكافرين بعضهم بعضاً[١].

رابعاً ـ دليل الأنفس:

قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] ولما كان أقربُ الأشياء إلى الإنسان نفسَه، دعاه خالقُه وبارئُه ومصوّرُهُ وفاطرُه مِنْ قطرةِ ماءٍ إلى التبصُّرِ والتفكُّرِ في نفسِه، فإذا تفكّرَ الإنسانُ في نفسِه، استنارت له آياتُ الربوبيّةِ، وسطعتْ له أنوارُ اليقينِ، واضمحلّتْ عنه غمراتُ الشكِّ والريب، وانقشعتْ عنه ظلماتُ الجهلِ، فإنّه إذا نظر في نفسِهِ وجدَ آثارَ التدبيرِ فيه قائماتٍ، وأدلّةَ التوحيدِ على ربِّه ناطقاتٍ، شاهدةً لمدبّره، دالةً عليه، مرشدةً إليه[٢].

وإليك بعضُ البراهين العلمية المتعلّقة بالإنسان وخلقه:

١ ـ الإحساس والجلد:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ

---

(١) البراهين العلمية، عبد المجيد العرجاوي ص: (١٢٨). والأمثلة في البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية كثيرة، ذكرت في كتب بحثت هذا الموضوع منها. «رحلة الإيمان في جسم الإنسان» د. «حامد أحمد حامد»، و«وحدانية الله تتجلى في وحدة خلقه» للأستاذ عمر أحمد الهواري وغير ذلك كثير لمن أراد التوسع.

(٢) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم (١/ ١٩٠).

﴿جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] وهـٰذه حقيقةٌ كونيةٌ ، وهي أنَّ موطنَ الإحساس والألم في الإنسان هو الجلدُ ، فالكافرون يعذَّبون عن طريق تبديل الجلد أو تغييره ، وذلك ليذوقوا العذابَ ، فالإذاقةُ حسب القرآنِ الكريم محلُّها الجلدُ ، وقد بيّنَ التشريح المجهري للجلدِ أنّه عضوٌ غنيٌّ بالألياف العصبيّةِ ، التي تقوم باستقبالِ ونقلِ جميعِ أنواعِ الحسِّ من المحيط الخارجي ، وذلك عن طريق طبقاتِ الجلدِ (البشرة ، الأدمة ، النسيج تحت الأدمة) وهي تنقلُ حِسَّ الألم ، والحرارةَ والبرودةَ ، والضغطَ ، وحِسَّ اللمس ، فالقرآنُ ينبّهنا إلى هـٰذه الحقيقة ، ويقول: إن الله سبحانه كلّما أرادَ أن يذيقَ الكفارَ مزيداً من العذاب بدّلَ جلودَهم التي احترقت وماتت فيها الأليافُ العصبيّةُ بجلودٍ سليمة لم تحترقْ ، ليذوقوا العذابَ مرّةً أُخرى ، وعندما يأتي التشريحُ المجهري ، ليقول: إنَّ الأليافَ العصبيَّة تكمنُ في الجلدِ نقول: إنَّ الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهـٰذه الحقيقة في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً[١].

٢ ـ البصمات وتحديدها لهوية الإنسان:

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٣ ـ ٤] لقد توصَّل العلمُ إلى سرِّ البصمةِ في القرن التاسع عشر ، وبيّنَ أنَّ البصمةَ تتكوَّن من خطوطٍ بارزةٍ في بَشْرَةِ الجلدِ ، تجاورها منخفضاتٌ ، وتعلو الخطوطَ البارزةَ فتحاتُ المسامِّ العرقية ، تتمادى هـٰذه الخطوطُ وتتلوّى ، وتتفرّعُ عنها تَغَضُّناتٍ وفروع ، لتأخذَ في النهاية وفي كلِّ شخص شكلاً مميّزاً ، وقد ثبتَ أنّه لا يمكِنُ للبصمة أن تتطابقَ وتتماثَل في شخصين في العالم ، حتّى في التوائمِ المتماثلةِ التي أصلُها مِنْ بويضةٍ واحدةٍ ، يتمُّ تكوّن البنان في الجنين في الشهر الرابع ، وتظلُّ ثابتةً ومميّزةً له طوالَ حياته ، ويمكن أن تتقاربَ بصمتان في الشكل تقارباً شديداً ، ولكنّهما لا تتطابقان البتةَ ، ولذلك فإنَّ البصمةَ تعدُّ دليلاً قاطعاً ومميزاً لشخصية الإنسان ، معمول بها في كلِّ بلاد العالم ، ويعتمَدُ عليها في تحقيق القضايا الجنائية ، لكشف المجرمين واللصوص ، وقد يكونُ هـٰذا هو

---

(١) تأملات في العلم والإيمان ص: (١٨٠).

السرُّ في أنَّ الله سبحانه وتعالى خَصَّ البنانَ بالذكر ، ليبيّنَ للإنسان هـٰذين الأمرين :

١ ـ السرَّ المختفي في البنان ، الذي لم يُعْلَمْ أمرُه إلا في عصر الكشوف العلمية .

٢ ـ القدرةَ الفائقةَ على إعادةِ خلق الإنسان بصورته وخِلقته التي كان عليها(١) .

والدعوة مفتوحةٌ للإنسان إلى التفكر في أجهزته العضوية ، كالجهاز الهضمي ، والتنفسي، والدموي، وغيرها في جسمه، وفي التأمل في عالم المشاعر والأحاسيس والأفكار والعقائد .

خامساً ـ دليل الهداية:

قال تعالى : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى : ١ ـ ٣] وقال تعالى : ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : ٥٠] ، والمقصودُ بالهداية المرادةِ في هذه الآياتِ إعطاءُ كلِّ مخلوقٍ من الخلق والتصوير ما يصلحُ به لما خُلِقَ له ، وإرشادُه إلى ما يُصْلِحُه في معيشته ومطعمه ، ومشربه ، ومنكحه ، وتقلبه ، وتصرفه(٢) .

ومن أسماء الله الحسنى **(الهادي)** سبحانه وتعالى ، الذي يُبَصِّرُ عبادَه ويعرّفهم طريقَ الإيمان به ، والإقرارَ بألوهيته ، ومعرفة طريق بناء الحياة ، ومعرفة نواميسها وسننها ، حتى هدى الطيورَ والحيواناتِ والهوّام والوحوش إلى ما فيه مصالحها وعيشها ، ومحاذرة ما يضرُّها أو يُعْطِبُها .

وقد جاء اسم **(الهادي)** في القرآن الكريم في قوله سبحانه : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان : ٣١] وقوله : ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج : ٥٤] .

إنَّها أولاً : هدايةُ المعارفِ الفطريةِ الضروريةِ لكلِّ مخلوق ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : ٥٠] .

وهي ثانياً: هداية الإرشاد والبيان التي بَعَثَ بها أنبياءه ، وأنزل بها كتبه

---

(١) تأملات في العلم والإيمان .

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٠٩) ، شفاء العليل ص : (٧٨) كلاهما لابن قيم الجوزية .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤] .

وهي ثالثاً: الأخذُ بالقلوب والعقول إلى مواضع رضاه بالتوفيق والإلهام والحفظ ، كما وعد سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩] ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وهو منزل الكتاب ، الذي مَنْ تركه ضاعَ في بيداءِ الحياةِ ، ومن ابتغى الهُدى في غيره أضلّه الله[(١)] .

وقد نبّه العلماء على كثيرٍ من هداية الله لمخلوقاته ، وكتبوا في ذلك كُتباً نافعاً ، فتحدّثوا عن هداية الله للنملِ وللهدهدِ والنحلِ وغيرِها من مخلوقات الله الكثيرة ، وهٰذا بابٌ واسعٌ يكفي فيه قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] وهٰذه الأمم تعبدُ الله وتسبّحه وتحمده ، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال أيضاً: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١] .

وتأمل معي في كل من:

١ ـ **النحل:** قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨ ـ ٦٩] فانظر إليها وإلى اجتهادِها في صنع العسل ، وبنائها البيوت المسدّسة ، التي هي من أتمِّ الأشكالِ ، وأحسنِها استدارةً ، وأحكمِها صنعاً ، وتلك مِنْ أثرِ صنع الله وإلهامه إياها ، وإيحائه إليها.

ثم انظر إلى حسنِ الامتثال ، اتخذتِ البيوتَ أولاً ، فإذا استقرّ لها بيتٌ خرجت منه ، فرعت وأكلت من الثمار ، ثم آوت إلى بيوتها ، لأنَّ ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولاً ، ثم بالأكل بعد ذلك ، ثم إذا سلكتْ سُبُلَ ربها مذلّلةً ، لا يستوعِرُ عليها شيءٌ ، ثم ترعى ، ثم تعود.

ومن عجيبِ شأنها: أنَّ لها أميراً يسمّى «اليعسوب» لا يتمُّ لها رواحٌ

---

(١) مع الله ، الاسم الأعظم ص: (٢٨٠).

ولا إيابٌ ، ولا عملٌ ولا مرعًى إلا به ، فهي مؤتمِرةٌ لأمره ، سامعةٌ له مطيعةٌ ، وله عليها تكليفٌ وأمرٌ ونهيٌ ، وهي منقادةٌ لأمره ، متبعةٌ لرأيه ، يدبّرها كما يدبّرُ الملِكُ أمرَ رعيتِه ، حتى إنّها إذا أوت إلى بيوتها ، وقف على بابِ البيتِ ، فلا يدعُ واحدةً تزحم الأُخرى ، لا تتقدّم عليها في العبور ، بل تعبرُ بيوتها واحدةً بعدَ واحدةٍ بغير تزاحمٍ ، ولا تصادمٍ ولا تراكمٍ ، كما يفعلُ الأميرُ إذا انتهى بعسكره إلى معبرٍ ضيّقٍ ، لا يجوز إلا واحدٌ واحدٌ.

ومن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها ، واجتماعَ شملها ، وانتظامَ أمرِها ، وتدبيرَ مُلكها ، وتفويضَ كلِّ عملٍ إلى واحدٍ منها: يتعجَّب منها كلَّ العجب ، ويعلمُ أنّ هـٰذا ليسَ في مقدورِها ، ولا هو من ذاتها ، فإنَّ هـٰذه أعمالٌ محكمةٌ متقنةٌ في غايةِ الإحكام والإتقان ، فمنِ الذي أوحىٰ إليها أمرَها ، وجعل ما جعل في طباعها؟! ومن الذي هداها لشأنها؟! ومَنِ الذي أنزلَ لها من الطَّلِّ ما إذا جنتْهُ ردّتْهُ عسلاً صافياً ، مختلفاً ألوانُه ، في غايةِ الحلاوة واللذاذة والمنفعة[1]؟! إنه ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

٢ ـ **الهدهد:** ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أنْ قال لنبيِّ الله سليمان عليه السلام ، وقد فقده وتوعده ، فلمّا جاء بدره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة ، وخاطبه خطاباً هيّجه به على الإصغاء إليه ، والقبول منه: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ وفي ضمن هـٰذا: إنّي أتيتُك بأمرٍ قد عرفتُه حقَّ المعرفة ، بحيث أحطتُ به ، وهو خبر عظيم له شأن ، فلذلك قال: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].

و(**النبأُ**) هو الخبر الذي له شأن ، والنفوس متطلعة إلى معرفته ، ثم وصفه بأنه (نبأ يقين) لا شكّ فيه ولا ريب ، فهـذه مقدّمةٌ بين يدي إخباره لنبيّ الله سليمان بذلك النبأ ، استفرغتْ قلب المخبَر لتلقّي الخبر ، وأوجبتْ له التشويقَ التامَّ إلى سماعهِ ومعرفتهِ ، وهـٰذا نوعٌ من براعةِ الاستهلالِ ، وخطابِ التهييجِ.

ثم كشفَ عن حقيقةِ الخبرِ كشفاً مؤكداً بأدلّةِ التأكيد فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ ثم أخبر عن شأنِ تلك الملكة ، وأنها من أجلِّ الملوكِ ، بحيث

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٠٩ ـ ٣١٠).

أوتيت من كل شيء يَصْلُحُ أن يُؤتاه الملوك ، ثم زادَ في تعظيم شأنها بذكر عرشها التي تجلس عليه ، **وأنه عرش عظيم**.

ثم أخبرَه بما يدعوه إلى قصدِهم وغزوهم في عُقرِ دارهم بعد دعوتهم إلى الله فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤] ، وحذفَ أداةَ العطفِ من هـٰذه الجملةِ ، وأتى بها مستقلّةً غيرَ معطوفةٍ على ما قبلَها ، إيذاناً بأنّها المقصودةُ ، وما قبلَها توطئةٌ لها.

ثم أخبر عن المغوي لهم ، الحامل لهم على ذلك ، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤] المستقيم ، وهو السجود لله وحده.

ثم أخبر أنّ ذلك الصدَّ حالَ بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤] ثم ذكرَ مِنْ أفعاله سبحانه إخراجَ الخِبْءِ في السماواتِ والأرض ، وهو المخبوءُ فيهما من المطر ، والنبات ، والمعادن ، وأنواع ما ينزل من السماء ، وما يخرجُ من الأرض.

وفي ذكر الهدهدِ هـٰذا الشأنَ من أفعال الربِّ تعالى بخصوصهِ إشعارٌ بما خصّه اللهُ به من إخراجِ الماءِ المخبوءِ تحتَ الأرضِ ، قال صاحب «الكشاف»: وفي إخراجِ الخِبْءِ إمارةٌ على أنّه من كلامِ الهدهدِ لهندسته ، ومعرفته الماء تحت الأرضَ ، وذلك بإلهام ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥] ، جلّت قدرتُ ، ولطفَ علمُه ، ولا يكادُ يخفى على ذي الفراسة ، الناظرِ بنورِ الله مخايلَ كلِّ شخصٍ بصناعةٍ أو فَنٍّ منَ العلم في روائه ومنطقه وشمائله ، فما عَمِلَ آدميٌّ عملاً إلا ألقى الله عليه رداءَ عمله[(١)].

سادساً: دليل انتظام الكون وعدم فساده:

وانتظامُ أمرِ العالم ، العلوي والسفلي ، وارتباطُ بعضِه ببعضٍ ، وجريانُه على نظام مُحْكَمٍ ، لا يختلف؛ ولا يفسد: أدلُّ دليلٍ على أنَّ مدبّره واحدٌ لا إله غيره[(٢)].

---

(١) العقيدة في الله ص: (١١٦).

(٢) الصواعق المرسلة لابن القيم (٣/ ٤٦٤).

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] لو كان في السماواتِ والأرض آلهةٌ تصلحُ لها العبادةُ سوى الله الذي هو خالقُ الأشياءِ، وله العبادةُ والألوهيّةُ التي لا تصلحُ إلا له ﴿لَفَسَدَتَاۚ﴾ أي: لفسدَ أهلُ السماواتِ والأرضِ(١).

وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] يقول تعالى ذكره: مالله مِنْ ولدٍ، ولا كانَ معه في القديم؛ أو عندَ خلقِهِ الأشياءَ مَنْ تصلحُ عبادتُه، إذاً لاعتزلَ كلُّ إلهٍ منهم بما خلقَ مِنْ شيءٍ، فانفردَ به، ولتغالبوا، ولعلا بعضهم على بعض، وغلبَ القويُّ منهم الضعيفَ، لأنَّ القويَ لا يرضى أن يعلوه الضعيفُ، والضعيفُ لا يصلحُ أن يكون إلهاً، فسبحان اللهِ ما أبلغها مِنْ حُجّةٍ، وما أوجزها لمن عقلَ وتدبّر(٢)؟!

وهكـذا، فإنَّ دليلَ انتظامِ الكونِ، وعدم فسادِهِ دليلٌ عقلي قويٌ على وحدانيةِ الله، لا تملكُ العقولُ السويّةُ ردَّه، وهي ترى انتظامَ أمرِ السماواتِ والأرض وما فيهنّ، ممّا يدلُّ على وجودِ إلهٍ واحدٍ متفرّدٍ بالخلقِ والتدبيرِ، مما يستوجِبُ صرفَ العبادةِ له دونَ سواه(٣).

سابعاً ـ دليل التقدير:

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] وظاهرةُ التقديرِ تبدو في كلّ ما خلقَ الله عزّ وجلّ في الأرض والسماءِ والإنسان والنبات، والحيوان، فقد نظّم اللهُ أجزاءَ هـٰذا الوجودِ على أحسنِ نظامٍ، وأدلّه على كمالِ قدرةِ خالقِهِ، وكمالِ عملِهِ، وكمال حكمتِهِ، وكمالِ لطفِه(٤).

---

(١) تفسير الطبري (١٧/ ١٣).

(٢) تفسير الطبري (١٨/ ٤٩).

(٣) الدلالة العقلية في القرآن ص: (٣١٤).

(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٥٩).

ثامناً ـ دليل التسوية:

قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨] وقال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

والتسوية: إحسانُ الخَلْقِ، وإكمالُ الصنعةِ، بحيث يكونُ المخلوقُ مهيّئاً لأداءِ وظيفته، وبلوغ كماله، المقدَّر عنه، وجعله مستوياً معتدلاً متناسبَ الأجزاء، بحيث لا يحصلُ تفاوتٌ يخلُّ بالمقصودِ منها(١).

وإذا تأمّلنا مظاهرَ التسوية في الإنسان رأيناها تبدو في كل عضو من أعضائه، فقد أحسنَ اللهُ خلقَه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] منتصبَ القامة، سويَّ الأعضاءَ حسنَها(٢)، كما قال سبحانه في موضع آخر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٧ ـ ٨] وإنَّ الجمالَ والسواءَ والاعتدالَ ليبدو في تكوين الإنسان الجسدي والعقلي والروحي، وكلُّ ذلك يتناسَقُ في كيانه في جمالٍ واستواءٍ، والأجهزةُ العامّةُ لتكوين الإنسان الجسدي، كالجهاز العظمي، والجهاز العضلي، والجهاز الهضمي، والجهاز التنفّسي.. إلى غير ذلك من أجهزة الجسم المتعدّدة كلٌّ منها عجيبةٌ، لا تقاسُ إليها كلُّ العجائب الصناعية التي يقفُ الإنسانُ مدهوشاً أمامها، وينسى عجائب ذاته، وهي أضخمُ وأعمقُ وأدقُّ بما لا يقاس(٣)، وخلقُ الإنسانِ على هـٰذه الصورة السويّة المعتدلة أمرٌ يستحقُّ التدبرَ الطويلَ، لأنَّه خلقٌ لا يملك العقل حياله إلا الإقرار بعظمة الله، والشكر له، بأنْ أكرمه بهـذه الخِلْقة، وقد كان قادراً أن يركّبه في أيِّ صورةٍ أخرى يشاؤها(٤).

* * *

(١) المدخل إلى الثقافة الإسلامية، أحمد جلي ص: (٧٥).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/٣٩٦).
(٣) الدلالة العقلية في القرآن ص: (٢٩٤).
(٤) المصدر نفسه ص: (٢٩٤).

المبحث الثالث

توحيد الربوبية

١ ـ معنى توحيد الربوبية

٢ ـ توحيد الألوهية (توحيد العبادة) من لوازم توحيد الربوبية

٣ ـ السنن العامة

٤ ـ السنن الخاصة

٥ ـ سمات السنن الإلهية.

٦ ـ توحيد الربوبية أعظم برهان على توحيد الألوهية (توحيد العبادة).

* * *

المبحث الثالث

توحيد الربوبية

١ ـ معنى توحيد الربوبية:

معنى توحيدُ الربوبية هو الاعتقادُ الجازِمُ بأنّ اللهَ جلَّ جلاله ربُّ كلِّ شيءٍ ومالكُه وخالقُه ، ومدبِّرُ أمرِه ورازقُه ، وأنّه وحدَه الذي ينفعُ ويضرُّ ، ويحيي ويميت ، وأنّه سبحانه وحدَه المتصرِّفُ بهـذا الكون ، وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا مانعَ لما أعطى ، ولا معطيَ لما منعَ ، بيده الخير ، وإليه ترجع الأمور ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير[1] .

٢ ـ توحيد الألوهية من لوازم توحيد الربوبية:

توحيد الربوبية لا يكفي وحده في حصولِ الإسلام ، بل لا بدَّ أن يأتيَ العبدُ مع ذلك بلازمه من **توحيد العبادة** ، لأنّ الله تعالى حكىٰ عن المشركين أنّهم مقرّون بتوحيد الربوبية لله وحده ، قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨] وقال تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ

---

(١) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (١/٣٤٨).

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٩٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] وغير ذلك من الآيات في القرآن الكريم، مما يدلُّ على اعتراف الكفّار بخالقهم، وإقرارهم به[1]، وإنّما عبدوا من دون الله ما عبدوا ليجعلوهم وسائط وشفعاء بينهم وبين الله، ومع ذلك يتخلَّون عنهم إذا نزلت بهم الشدائد، ووقت الاضطرار، وهـٰذا الإقرار لم يغنِ عنهم شيئاً، ولم ينتفعوا به، إذ لم يصبحوا به مسلمين، ولم يَعْصِمْ أموالهم، ولا دماؤهم، ولا أعراضهم، لأنَّهم أنكروا **توحيد الألوهية** (توحيد العبادة)، وأشركوا بربهم، ولم يلتزموا بلازم ما أقرّوا به، إذ **إنَّ توحيد الربوبية يلزم منه توحيد الألوهية**[2]. وهو إفراد الله عزّ وجلّ بجميع أنواع العبادات.

إنَّ المؤمنَ يشعرُ بطمأنينةٍ كبيرةٍ وهو يتأمَّلُ في ملكوتِ الله تبارك وتعالى، فيرى عظمةَ الله في خلقه، وحكمتَه البالغةَ في تدبيره ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

والحديثُ عن عظمةِ الله يملأُ القلبَ سكينةً، والتدبّرُ في ملكوته يملؤه إيماناً، فَحَقَّ للشاعِرِ أن يتساءل بعد جولةِ تأمُّلٍ في مخلوقاتِ الله سبحانه، فيقول (من الكامل):

قُلْ للوليدِ بكىٰ وأجْهَشَ بالبكا ... ءِ لدى الولادةِ ما الذي أبكاكا
وإذا ترى الثعبانَ يَنْفُثُ سُمَّه ... فاسألْه مَنْ ذا بالسُّموم حَشَاكا
واسألْه كيفَ تعيشُ يا ثعبانُ أو ... تحيا وهـٰذا السُّمُّ يملأُ فاكا
واسألْ بطونَ النَّحْلِ كيف تَقَاطَرَتْ ... شَهْداً، وقُلْ للشهدِ مَنْ حَلاَّكا
بل سائلِ اللَّبنَ المُصَفَّى كا ... نَ بَيْنَ دمٍ وَفَرْثٍ ما الّذي صَفَّاكا
واسألْ شُعاعَ الشَّمْسِ يدنو وهي أبـ ... ـعدُ كلِّ شيْءٍ ما الَّذي أدناكا
يا أيُّها الإنسانُ مهلاً ما الذي ... باللهِ جلَّ جلالُه أغراكا؟

إن التأمُّل في خلق الله عز وجل وملكوته يقودُ إلى رسوخ الإيمان بالله

---

(١) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (١/ ٣٥٣).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ص: (٤٦٠).

سبحانه ، ولهـذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩١] فتأمَّلْ وسبحْ وتعبّدْ لمن خلقَك وذرأك وإليه المصير(١) .

إنَّ من أبـرز صفاتِ الله عزّ وجلّ الـدّالـةِ على ربوبيتـه **صفـة الخلق** ، وما تميّزتْ به من إتقانٍ ، وبديعِ صُنعٍ ، لا يكونُ إلاَّ من ربِّ العالمين(٢) ، فاللهُ عزَّ وجلَّ هو الذي خلقَ المخلوقاتِ ، ومن عظيم إتقانه أنْ سنَّ لها قوانين وسنناً ثابتةً ، منها العام ، ومنها الخاص ، عليها مدارُ انضباطها ، وهٰذه السنن لا يمكنُ إضافتها لغير الله سبحانه وتعالى ، لأنَّه هو المتفرّدُ بالربوبية وحدَه لا شريكَ له(٣) .

٣ ـ السنن العامة:

فالسنن العامة تخضَعُ لها جميعُ الكائناتِ في وجودِها المادي ، وما يمرُّ بها مِنْ حوادثَ مادية ، كنموِّ الإنسان ، وحركتِهِ ، ومرضِهِ ، وما شابه ذلك ، وما تقعُ مِنْ حوادثَ كونية ، كنزول المطر ، وتعاقبِ الليل والنهارِ وغيرها من متعلّقات الوجود المادي لمخلوقات الله عز وجل .

ولقد وجّه الأنبياءُ والرسلُ أقوامَهم إلى المشاهدةِ والنظرِ ، والتأمّل والتفكّر : في مثل هٰذه السنن التي تتضمّن دلالاتٍ كبيرةٍ على عظمةِ الخالق ، وحُسن تدبيره ، وبديع خلقه لأمره ، وتدبيره عز وجل ، وفق سننه ونظامه وقوانينه ، التي وضعها بقدرته وحده لا شريك له ، ومن ذلك قول نوح عليه السلام لقومه ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾(٤) [نوح : ١٥ ـ ٢٠] .

---

(١) مع الله الاسم الأعظم ص : (٧٩) .
(٢) المصدر نفسه ص : (٧٩) .
(٣) منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني ص : (٢٩) .
(٤) المصدر نفسه ص : (٢٩) .

٤ ـ السنن الخاصة:

وأما السنن الخاصة ، **فهي تتعلّق بخضوع البشر لها باعتبارهم أفراداً وأمماً وجماعات خضوعاً يتعلّق بتصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم في الحياة ، وما يكونون عليه من أحوالٍ ، وما يترتّب على ذلك من نتائج كالسعادة والشقاء ، والعزّ والذل ، والقوّة والضعف ، والنصر والهزيمة ، ونحوِ ذلك من الأمور الاجتماعية في الدنيا ، وما يترتّب عليها من جزاءٍ في الآخرة ، سواء كان عذاباً أو نعيماً** ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨] أي الخاتمة المحمودةُ ، أو النهاية في الدنيا والآخرة لمن أتقى[١] ، وكذلك ما ورد في القرآن الكريم حول غزوة أحد مثل قوله تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ ﴾ [آل عمران: ١٦٠] .

٥ ـ سمات السنن الإلهية:

من سماتِ هٰذه السنن بنوعيها : **الثباتِ والاطرادِ والعموم** ، قال تعالى : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢] ، أي لن تجدَ لها تحويلاً وتغييراً ، بل هي ثابتةٌ دائمةٌ[٢] ، فما من نبيٍّ إلا أرشدَ قومه إلى هٰذه السنن ، بُغيةَ توحيدِ الخالق ، وخاصّةً النوع الثاني منها ، التي تتعلّق بالأحوال الاجتماعية ، ففي الاعتبار والاتعاظ بها تتحقّق الاستقامة المطلوبةُ في سلوكِ البشر ، وتتحقق الضوابطُ المرجوّة في سبيل تحقيق العبودية الخالصة لله عزّ وجلّ ، لذا كان من أهداف إيراد القصص في القرآن الكريم الاتعاظُ بما جاء فيها من ذكر لهـذه السنن ، **كسنّة الأخذ بالأسباب** ، وسنّة **التدافع** ، وسنّة **في نصر المؤمنين** ، وسنّة **الله في الفتنة والابتلاء** ، وسنة **الله في الظلم والطغيان**[٣] وغيرها.

٦ ـ توحيد الربوبية أعظم برهان على توحيد الألوهية:

إنّ توحيدَ الربوبيةِ هو أعظمُ برهانٍ ودليلٍ على توحيدِ الألوهية ، وهو بالنسبة له كالمقدّمة بالنسبة للنتيجة ، فمن اعتقدَ أنّ لهـذا الكونِ العظيم الواسعِ خالقاً ،

---

(١) منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني ص : (٣٠).

(٢) زبدة التفسير ، محمد سليمان الأشقر ص : (٥٦٠).

(٣) منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني ص : (٣٠ إلى ٣٦).

ومدبراً ، وقاهراً ، ومتصرفاً فيه ، يفعلُ ما يشاء ، وله القدرةُ الكاملُة على تبديله وتغييره ، وأنّه الرازقُ لجميع المخلوقاتِ بيدِه النفعُ والضرُّ ، ويمنع ويعطي ، ويميت ويحيي ، وينجّي عند الشدائد والكربات ، ويجيبُ المضطر عند اضطراره ، من اعتقدَ ذلك صِدْقاً تولّدَ في قلبه حُبُّ ذلك الخالق العظيم.

وهٰذه المحبةُ لابدَّ أن تثمِرَ خضوعاً وانكسِاراً وتذللاً ، وانقياداً وطاعةً وعبوديةً ورِقاً لمالك هٰذا الكون.

وكثيراً ما يذكِّرُ الله سبحانه في كتابه الناسَ جميعَهم بأنّه هو المنعم عليهم ، والمتفضل عليهم بالخلق والرزق وجميع النعم ، فيرشدهم بذلك لعبادته وحده لا شريك له[١] ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣].

* * *

(١) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (١/ ٤٣١ إلى ٤٣٥).

المبحث الرابع

توحيد الأسماء والصفات

أولاً ـ الأسس التي يقوم عليها توحيد الأسماء والصفات

ثانياً ـ أدلة هٰذا النوع من التوحيد

ثالثاً ـ أسماء الله الحسنى

رابعاً ـ الصفات الإلهية .

خامساً ـ أثر الصفات الإلٰهية على الأخلاق

سادساً ـ وصف الله تعالى نفسه بالمغفرة لا يعني الإغراء بالمعاصي

* * *

المبحث الرابع

توحيد الأسماء والصفات

ومعناه: الإيمانُ بما أثبته الله تعالى لنفسِه في كتابه ، وأثبته له رسولُه ﷺ في سنّته من الأسماء الحسنى ، والصفات العُلى ، من غيرِ تحريفِ ألفاظها أو معانيها ، ولا تعطيلها بنفيها ، أو نفي بعضِها عن اللهِ عزّ وجلّ ، ولا تكييفها بتحديدِ كُنهها ، وإثبات كيفيّةٍ معينةٍ لها ، ولا تشبيهها بصفات المخلوقين[1] .

أولاً ـ الأسس التي يقوم عليها توحيد الأسماء والصفات:

إنّ توحيدَ الله سبحانه وتعالى في أسمائه وصفاته يتطلّبُ التقيُّدَ في ذلك بكتاب ربنا وبسنّة رسولنا ﷺ ، فلا نصنعُ له اسماً أو صفةً ليست واردةً في الوحيين ، ولا نشبِّهه بأحدٍ من خلقه ، فهو سبحانه متّصفٌ بكلِّ كمالٍ ، منزَّهٌ عن كلِّ نقصٍ. ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] .

وعلى ذلك فيمكِنُ أن نذكرُ هـٰذه الأسس:

١ ـ **إنّ أسماءَ الله تعالى وصفاته توقيفيةٌ** ، فلا نُثْبِتُ للهِ تعالى ولا ننفي عنه إلا بدليلٍ من الكتاب أو السنة ، إذ لا سبيلَ إلى ذلك إلا من هـٰذا الطريق.

٢ ـ **إنَّ الإيمان بأن الله تعالى لا يشبهُ أحداً من خلقِهِ لا في أسمائه ولا صفاته ، كما لا يشبهه أحد من خلقه** ، وإنْ سمّى أو وصفَ أحداً من المخلوقين بتلك الأسماء والصفات **فذلك اشتراك في اللفظ** ، لا يوجِبُ مماثلة المخلوقين له فيما دلت عليه هـٰذه الأسماء والصفات.

فأسماءُ الله تعالى وصفاتُه على ما يليقُ به سبحانه وتعالى ، وما يسمّى به من

---

(١) الإيمان د. محمد نعيم ياسين ص: (٢٧).

المخلوقين أو يوصف من ذلك فعلى ما يليق بالمخلوق نفسه ، فكلٌّ بما يليقُ به، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] .

٣ ـ إنَّ صفاتِ الله كلَّها صفاتُ كمالٍ ، فله سبحانه الكمالُ المطلقُ ، وهو المنزّهُ عن كلِّ نقص.

ومما ينبغي معرفته في الإيمان بأسماءِ الله وصفاتِهِ **أن يقطعَ الإنسان الطمعَ في معرفة كيفيتها** ، **وألّا يسأل عن ذلك** ، إذ لا يُسْأل عن صفاتِ الله تعالى بكيفٍ .

وأن يعلمَ مع ذلك ويعتقدَ أنَّ هـٰذه الصفات معلومةُ المعنى ، فلم يخاطِبِ الله تعالى عبادَه ويتعبّدهم بأمورٍ لا يعلمون معناها ، ولهـذا قال الإمام مالك وغيرُه من علماء لأمة لمن سأله عن كيفية استواء الله تعالى على عرشه: **الاستواءُ معلومٌ** ، **والكيفُ مجهولٌ** ، **والإيمان به واجبٌ** ، **والسؤالُ عنه بدعةٌ**[١] .

وقال ربيعةُ الرأي شيخُ مالك قبله: «**الاستواء معلومٌ** ، **والكيفُ مجهولٌ** ، **ومِنَ اللهِ البيانُ** ، **وعلى الرسولِ البلاغُ** ، **وعلينا الإيمان**»[٢] .

ثانياً ـ أدلّةُ هـٰذا النوع من التوحيد:

لا تخلو سورةٌ من سور القرآن الكريم من ذكرِ اسمٍ من أسماء الله تعالى ، أو صفةٍ من صفاته ، ومن ذلك سورةُ الإخلاص فهي بكاملها أسماء الله وصفاته قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ ففي هـٰذه السورة وصف الله سبحانه وتعالى نفسَه بأنّه (أحدٌ صمدٌ) فهـذان الوصفان يدلّان على اتصافِ الله بغايةِ الكمال المطلق[٣] .

ومعنى (**الصمد**): المستغني عن كلِّ أحدٍ ، والمحتاجُ إليه كُلُّ أحدٍ ، وهـٰذا المعنى يدلُّ على الإثباتِ والتنزيه .

فالإثباتُ: وصفهِ سبحانه بأنه هو الذي يُصْمَدُ إليه ، أي يُرْجَعُ إليه في كلِّ أمرٍ ، وذلك لأنّه هو المتصفُ بجميع صفاتِ الكمالِ ، فهو القادِرُ على كلِّ شيءٍ ، والفعّال لما يريدُ ، بيدِهِ الخَلْقُ والأمرُ والجزاءُ ، وما من قوّةٍ لغيره تعالى

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٣/ ٥٨) .

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٥٨) ، حماية الرسول حمى التوحيد ص: (٢٥٥) .

(٣) علو الله على خلقه بتصرف ص: (٢٨) .

إلا بهيمنةٍ منه ، إذا شاءَ أبقاها ، ومتى شاء سلبها ، فالمرجِعُ والمرادُ إليه سبحانه(١) .

وأما التنزيه: فبوصفِهِ تعالى بأنّه غنيٌّ عن كلِّ شيءٍ ، فلا افتقارَ فيه بوجهٍ من الوجوه: **لا في وجودهِ**، فإنَّه الأوّلُ الذي ليس قبلَه شيءٌ ، وهو الذي ﴿ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴾ [الإخلاص: ٣] **ولا في بقاءه**، فإنه الذي يُطعِمُ ولا يُطعَمُ. **ولا في أفعاله**، فلا شريكَ له ولا ظهير(٢) .

كما أنَّ وصفه سبحانه بأنّه (أحد صمد) يدلُّ على اتصافه بالكمالِ المطلق ، فكذلك يدلان على معنًى آخر ، وهونفي الولادة والتوليد عن الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤] .

وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨] .

فإنَّ الأحدَ هو الذي لا كفؤَ له ولا نظيرَ ، فيمتنعُ أن تكونَ له صاحبةٌ ولا ولدٌ ، قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [الأنعام: ١٠١] وفي هـٰذا نفيٌ عن المخلوقاتِ مكافأتِها أو مماثلتَها للخالق.

ومثل ذلك قوله: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١] أي: يعدلون به غيره ، فيجعلون له من خلقه عِدْلاً ونظيراً(٣) .

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ [مريم: ٦٥] أي لا شيءَ يساميه ، لا ندَّ ، ولا عِدلَ ، ولا نظيرَ له يساويه ، فأنكر التشبيه والتمثيل.

---

(١) المصدر نفسه ص: (٢٨ ـ ٢٩).
(٢) المصدر نفسه ص: (٢٨ ـ ٢٩).
(٣) من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين للصلابي ص: (٦٢).

وبهـذا يتبيّن لنا أنّ تنزيهه سبحانه عن العيوبِ والنقائصِ واجبٌ لذاته ، كما دلّت على ذلك سورةُ الإخلاص(١).

ثالثاً ـ أسماء الله الحسنى:

لربنا تبارك وتعالى أسماءٌ سمّى بها نفسه ، منها ما أنزله في كتابه ، كالأسماء الموجودةِ في القرآن الكريم ، ومنها ما علّمه الله تعالى بعضَ خلقه من الأنبياء والمرسلين ، أو الملائكة المقربين ، أو مَنْ شاءَ الله تبارك وتعالى. ومن أسمائه سبحانه ما استأثر به في علم الغيب عنده ، فلا يعلمه أحد.

وذلك أنَّ لله تعالى من معاني العظمة ما لا تستطيعُ المخلوقاتُ إدراكه ، لأنّه الإلهُ الحقُّ المبين ، له الجمالُ المطلقُ ، والكمالُ المطلقُ ، والجلالُ المطلقُ ، والعظمةُ التامّةُ، والقدرةُ الكامِلَةُ، فلله تعالى أسماءٌ وصفاتٌ لا يحيطُ بها إلا هو سبحانه وتعالى.

١ ـ **أسماء الله تبارك وتعالى كثيرة:** بل كما قال ربنا عز وجل: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩] وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧] فلله عزّ وجل من معاني الحَمدِ والمجدِ ، والكمالِ والعظمةِ ، والقوةِ والقدرةِ والسلطانِ ، ما لا يحيطُ به بشرٌ ، ولا يدركُهُ عقلٌ ، ولا يقف عند منتهى كُنهِهِ إدراكٌ ، وحديث التسعة والتسعين(٢) لا يعني قصر الأسماء الحسنى عليها ، بل إنَّ النبي ﷺ قال في الحديث الصحيح ـ الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه ـ مناجياً وداعياً ربّه تبارك وتعالى: «**أسألُكَ بكلِّ اسمٍ هوَ لكَ ، سمَّيْتَ بِهِ نفسَكَ ، أو أنزلتَهُ في كتابِكَ ، أو علّمتَهُ أحداً منْ خَلْقِكَ ، أو استأثرتَ بِهِ في عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَك**»(٣). وذكر في حديث الشفاعة أنّه

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) سيأتي تخريجه ص (٤٧).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٩١). والحاكم في مستدركه ، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر (١/ ٦٩) رقم (١٨٧٧) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٦): رواه أحمد ، وأبو يعلى ، والبزار ، والطبراني ، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني ، وقد وثقه ابن حبان.

يسجدُ ﷺ تحت العرش ، فيفتَحُ اللهُ عليه بمحامدَ يعلّمُها له ، لم يكن يَعْلَمُها مِنْ قبلُ[١].

٢ ـ أسماء الله تبارك وتعالى توقيفية: فلا يحقُّ لأحدٍ مِنَ الناس أن يخترعَ لله تعالى اسماً ، وإنّما أسماؤه سبحانه هي ما جاء في القرآن الكريم أو السنة بصفة الاسم ، مثل: الخالق ، البارئ ، المصوِّر ، الملك ، القدّوس ، السّلام ، العزيز ، الحكيم ، العليّ ، العظيم ، المؤمن ، المهيمن... إلخ

٣ ـ من أسماء الله الحسنى ما يختصُّ به سبحانه: فلا يجوزُ أن يُسمَّى بها غيرُه ، وهي: (الله) و(الرَّحمنَ) ، ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ [الإسراء: ١١٠] ولهـذا لا يتسمّى أحدٌ بهـذين الاسمين من المخلوقين قطّ إلا قصمه الله تعالى ، فالله والرَّحْمَنُ من الأسماء التي لا يُسمَّى بها أحدٌ إلا الله عز وجل[٢].

٤ ـ من أسماء الله عز وجل ما يجوزُ أن يُذْكَرَ وحدَه منفرداً: كالعزيزِ ، والحميدِ ، والحكيم ، والرحيمِ ، والعليمِ ، والخبيرِ ، والبصيرِ.. وما أشبه ذلك ، فتناديه بها ، وتدعوه بها ، وتعرفُه سبحانه.

٥ ـ من أسماء الله عزّ وجلّ ما لا يُذكر إلا مع نظيره:

وذلك بأن تصفَ الله تبارك وتعالى بأنّه هو (الضار النافع) و (القابض الباسط) وما أشبه ذلك من الأسماء التي تكونُ متقابلةً ، فلو وصفت ربَّك تبارك وتعالى بأنه الضار فحسب ، أو القابض فحسب لكان هـٰذا مُوهِماً لمعنًى لا يليقُ بمجدِ اللهِ وكرمِهِ ، وعظمتِهِ وكمالِهِ وقدسيته ، **لهـذا لا تُذْكَرُ هـٰذه الأسماءُ منفردةً ، وإنّما تذكَرُ مع نظيرها ومقابلها.**

---

(١) حديث الشفاعة أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [الإسراء: ٣] (٤٤٣٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٤) من حديث أبي هريرة وسيأتي الحديث ص (٧٨).

(٢) مع الله ص: (٢٤).

٦ ـ معنى الإحصاء في قوله ﷺ: «إنَّ للهِ تسعةً وتسعينَ اسماً ، مئة إلا واحداً ، مَنْ أحصاها دخلَ الجنَّة»(١) يشمل أموراً منها:

أ ـ معرفة هٰذه الأسماء وحفظها: بحيث يستطيعُ الإنسانُ أن يعدّها عداً ، وقد اعتنى جماعةٌ من أهل العلم بعدِّ هٰذه الأسماء ، كالزَّجَّاج ، وابن مِنْدَة ، وابنِ حزم ، وأبي حامد الغزالي ، وابن العربي ، والقرطبي ، وغيرِهم من المصنّفين والعلماء ، الذين اعتنوا بذكر هٰذه الأسماء وتعدادها ، واستخراجها من القرآن والسنة النبوية الصحيحة ، وهٰذا داخلٌ في معنى إحصاء أسماء الله الحسنى.

وفضلٌ عظيم للإنسان أن يكونَ عندَه إلمامٌ ومعرفةٌ بأسماء الله عز وجل ، وأن يتلوها ، وأن يدعوَ الله بها(٢).

ب ـ من معاني إحصائها معرفة معانيها: فإنَّ هٰذه الأسماء ليست أسماءً رمزيةً ، ولا وهميةً ، ولا جامدةً ، ولا غامضةَ المعنى ، وإنّما هي بلسانٍ عربي مبينٍ ، أُريدَ من الإنسان أن يتفهّم معانيها ، حتى تكونَ تلاوتُنا لها ذاتَ معنًى ، وليس مجرّدَ ترديدٍ لألفاظٍ لا نفقه ما وراءها ، وهٰذا بحدِّ ذاته مكسبٌ عظيمٌ ، يبارِكُ النفسَ ويزكّيها ، ويرتقي بالقلب والعقل والروح.

ج ـ الإلحاح بالدعاء لله عز وجل بهـذه الأسماء ، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

إنَّ الله تبارك يحبُّ أن يُدعَىٰ بها ، ولهـذا قيل (من الكامل):

لا تسألنَّ بُنيَّ آدمَ حاجةً ... وسَلِ الذي أبوابُهُ لا تُحْجَبُ
اللهُ يَغْضَبُ إنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وبُنيُّ آدمَ حِيْن يُسْأَل يَغْضَبُ

فادعو الله بأسمائه الحسنى باعتدالٍ ، وذلك بأن تدعوه وتسأله وترجوه فيما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الشروط ، باب: ما يجوز من الاشتراط والثنا في الإقرار والشروط التي يتعارفها الناس بينهم ، وإذا قال: مئة إلا واحدة أو ثنتين (٢٥٨٥) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: في أسماء الله تعالى ، وفضل من أحصاها (٢٦٧٧).

(٢) مع الله ص: (٢٦).

أَلمَّ بكَ مِنْ أمرِ دنياك وآخرتِكَ مما تحبُّ وترجو ، أو ممّا تخافُ وتكره ، أو تدعوه بهـذه الأسماء باستحضار معانيها ، وتأمُّلها وتدبُّرِها ، والتعبد بمقتضياتها ، والتسبيح ، والتحميد ، والتهليل ، والتكبير ، والصلاة ، والذكر ، والاستحضار[١] .

ح ـ **استحضار معاني تلك الأسماء:** فإنّ شرَّ ما يُبتلى به الناسُ الغفلة ، والاستغراق في ماديات الحياة ، والانسياق وراء صوارفها ، وخيرُ دواءٍ للقلوب هو استحضارُ عظمةِ علاَّم الغيوب ، والتدرّجُ بالنفس في مراقي معرفته ، والإيمان به سبحانه ، حتَّى تصلَ درجةَ : «**أن تعبدَ الله كأنَّكَ تراه**»[٢] ، فهـذا يزيدُ المرءُ إقبالاً على الطاعة ، وحفاوةً ونشاطاً ، كما قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨ ـ ٢١٩] .

كما أنَّ استشعارَ معاني هـٰذه الأسماء يزيدُ المؤمنَ إعراضاً عن المعصية ، وزهداً فيها ، وإسراعاً في الإقلاع عنها ، وقوة في التوبة والأوبة ، لما يحسُّ به من وحشة القلب ، والبعد عن الربِّ ، ولما يحاذره ويستشعره من غضبه أو عتبه أو مؤاخذته سبحانه للعبد على إقامته على الذنب[٣] .

إنَّ مِنْ خيرِ ما تورثه هذه الأسماء الصفاءَ والسكينةَ والوئامَ ، والإحجامَ عن الناس ، والتواضعَ لذي الجلال ، إلى سعةِ العقلِ والفهمِ والإدراكِ ، ولعلَّ من إحصائها ألا تتحوّل إلى مادةٍ للخصام أو الجدل العقيم ، الذي لا يثمِرُ معرفةً قلبية ، على أنَّ البحث العلمي الهادئَ مطلبٌ لا بدَّ منه لمن أراد سلوكَ الطريق[٤] .

رابعاً ـ الصفات الإلهية:

تنقسمُ الصفاتُ الإلهيّةُ إلى عقليةٍ وخبريةٍ ، وإلى ذاتيةٍ وفعليةٍ اختياريةٍ ،

---

(١) المصدر السابق ص: (٢٧).

(٢) وهـٰذه الجملة هي جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان باب: سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (٥٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٨).

(٣) مع الله ص: (٢٨).

(٤) المصدر السابق ص: (٢٨).

فالصفاتُ العقليةُ والخبريةُ جاء بها القرآن الكريم وتحدّثت بها السنة.

١ ـ **الصفات العقلية:** وهي التي يمكِنُ أن يُسْتَدَلَّ عليها بالعقل: كالعلم، والقدرة، والإرادة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، والرحمة، والحكمة، والعلوّ، ونحوها(١).

٢ ـ الصفات الخبرية: وهي التي لا يستطيعُ العقلُ إدراكَها مِنْ غير طريق النصوص، فطريقُ إثباتها ورودُ خبرِ الصادقِ بها فقط، وذلك كالوجه، واليدين، والعين، والاستواء على العرش، ونحو ذلك(٢)، فهـذه الصفاتُ يجب الإيمانُ بها كالصفات العقلية من غير تمثيلٍ، ولا تعطيل، ولا تحريفٍ، ولا تكييف(٣)، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

كما تقسم إلى:

١ ـ **الصفات الذاتية**: وهي التي لا تنفكُّ عنها الذاتُ، بل هي لازمةٌ لها أزلاً وأبداً، وذلك كالحياةِ، والعلمِ، والقدرةِ، والقُوّة، والمُلْك، والعظمة، والكبرياء، والمجد، والعلو، والجلال، والوجه، وغيرها(٤).

● **بعضُ الصفاتِ الذاتيّة:**

أ ـ صفةُ الحياةِ: إنّ الله تعالى له الحياةُ الدائمةُ التامّةُ، التي لا يعتريها نقصٌ بوجهٍ من الوجوه، ولهـذا قال: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وصفةُ الحياة ثابتةٌ بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية:

فالآياتُ منها قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥] وقوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

أما **الأحاديث**، فمنها حديثُ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: إنَّ رسول الله ﷺ

---

(١) علو الله على خلقه ص: (٥٩، ٦٠، ٦١).
(٢) المصدر السابق ص: (٦٠).
(٣) المصدر نفسه ص: (٦١).
(٤) المصدر نفسه ص: (٦٥).

كان يقولُ: «**اللهمَّ لكَ أسلمتُ، وبكَ آمنتُ، وعليكَ توكّلتُ، وإليكَ أنبتُ، وبكَ خاصمتُ، اللهم إني أعوذ بعزّتك لا إلهَ إلَّا أنتَ أنْ تُضِلَّني، أنتَ الحيُّ الذي لا يموتُ، والجنُّ والإنسُ يموتون**»(١).

ومن معاني (الحي) أنَّ حياته صفةٌ ذاتيةٌ، بخلاف المخلوقين، فإنَّ حياتهم من فضلِ الله عزّ وجلّ عليهم، ومعيشتُهم من عطائه وجودِه وكرمِه، فاللهُ تعالى متّصفٌ بالحياةِ، وهي صفةٌ لذاته جلّ وعلا.

ومن معانيها أيضاً أنّه يمنحُ الحياةَ للأحياء في الدنيا، ويمنحُ أهلَ الجنّةِ حياتهم الأبدية الأزلية السرمدية التي لا زوال لها، بل هي خلودٌ أبديٌّ بلا موتٍ ولا فناءٍ(٢).

ب ـ صفةُ العلم: والعلمُ يقتضي نفيَ الجهلِ، وعلمُه سبحانه علمٌ شاملٌ كاملٌ، محيطٌ بالماضي والحاضر والمستقبل، وعلمٌ مطابِقٌ للواقع، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦].

فالله سبحانه وتعالى أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً، ووسعَ كلَّ شيْءٍ رحمةً وحكمةً ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥] ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

كما أنَّ علمه لا يسبقُه جهلٌ، فلا يلحقه أيضاً نسيان ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧].

هو يعلمُ دقائقَ التفاصيل، والظواهر، والبواطن، والكليات، والجزئيات، والمعنويات، والماديات، ولقد كتبَ مقاديرَ كلِّ شيءٍ في كتابٍ عنده، ولذا يقول سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوّذ من شرّ ما عمل، ومن شر ما لم يعمل (٢٧١٧)، وانظر صحيح البخاري، كتاب: الجمعة، باب: التهجد بالليل (١٠٦٩).

(٢) مع الله ص: (٢١٦).

فهـذا العلمُ:

يوجِبُ الخشيةَ منه وتعظيمه ، ولذا قيل: مَنْ كانَ باللهِ أعرفَ كان منه أخوفَ.

ويوجبُ مراقبته ، لأنَّ كلَّ شيءٍ بعلمه ، وسمعه ، وبصره ، وتحت سلطانه.

ويوجبُ محبته ، لأنَّ كمالَ العلمِ محبوبٌ للنفوس الشريفةِ التّواقة.

ويوجبُ محبَّةَ العلم والسعيَ فيه ، **وتحصيله** ، **والتلذذ به** ، لأنَّ الله يحبُّ العلمَ والعلماءَ ، ويكرهُ الجهلَ والجُهلاءَ ، ويوجِبُ الصبرَ على التعلّم وذلِّه ، لأنه عبادةٌ.

وكذلك علمُ الدنيا والكونِ والإنسانِ وألوانِ المعارف الإنسانية محبوبةٌ ، وعلمُ الشريعةِ والوحي والآخرةِ محبوبٌ ، لأنّه يثمِرُ معرفةَ الله ، والقربَ منه ، ومعرفةَ ما يريدُ وما يحبُّ ، وما يكره سبحانه وتعالى.

وكذلك علمُ الدنيا والكون والإنسان وألوان المعارف الإنسانية هي محبوبةٌ ، لأنّها تزيدُ العبدَ بصيرةً بِخَلْقِ اللهِ وقدرتهِ وحكمتِهِ وعظمتِهِ ، وتيسِّرُ الانتفاعِ بهـذا الكونِ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ ﴾ [الجاثية: ١٣].

إنَّ صفة العلم مستمدّةٌ من اسمه العليم ، وهـٰذا الاسمُ الشريفُ العظيمُ يولِّدُ في النفس تسليماً لما يفعله الله في كونه ، وأن ذلك حاصل بعلمِهِ وإرادتِهِ وحكمتِهِ ، فالحكمةُ هي العلم ، والقدرةُ هي قرينُ العلم ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢] ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤] فكلُّ شيءٍ بقدرٍ ، وكلُّ قَدَرٍ بحكمةٍ ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [التغابن: ١١].

إنّ الإيمانَ بالربِّ (العليم) ليجعلُ العبدَ أقربَ إلى ربّه ، وأكثرَ استشعاراً لمعيّته.

قال الشاعر (من الكامل):

وهُـوَ العليـمُ أحـاطَ عِلْماً بـالّـذي ... فـي الكـونِ مِـنْ سَـرٍّ ومِـنْ إعـلانِ
وبكـلِّ شـيءٍ علمُـه سبحـانَـهُ ... قـاصـي الأمـورِ لـديه قبلَ الـدَّاني

لا جَهْــلَ يَسْبِــقُ عِلْمَــهُ كــلا ولا ينْسَــىٰ كَمَــا الإنســانُ ذو نِسْيــانِ[(١)]

ج ـ صفةُ القدرة: القديرُ سبحانه هو كاملُ القدرةِ ، فبقدرته أوجدَ الموجودات ، وبقدرته دبّرَها ، وبقدرته سوَّاها وأحكمَها ، وبقدرته يحيي ويميتُ ، ويبعثُ العبادَ للجزاءِ ، وبقدرته سبحانه يقلِّبُ القلوب على ما يشاءُ ويريد[(٢)] . قال تعالى : ﴿ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ٤] وقال : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٥] .

ومن **السنة المطهرة** حديثُ جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما قال : كان رسولُ الله ﷺ يعلّمنا الاستخارةَ في الأمور كلِّها ، كما يعلِّمُنا السورةَ من القرآن ، يقول : «**إذا هَمَّ أحدُكُم بالأمرِ فليركعْ ركعتينِ مِنْ غيرِ الفريضة ، ثم لِيَقُلْ : اللهمَّ إنِّي أستخيرُكَ بعلمِكَ ، وأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ . . .**»[(٣)] .

د ـ صفةُ الإرادةِ: الإرادةُ والمشيئةُ بمعنًى واحد ، فالإرادةُ التي تعني المشيئةَ هي **الإرادةُ الكونية** ، وأمّا **الإرادةُ الشرعية** فتختلِفُ عن **الإرادةِ الكونية** ، وسيأتي الحديثُ عنها مفصّلاً بإذن الله .

والآيات والأحاديث في بيان **الإرادة الكونية** كثيرةٌ جداً ، منها قوله تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦] وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

وأما **الأحاديث** فمنها حديثُ معاويةَ بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ في الدِّيْن**»[(٤)] .

هـ ـ إثباتُ صفةِ السمع والبصر : والمعلومُ والمقدّرُ عند أهلِ السنَّةِ أنَّ

---

(١) مع الله ص (١٢١) والأبيات من نونية ابن القيم المشهورة .
(٢) المصدر السابق ص (٢٣٥) .
(٣) البخاري في صحيحه ، كتاب الجمعة ، باب : ما جاء في التطوع مثنى مثنى (١١١٣) .
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : العلم ، باب : من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين (٧١) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب : الزكاة ، باب : النهي عن المسألة (١٠٣٧) .

السميعَ لا يكونُ إلا بسمع ، والبصير لا يكونُ إلا ببصرٍ ، كما لا يكونُ القديرُ والحكيمُ إلا بقدرةٍ وحكمةٍ[١] .

والآيات في إثبات صفتي السمع والبصر كثيرةٌ ، **وكذلك الأحاديثُ** أيضاً ، ولذلك سنستدل ببعض الآيات قال تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] .

و ـ إثباتُ صفة الكلام: أهلُ السنّةِ متّفقون على أنَّ اللهَ يتكلّم بمشيئته ، وأنَّه لم يزل متكلّماً إذا شاء ، وكيف شاء[٢] ، قال تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] .

فالله عزّ وجلّ من صفاته صفةُ الكلامِ ، وهي صفةٌ قائمةٌ به ، غيرُ بائنةٍ عنه ، لا ابتداءَ لا تّصافه بها ولا انتهاء ، يتكلَّم بها بمشيئته واختياره ، وكلامُه تعالى أحسنُ الكلام ، ولا يشابهُ كلامَ المخلوقين ، إذ الخالقُ لا يقاسُ بالمخلوق ، ويكلِّم به مَنْ شاء ، ويسمِعُه على الحقيقةِ مَنْ شاء من ملائكته ورسله ، ويسمِعُه عبادَه في الدار الآخرة بصوتِ نفسِه ، كما كلّم موسى وناداه حين أتىٰ الشجرةَ بصوتِ نفسِه ، فسمعَه موسى ، كما أنَّ كلامه تعالى لا يشبِهُهُ كلامُ المخلوقين ، فإنَّ صوته لا يشبِهُ أصواتهم ، وكلماتهُ تعالى لا نهايةَ لها ، ومن كلامِهِ: القرآنُ والتوراةُ والإنجيلُ ، فالقرآنُ كلامُه ، سورهُ ، وآياتهُ ، وكلماتهُ[٣] .

والقرآن الكريم كلام الله ، منه بدأ ، وإليه يعود ، فهو كلامُ الله ، حروفهُ: ومعانيه ، والدليل أنّه مِنْ كلام الله قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] .

والقرآن منزلٌ من عند الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١] .

والقرآنُ غيرُ مخلوقٍ ، والدليل قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فجعل الأمرَ غيرَ الخلقِ ، والقرآنُ من الأمرِ ، لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٢٢] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق: ٥] .

---

(١) من عقيدة المسلمين ص (٧٢) .
(٢) المصدر نفسه ص (٧٣).
(٣) من كتاب العقيدة السلفية في كلامه رب البرية ص (٦٣) .

ز ـ علو الله على خلقه: إنّ الله تعالى وصفَ نفسَه بالعلوِّ في السماء ، ووصفه بذلك محمَّدٌ خاتمُ الأنبياء ، وأجمعَ على ذلك جميعُ العلماء من الصحابة الأتقياء ، والأئمة الفقهاء ، وتواترت الأخبار بذلك على وجه حصل به اليقين ، وجمعَ اللهُ عليه قلوبَ المسلمين ، وجعله مغروزاً في طِباع الخلقِ أجمعين ، فتراهم عندَ نزولِ الكربِ بهم يلحظون السماءَ بأعينهم ، ويرفعونَ نحوَها للدعاءِ أيديهم ، وينتظرونَ مجيءَ الفرج مِنْ ربِّهم ، وينطقون ذلك بألسنتهم ، لا ينكِرُ ذلك إلا مبتدعُ غالٍ في بدعته ، أو مفتونٍ بتقليدِهِ واتباعه على ضلالته[1] ، قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] ومعاني العلوِّ جميعُها ثابتةٌ له سبحانه: علوُّ الذاتِ ، وعلوُّ القدرةِ ، وعلوُّ القهرِ والغلبةِ ، وعلوَّ الحُجَّةِ.

فهو علوُّ ذاتٍ ، وعلوُّ صفاتٍ ، ولذا وصفَ نفسَه بأنه ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فالعلوُّ الكاملُ له وحدَه سبحانه ، والعلوُّ الدائم له وحده سبحانه ، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**حَقٌّ على اللهِ أنْ لا يرتفِعَ شيءٌ مِنَ الدُّنيا إلا وَضَعَهُ**»[2].

ومن علوِّه أنْ جعلَ الرفعةَ لكتابِهِ ولدينِهِ ولأوليائِهِ الصادقين ، كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨] وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤] وقال ﷺ: «**إنَّ اللهَ يرفَعُ بهذا الكتابِ أقواماً ، ويضعُ به آخرين**»[3].

ومع علوِّه سبحانَه ، فهو قريبٌ مجيبٌ سميعٌ ، ولذا يناديه العبدُ نداءً خفياً ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

ويخبِرُ عن نفسِه أنَّه يسمعُ السِّرَّ وأخفى ، والسرُّ ضدُّ الجهرِ ، وما هو أخفى من السرِّ هو الخطراتُ التي لا يعيها صاحبُها ، ولا يدرِكُها ، والمعاني المكنونة

---

(١) إثبات صفة العلو للمقدسي ص (٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجهاد والسير ، باب: ناقة النبي (٢٧١٧).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها ، باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلّمه ، وفضل من تعلم حكمةً من فقهٍ أو غيره فعمل بها وعلّمها (٨١٧).

التي لا يحيطُ المرءُ بها حتى عن نفسِه وذاته ، فهناك عالَمُ الأسرار ، وهناك عالَمُ اللاشعور واللاوعي ، وهناك الخفايا الخَلْقية ، التي لم يصل إليها العلمُ ، وهناك الخفايا المستقبلية ، فهو مع علوِّه واستوائه على عرشِهِ محيطٌ بذلك كله ، لا تخفى عليه خافيةٌ ، ولذا سمَّىٰ نفسَه بذي المعارج ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ٣] وفسَّره بقوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] .

وذكر نزولَ الملائكةِ والروح ونزولَ الوحي ، كما ذكر ارتفاعَ الأشياءِ وصعودَها إليه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] .

قال الشاعر: (من الوافر):

إذا ضاقتْ بكَ الأحوالُ يوماً فثِقْ بالواحِدِ الصَّمَدِ العَلِيِّ[1]

ح ـ إثباتُ صفةِ الوَجْهِ: نثبِتُ للهِ صفةَ الوجهِ دونَ تحريفٍ ، ولا تعطيلٍ ، ولا تكييفٍ ، ولا تمثيلٍ ، وهو وجهٌ يليقُ به سبحانه ، قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨] وقول النبي ﷺ: «**إنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نفقةً تبتغي بها وَجْهَ اللهِ إلاّ أُجِرْتَ عليها**»[2] .

ط ـ إثباتُ صفةِ اليدين: قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] وقال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [سورة ص: ٧٥] .

وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ المقسطينَ عند الله على منابرَ مِنْ نورٍ ، عن يمينِ الرحمنِ عزّ وجلَّ ، وكلتا يديهِ يمينٌ ، الذين يَعْدِلُون في حُكْمِهم وأهليهم وما ولوا**»[3] .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى صفة اليدِ بالإفرادِ والتثنيةِ والجمعِ: **فبالإفرادِ** مثل

---

(١) مع الله ص (١٥٠) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية الحسنة ولكل امرىء ما نوى (٥٦) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الوصية ، باب: الوصية بالثلث (١٦٢٨) .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإمارة ، باب: فضيلة الإمام العادل ، وعقوبة الجائر ، والحث على الرفق بالرعية ، والنهي عن إدخال المشقة عليهم (١٨٢٧) .

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] و**بالتثنية** كقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] و**بالجمع** كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس: ٧١].

والتوفيقُ بين هذه الوجوهِ أن نقولَ:

الوجهُ الأوّلُ مفرَدٌ مضافٌ، فيشمَلُ كلَّ ما ثبتَ للهِ من يدٍ، ولا ينافي التثنية.

وأمّا الجمعُ فهو للتعظيمِ، لا لحقيقةِ العددِ الذي هو ثلاثةٌ فأكثر، وحينئذٍ لا ينافي التثنية، على أنّه قد قيل: إنّ الجمعَ اثنان، فإذا حُمِلَ الجمعُ على أقلِّه فلا معارضةَ بينه وبين التثنية أصلاً[١].

ي ـ إثباتُ صفةِ العين: وإثباتُ صفة العينِ على ما يليقُ باللهِ تعالى، ولا يُفْهَمُ منها أنَّ لله عينٌ جارحةٌ كأعيننا، بل له سبحانه وتعالى عينٌ حقيقيةٌ تليقُ بعظمتِهِ وجلالِهِ، وللمخلوقِ عينٌ حقيقةٌ تناسِبُ حالَه وحدوثَه وضعفَه، وهذا شأنُ جميعِ الصفاتِ التي فيها المشاركةُ اللفظيةُ مع صفاتِ المخلوق[٢].

والعينُ صفةٌ لله تعالى بلا كيفٍ، وهي من الصفاتِ الخبريةِ الذاتية، قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩] وذكرُ العينِ مفردةً لا يدلُّ على أنّها عينٌ واحدةٌ فقط، لأنَّ المفردَ المضاف يرادُ بِهِ أكثر من واحدٍ، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وقال تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وهنا ذكرت بصيغةِ الجمع مضافةً إلى ضمير الجمع[٣].

ك ـ إثباتُ صفةِ النفس: قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] وقال رسول الله ﷺ: «**يقولُ الله تعالى: أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإنْ ذكرني في نفسِهِ ذكرتُهُ في نفسِي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرتهُ في ملأٍ خيرٍ منهم**»[٤].

---

(١) لمعة الاعتقاد ص(٥٠).

(٢) الصفات الإلهية ص (٣١٩).

(٣) من عقيدة المسلمين ص (٨٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ=

فالله جلّ وعلا أثبتَ في كتابه أنَّ له نفساً ، وكذلك قد بيّنَ على لسانِ نبيّه ﷺ أنّ له نفساً ، كما أثبتَ النفسَ في كتابه ، ونثبِتُها له على الوجه اللائق به[١] .

٢ـ الصفات الفعلية: وهي التي تتعلّق بها مشيئته وقدرتُه كلَّ وقتٍ وآن ، وتحتَ مشيئتِهِ وقدرتِهِ آحادُ تلك الصفات من الأفعال ، وإنْ كانَ هو سبحانه لم يزلْ موصوفاً بالفعل بمعنى أنَّ نوعَ الأفعالِ قديمٌ ، وأفرادها حادثةٌ ، فهو سبحانه لم يزلْ فعّالاً لما يريدُ ، ولم يزلْ ولا يزالُ يقولُ ويتكلّم ، ويخلقُ ، ويدبّر الأمور ، وأفعالُه تقعُ شيئاً فشيئاً تبعاً لحكمتِهِ وإرادتهِ .

ومثلُ هٰذا الاستواءُ على العرش ، والمجيءُ ، والإتيانُ ، والنزولُ إلى السماء الدنيا ، والضحكُ ، والرضا ، والغضب ، والكراهية ، والمحبة ، والخلق ، والرزق ، والإحياء ، والإماتة ، وأنواعُ التدبير[٢] .

وأفعالهُ سبحانه وتعالى منها اللازمُ ، ومنها المتعدي .

فالاستواءُ والمجيءُ والنزولُ ونحو ذلك **أفعالٌ لازمةٌ** لا تتعدّى إلى مفعولٍ ، بل هي قائمةٌ بالفاعلِ .

والخلقُ ، والرزقُ ، والإماتةُ ، والإحياء ، والإعطاء ، والمنع ، ونحو ذلك ، تتعدّى إلى مفعولٍ[٣] .

وقد جمع الله بينهما في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٩] فذكر الفعلينِ المتعدّي واللازم وكلاهما حاصلٌ بمشيئته وقدرته ، وهو متّصفٌ بهما سبحانه ، كما يجب التنبيه أيضاً إلى أنَّ من صفاته سبحانه وتعالى ما يأتي صفةَ ذاتٍ ، وصفةَ فعلٍ ، وذلك مثل صفة الكلام ، والخلق ، والرحمة[٤] .

= نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] (٦٩٧٠) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب: الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥) .

(١) لمعة الاعتقاد لابن قدامة ص (٥١) .
(٢) شرح العقيدة الواسطية ص: (١٠٥ ـ ١٠٦) .
(٣) علو الله على خلقه ص: (٦٦) .
(٤) المصدر نفسه ص: (٦٦) .

وقد دلّتِ الآيات والأحاديث على اتّصاف اللهِ بالصفات الذاتية والفعلية ، قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أُتِي رسول الله ﷺ بِلَحْم ، فرفعَ إليه الذراعَ ، وكانتْ تُعْجِبُه ، فنهسَ منها نهسةً ، ثم قال: «**أنا سيِّدُ الناسِ يومَ القيامةِ**. . إلى أن قال: **فيأتونَ آدمَ عليه السلام ، فيقولونَ له: أنتَ أبو البشرِ ، خلقَكَ اللهُ بيدِهِ ، ونفخَ فيكَ مِنْ روحِهِ ، وأمَرَ الملائكةَ فسجدوا لكَ ، اشفعْ لنا إلى ربِّكَ ، ألا ترى إلى ما نحنُ فيه؟! ألا ترى إلى ما قدْ بلغنا؟! فيقولُ آدمُ: إنَّ ربِّي غضبَ اليوم غضباً لم يَغْضَبْ قبلَه مثله ، ولن يغضَب بعدَه مثلَه. . .**»[١].

وعلينا إثباتُ جميع ما وردَ بالكتاب والسنة من الصفاتِ بلا تحريفٍ ، ولا تعطيلٍ ، وبلا تشبيهٍ ، ولا تمثيلٍ[٢].

● بعض الصفات الفعلية:

أ ـ إثباتُ استواءِ الله على عرشه: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨ ـ ٥٩].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: تفسير القرآن ، باب: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] (٤٣٤٠) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٤).

(٢) علو الله على خلقه ص: (٦٩).

ويجب إثباتُ استواءِ الله على عرشه من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ ، ولا تكييفٍ ولا تمثيلٍ ، وهو استواءٌ حقيقيٌّ ، معناه العلو والاستقرار على وجهٍ يليقُ بالله تعالى[(١)].

ولما سُئِل مالكُ بنُ أنس عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] قال: «**الاستواءُ غيرُ مجهولٍ ، والكيفُ غيرُ معقولٍ ، والإيمانُ به واجبٌ ، والسؤالُ عنه بدعةٌ ، وما أراكَ إلّا ضالًا**» وأمرَ أن يُخْرَجَ السائلُ من المجلس[(٢)].

وأكثرُ مَنْ صرّح بأنّ الله مستوٍ بذاته على عرشه أئمةُ المالكية ، فصرّح أبو محمد بن أبي زيد القيرواني في ثلاثةِ مواضع من كتبه وأشهرها «الرسالة» وفي كتاب «جامع النوادر» وفي كتاب «الآداب» ، وصرّح بذلك القاضي أبو بكر الباقلاني ، وكان مالكياً ، وصرّح به أبو عبد الله القرطبي المفسّر في كتاب «الأسماء الحسنى» وكذلك أبو عمر بن عبد البر ، والطلمنكي ، وغيرهما من الأندلسيين ، وغير ذلك من السادّة المالكية[(٣)].

إنّ كتابَ الله عزّ وجلّ من أوله إلى آخره، وسنةَ رسولهِ ﷺ وكلام عامة الصحابة والتابعين ، وكلام سائر الأئمة ، مملوءٌ بما هو نصٌّ أو ظاهِرٌ في أنَّ الله سبحانه وتعالى فوقَ كلِّ شيءٍ ، وأنّه فوقَ العرشِ ، وفوقَ السماواتِ مستوٍ على عرشه[(٤)].

ب ـ صفة المجيء: قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢] قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

ويجبُ إثباتُ المجيء من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ ، ولا تكييفٍ ولا تمثيلٍ ، وهو مجيءٌ حقيقةً ، يليقُ بالله تعالى[(٥)].

ج ـ صفة الرضا: قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩].

د ـ صفة المحبة: قال تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) لمعة الاعتقاد ص (٦٢).
(٢) شرح حديث النزول لابن تيمية ، عقيدة المسلمين ص (٨٦).
(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٢ / ١٣٤).
(٤) اجتماع الجيوش الإسلامية ص (٩٦).
(٥) لمعة الاعتقاد ص (٥٢).

هـ ـ صفة الغضب: قال تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء: ٩٣].

و ـ صفة السخط: قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ [محمد: ٢٨].

ز ـ صفة الكراهة: قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦].

فصفةُ الرضا، والمحبةِ، والغضبِ، والسخطِ، والكراهةِ: صفاتٌ ثابتةٌ لله عزّ وجلّ، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ولا تكييف ولا تمثيلٍ، فهي على ما يليقُ به عزّ وجلّ، وكذلك صفةُ الغيرةِ، والفرحِ، والضحكِ، فقد جاء ذكرُها في أحاديثَ نبويةٍ صحيحةٍ.

٣ ـ بعضُ الصفاتِ التي تُطْلَقُ من بابِ المقابلةِ:

وردَتْ في القرآنِ الكريمِ أفعالٌ أطلقها الله عزّ وجلّ على نفسِه على سبيلِ الجزاءِ والعدلِ والمقابلةِ، وهي فيما سيقت فيه مدحٌ وكمالٌ، ولكن لا يجوزُ أن يشتقَّ للهِ تعالى منها أسماءٌ، ولا تطلقُ عليه في غيرِ ما سيقتْ فيه من الآياتِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤] وقوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤ ـ ١٥].

فلا يطلَقُ على اللهِ لفظُ (مخادعٍ، ماكرٍ، ناسٍ، مستهزئٍ)، ونحو ذلك ـ تعالى الله عنه علواً كبيراً ـ ولا يقال: (اللهُ يستهزئُ، ويخادعُ، ويمكرُ، وينسى)، على سبيل الإطلاقِ، وقد أخطأ الذين عدُّوا ذلك من أسمائه الحسنى خطأً كبيراً، لأنَّ الخداعَ والمكرَ يكونُ مدحاً ويكون ذمّاً، فلا يجوزُ أن يطلقَ على الله إلا مقيّداً بما يزيلُ الاحتمالَ المذمومَ منه، كما ورد مقيّداً في الآيات[1].

٤ ـ الله منزهٌ عن كلِّ صفة نقص:

● **يُنَزَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ عن الغفلةِ والنسيانِ بأي وجهٍ من الوجوه**، لأنّه عالمُ الغيبِ والشهادةِ، وعلمُه محيطٌ بكلِّ شيءٍ، فلا يعرضُ له ما يعرِضُ لعلم المخلوقِ من

---

(١) معارج القبول (١/ ٧٦).

خطأٍ بعضِ المعلومات ، أو نسيانها ، أو الذهول عنها ، قال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] .

● **ومنَزَّهٌ عن الاحتياج إلى الرزق والطعام** ، لأنه هو الرزاقُ لجميع الخلقِ ، الغنيُّ عنهم ، وكلُّهم فقراءُ إليه ، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤] .

● **والله مُنَزَّهٌ عن ظُلْم العبادِ** ، بأن يزيدَ في سيئاتهم ، أو ينقصَ من حسناتهم ، أو يعاقبهم على ما لم يفعلوا ، فإنَّ الظلمَ لا يفعله إلا مَنْ هو محتاجٌ إليه ، أو مَنْ هو موصوفٌ بالجَوْرِ ، أمّا الله فهو الغنيُّ عن خلقه من جميع الوجوهِ ، الحكمُ العدلُ الحميدُ ، فما له وظلم العباد؟ قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] .

● **والله منزَّهٌ عن العبث في الخلق والأمر** ، فلم يخلق سبحانه وتعالى شيئاً عبثاً ولا باطلاً ، ولا شرعَ إلا حكمةً عظيمةً ، لأنه حكيمٌ حميدٌ ، من تمام حكمته وحمده إتقانُ المصنوعاتِ وإحكامُها ، وإحكامُ الشرائع على أكملِ وجهٍ وأتمّه(١) .

٥ ـ **صفاتُ الله كلُّها صفاتُ كمالٍ:** لا نقصَ فيها بوجهٍ من الوجوه ، كالحياة ، والعلم ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والرحمة ، والعزة ، والحكمة ، والعلو ، والعظمة ، وغير ذلك ، ولله عزَّ وجلَّ المثل الأعلى قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠] وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧] والمثل الأعلى هو الوصفُ الأعلى ، إنّ الخلقَ مضطرون إلى العلم بأنَّ الخالقَ سبحانه وتعالى أجلُّ وأكبرُ وأعلى وأعلمُ وأعظمُ وأكملُ من كلِّ شيء ، فهذا مستقرٌّ في فطر الناس ، وهو علم ضروري في حقِّ من سَلِمَتْ فطرته ، فدلالةُ الفطرةِ على الصفات واضحةٌ وبينةٌ ، فإنَّ كلَّ حادثٍ لابدَّ له من محدث ، وهذا المحدِثُ لابدَّ أن يكونَ قادراً ، عالماً ، مريداً ، حكيماً ، فالفعل يستلزمُ القدرةَ ، والإحكامُ يستلزم العلم ، والتخصيصُ يستلزِم الإرادةَ ، وحُسْنُ العاقبةِ يستلزم الحكمةَ .

---

(١) الحق الواضح المبين لابن سعدي ص (١٠).

وفي الفطرةِ الإقرارُ لله تعالى بالكمال المطلق ، الذي لا نقص فيه بوجهٍ من الوجوه. وكذلك في الفطرة تنزيه الله عن النقائص والعيوب ، ومن القضايا البدهية المستقرة في الفطرة أنّ الذي يعلمُ ، والذي قدّر ، والذي يتكلَّم ويبصر: أكملُ من الفاقد لذلك ، ولهذا يذكر الله تعالى هذه المسألة بخطابِ الاستفهام الإنكاري ، ليبيِّن أنها مستقِرَّةٌ في الفطرةِ ، وأنّ النافي لها قال قولاً منكراً في الفطرة ، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧] . فالتسويةُ منكرَةٌ في الفطرة ، ويُنْكَرُ ذلك على مَنْ سوَّى بينهما ، فالذي ليست لديه صفاتُ كمالٍ ، لا يمكِنُ أن يكون ربّاً ، ولا معبوداً ، وأنَّ العلم بذلك فطري[1] ، كما قال الخليل قال تعالى ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٤٢] وقال تعالى عَنْ عجلِ بني إسرائيل: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٨] .

٦ ـ من لوازم استحقاقِ الله تعالى لصفاتِ الكمال تفرُّدُه بالحُكْم: فمن الآياتِ القرآنية التي أوضحَ تعالى بها صفاتِ مَنْ له الحُكم والتشريع قوله: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الشورى: ١٠] ثم قال مبيِّناً صفاتِ مَنْ له الحُكم: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ١٠ ـ ١٢] ذكر سبحانه وتعالى صفاتِ الربِّ الذي تفوَّضُ إليه الأمور ، ويُتَوَكَّلُ عليه ، وإنّه فاطر السماوات والأرض وخالقها ، على غير مثالٍ سابقٍ ، وأنّه هو الذي خلقَ للبشر أزواجاً ، وخلقَ لهم أزواج الأنعام الثمانية المذكورة[2] . وأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] وأنه: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ [الشورى: ١٢] وأنه سبحانه وتعالى: ﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ ﴾ [الشورى: ١٢] و(يَقْدِر) أي يضيقه على مَنْ يشاء ، وهو بكلِّ شيءٍ عليم ، فعلى المسلمِ أن يتفقَّه صفاتِ مَنْ يستحقُّ أن يشرِّعَ ويحلِّل ويحرّمَ[3] .

---

(١) عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين ص (١٠٢).

(٢) أضواء البيان بتصرف (٧/ ١٦٣).

(٣) من عقيدة المسلمين ص (١٤١).

٧ ـ **نفيُ معاني أسمائه الحسنى مِنْ أعظمِ الإلحاد فيها:** قال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] لأنّها لو لم تكن تدلُّ على معانيَ وأوصاف لم يَجُزْ أن يُخْبَرَ عنها بمصادرِها، ويُوْصَفَ بها، ولكنّ الله أخبرَ عن نفسِه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] فعُلِمَ أنَّ القوي من أسمائه، ومعناه الموصوفُ بالقوة. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] فالعزيزُ مَنْ له العزّةُ، فلولا ثبوتُ القوة والعزةِ لم يسمَّ قوياً ولا عزيزاً، وهكذا في سائر أسمائه.

وحقيقةُ الإلحادِ فيها ـ أي في أسمائه تعالى ـ العدولُ عن الصوابِ فيها، وإدخالُ ما ليس من معانيها فيها:

أ ـ **كأن تسمّى بعضُ المعبوداتِ باسمٍ من أسماء الله تعالى، أو يقتبَسَ لها اسمٌ من بعض أسمائه تعالى:** كتسمية المشركين بعضَ أصنامهم «**اللات**» أخذاً من «**الإله**» و«العُزّى» أخذاً من «**العزيز**» وتسميتهم الأصنامَ أحياناً «**آلهة**» وهذا إلحادٌ واضحٌ كما ترى، لأنّهم عدلوا بأسمائه تعالى إلى معبوداتهم الباطلة.

ب ـ **وكتسمية تعالى بما لا يليق به**، كتسمية النصارى له «**أب**»، وإطلاقِ الفلاسفةِ عليه «**موجباً لذاته**» أو «**علّة فاعلةً بالطبع**» ونحو ذلك.

ج ـ **وكوصف الله تعالى بما يُنَزَّهُ عنه سبحانه**، كقولِ اليهود (ولعنوا بما قالوا): إنّه فقيرٌ، وقولهم: إنَّه استراحَ بعدَ أن خلقَ خلقه، وقولهم: أيضاً (غلت أيديهم): يدُ اللهِ مغلولةٌ، وغير ذلك من الألفاظ التي يطلقها أعداءُ الله قديماً وحديثاً.

د ـ **وكتعطيل أسمائه تعالى عن معانيها**، وهي الصفاتُ، وجحدِ حقائقها، كما فعل بعضُ الفرق المبتدعةِ، حيث جعلوا أسماءَ اللهِ ألفاظاً مجرّدةً، لا تدل على الصفات، كقولهم: سميعٌ بلا سمعٍ، وعليمٌ بلا علمٍ.

هـ ـ **وكتشبيه الله تعالى بصفات خلقه**[1].

٨ ـ **آثار الصفات الإلهية في النفس والكون والحياة:** ومشهدُ الأسماء

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (١/ ١٦٩).

والصفات من أجلِّ المشاهدِ ، والمطَّلِعُ على هذا المشهدِ يعرِفُ أنَّ الوجودَ متعلِّقٌ خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى ، والصفات العلى ، ومرتبِطٌ بها ، وإنَّ العالمَ بما فيه من بعض آثارِها ومقتضياتها. فاسمه «**الحميد ، المجيد**» يمنعُ تركَ الإنسان سدًى مهمَلاً معطَّلاً ، لا يؤمَرُ ولا يُنْهَى ، ولا يُثاب ولا يُعاقب. وكذلك اسمه «**الحكيم**» يأبى ذلك ، فكلُّ اسمٍ من أسمائه له موجباتٌ ، وله صفاتٌ ، فلا ينبغي تعطيلُها عن كمالها ومقتضياتها.

والربُّ تعالى يُحِبُّ ذاتَه وأوصافَه وأسماءه ، فهو عفوٌّ يحبُّ العفوَ ، ويحبُّ المغفرةَ ، ويحبُّ التوبةَ ، ويفرحُ بتوبةِ عبدِهِ حينَ يتوبُ إليه فرحاً لا يخطرُ بالبال ، وكان تقدير ما يغفره ، ويعفو عن فاعله ، ويحلمُ عنه ، ويتوبُ عليه ، ويسامحه بموجب أسمائه وصفاته ، وحصولِ ما يحبُّه ويرضاه من ذلك.

وما يحمد به نفسَه ، ويحمده به أهلُ سماواته وأهل أرضه ، وما هو من موجباتِ كماله ، ومقتضى حمده ، وهو سبحانه الحميد المجيد ، وحمدهُ ومجدُه يقتضيان آثارهما :

ومن آثارهما: مغفرةُ الزلات ، وإقالةُ العثراتِ ، والعفو عن السيئاتِ ، والمسامحةُ على الجنايات ، مع كمالِ القدرةِ على استيفاءِ الحق ، والعلم منه سبحانه بالجناية ، ومقدار عقوبتها ، فحلمه بعد علمه ، وعفوه بعد قوته ، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته[1]. كما قال الله على لسان عيسى عليه السلام في القرآن: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] أي: فمغفرتُك عن كمالِ قدرتك ، وحكمتُك ليست كمن يغفرُ عَجْزاً ، ويسامِحُ جهلاً بقدر الحق ، بل أنتَ عليمٌ بحقك ، قادِرٌ على استيفائه ، حكيمٌ في الأخذِ منه.

فمن تأمّلَ سريانَ آثار الأسماء والصفات في العالم وفي الأمر ، تبيّنَ له أنّ مصدرَ قضاء هذه الجنايات من العبيد ، وتقديرها: هو مِنْ كمالِ الأسماء والصفات والأفعال ، وغايتها أيضاً مقتضى حمده ومجده ، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته ، فلله في كلِّ ما قضاه وقدّره الحكمةُ البالغةُ والآياتُ الباهرةُ.

---

(١) مدارج السالكين ص (٤١٧ ، ٤١٨).

والله سبحانه دعا عبادَه إلى معرفته بأسمائه وصفاته ، وأمرهم بشكره ومحبته وذكره ، وتعبّدهم بأسمائه الحسنى ، وصفاته العلى ، لأنّ كلَّ اسمٍ له تعبُّدٌ مختصٌّ به ، علماً ، ومعرفة ، وحالاً .

وأكملُ الناسِ عبوديةً المتعبِّدُ بجميع الأسماءِ والصفاتِ ، التي يطّلعُ عليها البشرُ ، فلا تحجبُه عبوديةُ اسمٍ عن اسمٍ آخر ، كما لا يحجبُه التعبُّدُ باسمه «القدير» عن التعبُّدِ باسمه «الحليم الرحيم» ، أو تحجبُه عبوديةُ اسمه «المعطي» عن عبودية اسمه «المانع» ، أو عبودية اسمه «الرحيم والعفو والغفور» عن اسم «المنتقم» ، أو التعبد بأسماءِ «البر والإحسان واللطف» عن أسماء «العدل والجبروت والعظمة والكبرياء» وهذه طريقةُ الكمال من السائرينَ إلى الله ، وهي طريقةُ مشتقةٌ من قلب القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] والدعاء بها يتناولُ دعاءَ المسألةِ ، ودعاءَ الثناء ، ودعاءَ التعبُّدِ[١] . وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ، ويثنوا عليه بها ، ويأخذوا بحظّهم من عبوديتها .

فالله سبحانه وتعالى يُحبُّ موجِبَ أسمائه وصفاته ، فهو «**عليمٌ**» يحبُّ العلمِ ، وهو «**جَوَادٌ**» يحبُّ الجود ، «**وترٌ**» يحبُّ الوتر ، «**جميل**» يحبُّ الجمال ، «**عفوٌّ**» يحب العفوَ وأهلَه ، «**حييٌّ**» يحبُّ الحياءَ وأهله ، «**بَرٌّ**» يحبُّ الأبرار ، «**شكور**» يحبُّ الشاكرين ، «**صبورٌ**» يحبُّ الصابرين ، «**حليمٌ**» يحبُّ الحلمِ .

فلمحبته سبحانه للتوبةِ والمغفرةِ ، والعفوِ ، والصفحِ : خلقَ مَنْ يغفِرُ لهم ، ويتوبُ عليهم ، ويعفو عنهم ، وقدّر عليهم ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له ، ليترتّب عليه المحبوبُ له ، المرضي له[٢] .

وظهور أسماء الله وصفاته في هذه الحياة ، وفي النفس البشرية ، وفي الكون كله: واضحٌ ، لايحتاجَ إلى دليل ، إلا أنّ الاهتداء إلى تلك الآثار ، أو الانتباه لها ، يتوقّفُ على توفيق الله تعالى ، بل إنّ التوفيقَ نفسَه من آثارِ رحمته التي وسعتْ كلَّ شيءٍ .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤١٩).
(٢) المصدر نفسه (٢ / ٤٢٠).

فلو فكّر الإنسانُ في هذا الكونِ الفسيحِ وفي نفسِه لرجعَ من هذه الجولة الفكرية بعجائب ، واستفاد منها فوائد ، ما كان يحلُمُ بها ، ولو تأملنا هذه الآية الكريمة لرأينا أموراً يعجز الإنسان عن التعبير عنها ، قال تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦] .

ومما يؤكد أهمية هذا التوحيد هو ما تثمره أسماءُ الله وصفاتُه في قلب المؤمن من زيادةٍ في الإيمانِ ، ورسوخٍ في اليقين ، وما تجلبه له من النورِ والبصيرةِ التي تحصّنه من الشبهاتِ المضلّة والشهواتِ المحرّمة[١] .

فهذا العلم إذا رسخَ في القلب أوجبَ خشيةَ الله لا محالةَ ، فكلُّ اسمٍ من أسماء الله له تأثيرٌ في القلبِ والسلوكِ ، فإذا أدركَ القلبُ معنى الاسم ، وما يتضمنه ، واستشعر ذلك ، تجاوبَ مع هذه المعاني ، وانعكست هذه المعرفةُ على تفكيره وسلوكه .

ولكلِّ صفة عبوديةٌ خاصّةٌ ، هي من موجباتها ومقتضياتها ، فالأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضاها بثمارها من العبودية ، وهذا مطرِّدٌ في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح ، فمثلاً :

عِلْمُ العبد بتفرّد الربِّ تعالى بالضرّ والنفع ، والعطاء والمنع ، والخلق والرزق ، والإحياء والإماتة ، **يثمِرُ له** عبوديةَ التوكّل عليه باطناً ، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً .

وعلمُه بسمعه وبصره ، وعلمه أنّه لا يخفى عليه مثقالُ ذرّةٍ في السماوات ولا في الأرض ، وأنّه يعلم السر وأخفى ، ويعلم خائنةَ الأعين وما تخفي الصدور ، **يثمِرُ** له حفظَ لسانِهِ وجوارحِهِ ، وخطراتِ قلبه عن كلِّ ما لا يرضي الله ، وأن يجعلَ تعلّق هذه الأعضاء بما يحبُّه الله ويرضاه ، **فيثمر له** ذلك الحياءَ باطناً ، **ويثمِرُ له** الحياءُ اجتنابَ المحرّمات والقبائح .

ومعرفته بغناه **وجوده** وكرمه وبره ، وإحسانه ورحمته **توجب له سعةَ** الرجاء ،

---

(١) انظر : دراسات في مباحث الأسماء والصفات ص (١٤ ، ١٥) .

ويثمر له ذلك من أنواعِ العبودية[١] الظاهرةِ والباطنةِ بحسب معرفته وعلمه.

وكذلك **معرفته** بجلال الله وعزِّه **تثمر له** الخضوعَ والاستكانةَ والمحبةَ، **وتثمر له** تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها.

وكذلك **علمه** بكماله وجماله وصفاته العلى **يوجب له** محبَّةً خاصةً بمنزلة أنواع العبودية، فرجعت تلك العبوديةُ كلُّها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها[٢].

وهذه الأحوال التي تتّصف بها القلوب هي أكمل الأحوال، وأجلّ وصف يتصف به القلب وينصبغ به، ولا يزالُ العبدُ يمرّن نفسَه عليها، حتى تنجذبَ نفسُه وروحُه بدواعيه منقادةً راغبةً، وبهذه الأعمال القلبية تَكْمُلُ الأعمالُ البدنيةُ، فنسألُ الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته، والإنابة إليه، فإنّه أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين[٣].

خامساً ـ أثر الصفات الإلهية على الأخلاق:

تحدّث الشيخ عز الدين بن عبد السلام في كتابه «شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال» على صفات الله، وكيفية توحيده وتنزيهه، والوجه الأسلم في ذلك، وكيفية التخلّق بصفات الله عز وجل، فقال:

١ ـ التخلّق بالقدوس:

القدُّوس هو الطاهر من كل عيب ونقصان، **وثمرة معرفته**: التعظيمُ، والإجلالُ.

والتخلق به: بالتطهر من كلِّ حرامٍ ومكروهٍ وشبهةٍ، وفضلِ مباحٍ شاغلٍ عن مولاك.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢ / ٩٠).
(٢) مفتاح دار السعادة (٢ / ٩٠).
(٣) القواعد الحسان لتفسير القرآن للسعدي ص (١٣٠).

٢ ـ التخلّق بالسلام:

إنْ أُخذَ من **تسليمه على عبادِهِ** فعليك بإفشاء السلام ، فإنّه من أفضل خصالِ الإسلامِ.

وإنْ **أُخِذَ من السلامة من العيوبِ** ، فهو كالقدُّوس.

وإن أُخِذَ من **الذي سَلِمَ عبادُه من ظلمه** ، فليسلمِ الناسُ من غِشِّك وظُلْمِكَ وضرّك وشرِّكَ ، فإنَّ «**المسلمَ مَنْ سلمَ المسلمونَ مِنْ لسانِهِ ويدِه**»[(١)].

٣ ـ التخلّق بالإيمان: «المؤمن»:

إن أُخِذَ من **تصديقِ الله نفسَه** ، فعليك بالإيمانِ بكلِّ ما أنزله الرحمن.

وإن أُخِذَ من **أمنِ العبادَ من ظلمِهِ** ، فأظهرْ مِنْ برِّك وخيرك ما يُؤَمِّنْ الناسَ من شرِّكَ وضَيْرِكَ.

وإن أُخِذَ من **خالقِ كلِّ أَمْنٍ** ، فاسعَ لعبادِ اللهِ مِنْ كلِّ أمنٍ[(٢)].

٤ ـ التخلّق بالهيمنة:

«**المهيمن**» ، هو الشهيدُ ، فإنْ أُخِذَ من مشاهدته لعباده واطلاعه عليهم في القيامة. **فثمرة معرفته** خوفك وحياؤك من شهادته عليك إنْ عصيتَه ، ورجاؤك شهادته لكَ إنْ أطعتَه.

والتخلّق به أن تقوم بالشهادةِ في كلِّ ما نفعٍ وضرّ ، وظاهر وسرّ ، ولو على نفسِكَ أو الوالدين والأقربين.

٥ ـ التخلّق بالعزة:

«**العزيز**» ، إنْ أُخِذَ **من الغلبة** ، فهو كالقهّار ، **وثمرة معرفته**: الخوفُ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١٠) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان تفاضل الإسلام ، وأيُّ أموره أفضل (٤١).

(٢) شجرة المعارف ص (٣٩).

وإنْ أُخِذَ من **الامتناع من الضيّم** ، فلا تخلّقَ به إلا في بعض الضُيوم ، كضيم الكفّار الفجّار.

وإن أُخِذَ من **الذي يعزُّ وجودهُ مثلِه** ، فهو سالبٌ للنظير ، فلا **تخلُّقَ** به إلا بالتوحُّدِ بالطاعة والعرفان على حسب الإمكان ، بالنسبة إلى أبناء الزمان(١) .

٦ ـ التخلّق بالجبر «الجبار»:

إنْ أُخِذَ من **جبروت العَظْمِ والفقير** إذ أصلحتهما ، **فثمرت معرفته** رجاء جبره وإصلاحه. **والتخّلق به** بأن تعامل عباده بكل خير وإصلاح تقدرُ عليه، أو تصلُ إليه.

وإن **أخِذَ من العلو** فهو كالعلي ، **وثمرة معرفته** كثمرات معارف جميع الصفات.

وإن **أخذ من الإجبار** ، فهو كالقهار(٢) .

٧ ـ التخلّق بالتكبر عن الرذائل:

«المتكبر»:

إنْ أُخِذَ من **تكبره عن النقائص** فهو كالقدُّوس ، فتكبَّر عن كلِّ خلق دنيءٍ.

وإنْ جُعِلَ شاملاً لجميع الأوصاف ، **فثمرة معرفته** الإجلالُ والمهابةُ في جميع الأحوال الحادثاتِ مِنْ سائر الصفاتِ ، وكذلك العظيم والجليل والعلي والأعلى(٣) .

٨ ـ التخلّق بالحلم: «الحليم»: هو الذي لا يعجِّلُ بعقوبةِ المذنبين ، فاحلمْ عن كلِّ مَنْ آذاك وظلمك وسبّك ، وشتمك ، فإنَّ مولاك صبورٌ حليمٌ ، بَرٌّ كريمٌ ، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى: ٢٥] .

٩ ـ التخلّق بالصبر: «الصبور»: هو الذي يعامِلُ عبادهَ معاملةَ الصابرين ،

---

(١) المصدر نفسه ص (٣٩).
(٢) شجرة المعارف ص (٣٩).
(٣) المصدر نفسه ص (٣٩).

فعليك بالصبر على أذية المؤذين ، وإساءة المسيئين ، فإنّ الله يحبُّ الصابرين[١] .

١٠ ـ التخلّق بالإعزاز: «المعز»: خالق العِزُّ ، **وثمرةُ معرفته** الطمَعُ في إعزازه بالمعارف والطاعات ، **والتخلق به** بإعزاز الدين ، ومن تبعه من عباد الله المؤمنين .

١١ ـ التخلّق بالإذلال: «المذل» خالِقُ الذُّل ، **وثمرة معرفته** خوفُ الإذلالِ بالمعاصي والمخالفات ، **والمعاملة به** بإذلالِ الباطلِ وأشياعِهِ ، وإخمالِ العُدوان وأتباعه[٢] .

١٢ ـ التخّق بالانتقام: «المنتقم»: هو المعذِّبُ لما يشاء من عباده عَدْلاً ، **وثمرة معرفته**: الخوفُ من انتقامه . **والتخلق به** لمن ابتُلي بشيءٍ من الولايات بالانتقامِ من الجنَاةِ بالحدود والتعزيزات والعقوبات المشروعات[٣] .

١٣ ـ التخلّق باللطف: «اللطيف» إن أُخِذَ من معرفة الدقائق ، فثمرة معرفته خوفك ومهابتك وحياؤك من معرفته بدقائق أحوالك ، وخفايا أقوالك وأعمالك ، إذ لا يعزُبُ عن خالق الأشياء مثقالُ ذرّةٍ في الأرض ولا في السماء ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] .

١٤ ـ الخلّق بالشكر: «الشكور»: إن أُخِذَ **من ثنائه على عباده ، فثمرة معرفته** رجاؤك الدخولَ في مدحته بطاعته ومعرفته ، **والتخلق به** بشكر مولاك ، وشكر أبويك ، وشكر كلِّ مَنْ أحسنَ إليك[٤] ، «**من لا يشكرِ الناسَ لا يشكرِ الله**»[٥] .

١٥ ـ التخلّق بالحفظ: «الحفيظ»:

إن أُخِذَ من العلم ، فقد سبق .

---

(١) المصدر نفسه ص (٣٩) .

(٢) المصدر نفسه ص (٤١) .

(٣) المصدر نفسه ص (٤٣) .

(٤) شجرة المعارف والأحوال ص (٤٥) .

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه ، كتاب: البر والصلة عن رسول الله ﷺ ، باب: ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح ، وأخرجه أبو داود بلفظ «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» ، كتاب: الأدب ، باب في شكر المعروف (٤٨١١) .

وإن أخذ من **ضبط الأشياء وحفظها** ، **فثمرة معرفته**: رجاؤك حفظه في أُولاك وأُخراك.

والتخلّق به بحفظ ما أمرتَ به من الطاعات والأمانات ، فإنَّ الله قد مدح الحافظين لحدوده ، وبشَّرَهُم بإنجاز وعودِه ، فقال: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٣٢].

١٦ ـ التخَلُّق بالتقديم والتأخير: «المقِّدم والمؤخِّر» ، ثمرة معرفتها المهابة والإجلال ، والاعتماد عليه في تقديمه وتأخيره ، ورجاء أن يُقدِّمَك بطاعته ، وخوف أن يؤخِّرك بمعصيته ، **والتخلق بهما**: بتقديم ما أُمِرَتَ بتقديمه ، وتأخير ما أُمِرَت بتأخيره ، بأن تقدم الأماثل على الأراذل ، وأن تقدِّم أوجبَ الطاعاتِ على واجبها ، وأفضلها على فاضلها ، ومضيَّقَها على موسَّعها ، وبأنْ تقدِّمَ القُربات والطاعات إلى أوائل الأوقات ، فإنَّ الله مدح الذين يسارعون في الخيرات[1].

١٧ ـ التخلّق بالبَرِّ: (البَّر): هو المنعم ، **وثمرة معرفته** رجاءُ أنواع برّه ، **والتخلق به** بأنْ تبَرَ كُلَّ مَنْ تقدِرُ على برّه بأحبِّ أموالك إليك ، وأنفسِها لديك ، فإنَّ مولاك يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

١٨ ـ التخلّق بالتوبة: «التّواب»:

إن جُعِلَ بمعنى **الموفِّق للتوبة** ، **فثمرة معرفته**: رجاءُ توبته عليك ، **والتخلق به**: بأن تَحُثَّ المسيءَ على التوبة ، وتحرِّضهُ على الأوْبَة.

وإن جُعِلَ بمعنى قابل التوبة ، فاقبل عذر مَنْ أساءَ إليك ، ونَدِمَ على جرأته عليك[2].

١٩ ـ التخلّق بمعنى المغني: والتخلّقُ به بأن تُغني كلَّ محتاج بما تقدر عليه من عِلْمٍ وغيره ، فتذكِّرَ الغافل ، وتُعلِّمَ الجاهل ، وتُقيمَ المائل ، وتُغنيَ العائلَ.

٢٠ ـ التخلّق بالضُّر والنَّفع: «الضار والنافع» ثمرة معرفتهما: خوفُ

(١) شجرة المعارف ص (٤٥).
(٢) شجرة المعارف ص (٤٧).

الضَّرر ، ورجاءُ النفع ، **والتخلق بهما**: بنفعِ كلِّ مَنْ أُمرتَ بنفعِهِ ، وضرِّ كلِّ مَنْ أُمرت بضّره بحدٍّ أو قتلٍ أو غيره ، والخَلقُ عيالُ الله ، فأحبّهم إليه أنفعُهم لعياله ، فعليكَ ببذل المنافع لكلِّ دانٍ وشاسعٍ(١) .

٢١ ـ التخلّق بهداية الضال: «النورُ» الهادي ، **ثمرة معرفته**: رجاؤك أن ينوِّر جَنَانك بمعرفته ، ويزيّنَ أركانك بآثار هدايته ، **والتخلّق به**: بأن تكون نوراً من أنوار الله ، هادياً إلى صراطِ الله. «**فوالله لأن يهدي الله بكَ رجلًا واحداً خيرٌ لك مِنْ أن يكونَ لكَ حُمْرُ النَّعم**»(٢) .

٢٢ ـ التخلّق بالقبض والبسط: «القابض الباسط»: ثمرة معرفتهما: الخوفُ من قبضِ منافع الدنيا والآخرة ، ورجاءُ بسطِ الخيرات العاجلة والآجلة.

والتخلّقُ بالبسط: بأنْ تسبطَ برّك ، ومعروفك على كلِّ محتاجٍ ، حتى على الدواب والكلاب والذرّ ، إذ «**في كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجرٌ**»(٣) .

والتخلق بالقبض بأن تقبِضَ عن كلِّ أحدٍ ما ليس له أهلاً ، من مالٍ ، وولايةٍ ، وعلمٍ ، وحكمةٍ ، فلا تؤتوا السفهاء أموالكم فيتلفوها(٤) .

٢٣ ـ التخلّق ببذل الهبات: «الوهّاب»: ثمرة معرفته: رجاءُ أنواع هباته وصِلاته ، **والتخلّق** به: بكثرة الهباتِ والصلاتِ ، مقدِّماً للآباء والأمهات ، والبنين والبنات.

٢٤ ـ التخلّق بالجود والكرم: «الجواد الكريم» ثمرةُ معرفتهما: الطمعُ في آثار جوده وكرمه ، **والتخلق بهما**: لمن أرادَ الوصولَ إليه بأن يجودَ بكلِّ ما يقدِرُ عليه مِنْ مالٍ ، وجاهٍ ، وعلمٍ ، وحكمةٍ ، وبرٍّ ، ومساعدةٍ.

---

(١) المصدر نفسه ص (٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: المناقب ، باب: مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي (٣٤٩٨). ومسلم في صحيحه كتاب: فضائل الصحابة ، باب: من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: المساقاة ، باب: فضل سقي الماء (٢٢٣٤) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: السلام ، باب: فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٤).

(٤) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال ص (٤٩).

٢٥ ـ التخلّق بالإجابة: «المجيب» ثمرةُ معرفته: رجاءُ إجابةِ دعائك، لعلمه بافتقارك إليه، واعتمادك عليه، وأنّه سامعٌ لدعائك، عالمٌ ببلائك، خابرٌ لسرّائِك وضرّائِك، **والتخلّق به**: بإجابة مولاك فيما دعاك إليه من قُرُباته، وبإجابة كلِّ داعٍ إلى ما يُرضي مولاك في طاعاته وعباداته(١).

٢٦ ـ التخلّق بالمجد: «المجيد» الذي كثر شرفُه، وتمّ كمالهُ وجلالُه في ذاته وصفاته، **وثمرة معرفته**: المهابة والإجلال. **والتخلق به**: يمكن التخلّقُ به مما سبق ذكره، فإنه شاملٌ لجميعِ الصفات، كما شملها ذو الجلال والإكرام.

فهذه إشاراتٌ إلى كيفية التخلّق بالصّفات، ولا يحصل التخلّق بالصفات إلا لِمَنْ واظبَ على التحديق إليها، والإقبال عليها، ولذلك أمرنا الله تعالى بإكثار ذكره لنُلابس ما يثمره ذكره من الأحوال والأقوال والأعمال(٢).

سادساً ـ وصف الله نفسه بالمغفرة لا يعني الإغراء بالمعاصي:

وصف الله سبحانه نفسَه بأنه غفّار وغفور للذنوب والخطايا والسيئات لصغيرها وكبيرها، وحتى الشرك إذا تاب منه الإنسان، واستغفر ربه، قِبل الله توبته، وغفر له ذنبه، قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] ومهما كبرتْ ذنوبُ هذا الإنسان فإنَّ مغفرة اللهِ ورحمتَه أعظمُ من ذنوبه التي ارتكبها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢].

وقد تكفّل الله سبحانه بالمغفرة لمن تاب وآمن، قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] ومن فضله وجوده وكرمه تعهده أن يبدِّلَ سيئاتِ المذنبين حسناتٍ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦].

ولكن لا يجوزُ للمسلم **أن يُسْرِفَ** في الخطايا والمعاصي والفواحش **بحجّة أنّ الله غفور رحيم**، فالمغفرةُ إنّما تكون للتائبين الأوابين، قال تعالى: ﴿ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥] وقال سبحانه تعالى: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه ص (٥٠).

﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: ١١] فاشترط تبدُّلَ الحال من عمل المعاصي والسيئات إلى الصالحات والحسنات ، لكي تتحقّقَ المغفرةُ والرحمةُ ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] يبين الله أنَّ المقيمَ على الشرك حتى الوفاة لا غفرانَ لذنوبه ، لأنّه لم يبدّل حسناً بعد سوءٍ ، وكذلك قوله تعالى عن المنافقين : ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] لأنهم لم يخلصوا دينهم لله ، ولم يصلحوا من أحوالهم.

وأمّا إذا حصل ذلك فإنَّ المغفرةَ تحصلُ لهم مع المؤمنين ، قال تعالى : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦] فلابدَّ من الأخذِ بالأسبابِ المؤدية إلى المغفرة ، وأمّا إنْ مات وهو مقيمٌ على الكبائر مِنْ غيرِ أن يتوبَ ، فإنّه ليسَ له عهدٌ عند الله بالمغفرة والرحمة ، بل إنْ شاءَ غفر له وعفا عنه لفضله ، وإن شاء عذبه في النار لعدله ، ثم يخرجه برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ، ثم يدخله الجنَّة ، وذلك للموحّدين خاصّةً[1].

* * *

---

(١) النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ص (١٥٠ ، ١٥١) شرح الطحاوية ص (٤١٦ ـ ٤٢١).

المبحث الخامس

توحيد العبادة

أولاً ـ تعريفه ومكانته الخاصة .

ثانياً ـ الطريقة القرآنية في الدعوة إلى توحيد العبادة .

ثالثاً ـ معنى العبادة وشروط قبولها .

رابعاً ـ حقيقة العبادة .

خامساً ـ أنواع العبادة .

سادساً ـ أقسام العبادات .

سابعاً ـ أفضل العبادات .

ثامناً ـ تحكيم الشريعة ، وارتباطها بالتوحيد .

تاسعاً ـ الآثار الحسنة للحكم بما أنزل الله .

عاشراً ـ الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله .

حادي عشر ـ حماية الرسول ﷺ لتوحيد العبادة .

* * *

المبحث الخامس

توحيد العبادة

أولاً ـ تعريفه ومكانته خاصة[1]؛

هو إفرادُ الله عزّ وجل بجميع أنواع العبادات ، وإخلاصُهَا له وحده لا شريك له ، ظاهراً وباطناً ، وهو توحيدُ الله تعالى بأفعال العباد ، ويسمّى ايضاً **توحيد الأولوهية** ، لأنّ **العبودية والألوهية بمعنًى واحداً** ، إذ معنى الإله: المعبود[2] ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين[3] .

وهذا التوحيدُ أعظمُ أنواعِ التوحيدِ وأهمُّها ، والمتضمِّنُ لها جميعاً ، **ولا يصيرُ العبدُ مؤمناً إلا بتحقيقه** ، وهو الذي لأجله خلقَ الله عبادَه ، وأنزلَ كتبه ، وبعثَ أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام[4] ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [النحل : ٣٦] وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة : ٥] .

---

(١) المنهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ص (١٥٠ ، ١٥١) ، شرح الطحاوية ص (٤١٦ ـ ٤٢١).
(٢) حماية الرسول حمى التوحيد ص (٢٣٤).
(٣) دعوة التوحيد ، خليل الهراس ص (٣٧) ، وتفسير الطبري (١/ ١٢٣) وقال أحمد شاكر: إسناده ضعيف.
(٤) حماية الرسول حمى التوحيد ص (٢٣٤).

وهذا التوحيدُ هو معنى قول: **(لا إله إلا الله)** والتي معناها: **لا معبود بحقٍّ إلا الله**(١).

ومما يدلُّ على أهمية توحيد العبادة أنّه هو التوحيدُ الذي أَرْسَلَ الله به الرُّسلَ من أولهم إلى آخرهم، **واتفقتْ دعوةُ الرسلِ من أوّل رسولٍ بعثه الله إلى خاتمهم محمد** ﷺ، اتفقتْ دعوتهم إلى البَدْءِ بدعوة أقوامهم إلى **إخلاص العبادةِ لله، ونبذ الشرك بكل صوره وأسبابه ووسائله المؤدية إليه**، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى عن نبيّه **نوح عليه السلام** أنّه قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال عن خليله **إبراهيم عليه السلام** أنّه قال لقومه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وقال تعالى عن **كليمه موسى عليه السلام** أنّه قال لقومه: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

وقال تعالى عن **المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام** أنّه قال لقومه: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦٣ ـ ٦٤].

وأول ما بدأَ به خاتمهم محمّد ﷺ دعوتَه إلى الله عز وجل **دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله، ونبذ الشرك بأنواعه ووسائله وأسبابه بالقول والفعل**، فحمى رسول الله ﷺ **حمى التوحيد**، ودعا إليه، وأنذر الشركَ غايةَ الإنذار، واستمرّ على هذا المنهج حتى لحقَ بالرفيق الأعلى ﷺ.

واقتدى به أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، وكلُّ مَنْ اتّبع طريقته، واستنّ بسنته، فطريقتُه في الدعوة هي: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] وفي هذه الآية أمرَ اللهُ رسولَه ﷺ أن يخبِرَ الناسَ أنّ هذه سبيلُه أي: طريقتُه ومسلكُه وسنّته، وهي

---

(١) منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل (١ / ٢٦١).

الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا اله وحدَه لا شريكَ له ، يدعو بها على بصيرةٍ من ذلك ويقين وبرهان ، وكلُّ من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسولُ الله ﷺ على بصيرةٍ وبرهانٍ عقلي وشرعي[1] .

وقد بيّنَ رسولُ الله ﷺ أنَّ **توحيد العبادة** أساسُ الإسلام ، وأنّه أول ما يبدأ به في الدعوة إلى الله ، ويدل على ذلك رسائِله ﷺ ، ومبايعته ، وجهاده ، ووصاياه لقواده ، وغير ذلك من الأمور .

ومن الأمثلة الدالة على هذا :

١ ـ إرساله ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن لدعوة قوم من أهل الكتاب إلى توحيد الله عز وجل ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رسولَ الله ﷺ لمّا بعثَ معاذاً إلى اليمن قال له : «**إنّكَ تأتي قوماً مِنْ أهلِ الكتابِ ، فليكنْ أوّلُ ما تدعوهم إليه شهادةَ أنْ لا إلهَ إلا الله**» ، وفي رواية : «**إلى أن يوحِّدوا الله ، فإنْ هُمْ أطاعوكَ على ذلك ، فأَعْلِمْهم أنَّ الله افترضَ عليهم خمس صلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ**»[2] .

فبيّن له رسول الله ﷺ **أنَّ أولَ ما يَبْدَأُ به في الدعوة إلى الله تعالى شهادةُ أن لا إله إلا الله ، وإخلاصُ العبادةِ له جلا وعلا**[3] .

٢ ـ وكذلك أمره ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه يوم خيبر بدعوة اليهود إلى التوحيد أولاً : حيث أعطاه ﷺ الرايةَ ، وقال : «**انفذْ على رِسْلِكَ ، حتّى تنزلَ بساحتِهم ، ثم ادعُهم إلى الإسلام ، وأخبِرْهُم بما يجبُ عليهم مِنْ حقّ الله تعالى فيه ، فواللهِ لأنْ يهدِيَ اللهُ بكَ رَجُلاً واحداً خيرٌ لكَ من أن يكون لك حُمْرُ النّعم**»[4]

---

(١) تفسير ابن كثير (٢ / ٥١٣ ـ ٥١٤) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : المغازي ، باب : بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع (٤٠٩٠) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١٩) .

(٣) منهج السلف والمتكلمين (١ / ٢٦٧) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : المناقب ، باب : مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن رضي الله عنه (٣٧٠١) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب : فضائل الصحابة ، باب من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٦) .

وفي رواية أخرى: فسار عليٌّ رضي الله عنه، ثم وقفَ، ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله! على ماذا أقاتل الناس؟ فقال ﷺ: **«قاتلهم حتّى يشهدوا أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ، فإذا فعلوا ذلك، فقد منعوا مِنْكَ دماءَهم وأموالَهم إلا بحقِّها وحسابُهم على الله»**(١).

٣ ـ وكذلك مبايعاته ﷺ تدلُّ على أنَّ أولَ ما يُبْدَأُ به في الدعوة إلى الله إخلاصُ العبادةِ لله الذي هو التوحيدُ:

ومن الأمثلة على ذلك حديثُ عبادةَ بن الصامت رضي الله عنه قال: قال لنا رسولُ اللهِ ﷺ ونحنُ في مجلسٍ: **«تبايعوني على أَنْ لا تشركوا باللهِ شيئاً»**(٢): **وحديثُ أم عطية رضي الله عنها قالت: بايعنا** رسولَ اللهِ ﷺ فقرأ علينا: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الممتحنة: ١٢](٣).

٤ ـ وكذلك جهادُ النبيِّ ﷺ وقتالُه، إنّما كان مِنْ أجلِ دعوةِ الناسِ إلى إخلاصِ العبادةِ لله عز ودجل، والبراءةِ من الشركِ وأهلِهِ، والدفاع عن رايةِ التوحيدِ: فعن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«أُمِرْتُ أن أقاتلَ الناسَ حتّى يشهدوا أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ، ويقيموا الصلاةَ، ويؤتوا الزكاةَ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقِّ الإسلامِ، وحسابهم على الله عز وجل»**(٤).

ثانياً: الطريقةُ القرآنيّة في الدعوةِ إلى توحيد العبادة:

تعددت الأساليب القرآنية في الدعوة إلى توحيد العبادة:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب (٢٠٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأحكام، باب: بيعة النساء (٦٧٨٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الحدود: باب: الحدود كفارات لأهلها (١٧٠٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ [الممتحنة: ١٢] (٤٦١٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] (٢٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله... (٢٢).

١ ـ منها بيان آيات ربوبيته سبحانه التي يراها الناس ويقرون بها ، وأنّه سبحانه هو خالقها ، ثم يختمها بالدعوة إلى إفراده سبحانه بالعبادة ، فكما أنّه المتفرّد بهذا الخلق ، فيجب أن يكونَ وحدَه سبحانه المتفرّد بالعبادة ، لا شريك له ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢] وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٤] ، يقول الله تعالى في آخرِ كلِّ آية ﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ أي أإله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهامُ إنكارٍ ، يتضمَّن نفيَ ذلك ، وهم كانوا مقّرين بأنّه لم يفعل ذلك غيرُ الله[(١)].

٢ ـ ومنها شهادةُ الله سبحانه على توحيدِ العبادة: فقد شهد الله لنفسهِ بهذا التوحيدِ ، وشهدتْ له به ملائكته وأنبياؤه ورسلُه ، قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ [آل عمران: ١٨ ـ ١٩] .

٣ ـ ومنها بيانُ عجزِ الآلهة التي يدعونها من دونِ الله تعالى: وأنّها لا تملكُ لنفسِها كما لا تملك لغيرها نفعاً ولا ضراً من دون الله ، وجاء ذلك في آياتٍ كثيرة من كتابِ الله ، فعلى سبيل المثال ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن

(١) المنحة الإلهية في تهذيب شرح الطحاوية ص (٥٥ ، ٥٦).

يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]. والآياتُ في هذا كثيرة تبيّن عجزَ هذه الآلهة التي اتخذوها من دون الله تعالى، وأنها لا تملِكُ لنفسِها ولا لغيرِها نفعاً ولا ضراً.

٤ ـ ومنها بيان ضلال عبّاد هذه الآلهة والتنديد بهم، والتشنيع عليهم، ووصفهم بالغي والعمى، والبعد عن الهدى والرشاد: قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦] وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣] والآياتُ في هذا البابِ كثيرةٌ.

٥ ـ ومنها بيان ما يقع يوم القيامة بين هؤلاء المشركين وآلهتهم من براءة بعضهم من بعض، وتخليهم عن عابديهم، وتنكرهم لاتباعهم، في حالٍ هُمْ أحوجُ ما يكونون إلى من يشفع لهم، ويدافع عنهم: ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۝٢٨ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس: ٢٨ ـ ٢٩].

٦ ـ ومنها ما جاء في قصص الأنبياء والرسل ﷺ في دعوتهم أممهم إلى توحيدِ اللهِ، وإفرادِهِ وحدَه بالعبادة، وكان ذلك مفتاحَ دعوة كلِّ نبي ورسولٍ، وما جرى بينهم وبين أقوامهم لأجله من خصومة، وما دارت بسببه من معارك عظيمة بالبيان والسنان، وما كان مِنْ ذلّةٍ وهلاكٍ لأعداء الله وأعداءِ رسلِهِ، ونصرٍ ومنعةٍ وغلبةٍ للرسل وأتباعهم، وتلك سنةُ اللهِ في خلقه: وهو الذي يقول بعد ما قصَّ دعوةَ عددٍ من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣] والآياتُ عن قصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم كثيرةٌ جداً، نكتفي بمثالٍ واحدٍ لذلك وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم

بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟
إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾
قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا
كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا
نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ
فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ
خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ٩ ـ ١٤] .

والحديثُ عن قصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم في دعوتهم يوضّحُ أنَّ توحيدَ الله وإفرادَه بالعبادةِ وحدَه ، لا شريكَ له ، هو المهمّةُ الأولى للرسل عليهم الصلاة والسلام .

ومما تقدّم يتبيّن أهمية توحيد العبادة المتضمِّنَ لأنواع التوحيد جميعاً ، والمطلوبِ من الناس كافة(١) .

ثالثاً ـ معنى العبادة وشروط قبولها:

أ ـ معنى العبادة:

مدارُ العبادةِ في **اللغة** و**الشرع** على التذلّلِ والخضوعِ والانقيادِ .

والعبادةُ في **اللغة** من الذلة ، يقال: طريقٌ معبّدٌ ، وبعيرٌ معبّد ، أي: مذّلل .

وفي **الشرع** عبارةٌ عمّا يجمعُ كمالَ المحبّةِ ، والخضوعِ ، والخوفِ(٢) .

والعبادة في تعريفها الشامل هي: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمالِ الباطنةِ والظاهرةِ ، فالصلاةُ ، والزكاةُ ، والصيامُ ، والحج ، وصدقُ الحديث ، وأداءُ الأمانة ، وبرُّ الوالدين ، وصلةُ الأرحام ، والوفاءُ بالعهود ، والأمرُ بالمعروف ، والنهيُ عن المنكر ، وجهادُ الكفّارِ والمنافقينِ ، والإحسانُ إلى الجار واليتيمِ والمسكينِ وابنِ السبيل والمملوكِ من الآدميين والبهائمِ ، والدعاءِ ، والذكرِ ،

(١) حماية الرسول حمى التوحيد ص (٢٤٩) .
(٢) تفسير ابن كثير (١ / ٢٦) ، تفسير الطبري (١ / ١٦٠) .

وقراءةِ القرآن الكريم ، وأمثال ذلك هي من العبادة ، وكذلك حبُّ اللهِ ورسوله ﷺ ، وخشية الله ، والإنابة إليه ، وإخلاصُ الدين له ، والصبرُ لحكمه ، والشكرُ لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكلُ عليه ، والرجاءُ لرحمته ، والخوفُ من عذابه ، وأمثال ذلك هي من العبادة لله.

وذلك **أنَّ العبادةَ هي الغايةُ المحبوبةُ له ، والمرضيةُ له ، التي خَلقَ الخلقَ لها** ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] وبها أرسل جميع الرسل[١].

والعبادةُ تتضمّنُ كمالَ الحُبِّ ونهايته ، وكمالَ الذُّلِّ ونهايته ، فالمحبوبُ الذي لا يعظَّمُ ، ولا يُذَلُّ له ، لا يكون معبوداً ، والمعظَّم الذي لا يُحَبُّ لا يكون معبوداً[٢].

ب ـ شروط قبول العبادة:

الشرط الأول ـ الإخلاص: وهذا الشرطُ متعلِّقٌ بالإرادةِ والقصدِ والنيّة ، **والمقصود به إفرادُ الحقِّ سبحانه وتعالى بالقصد والطاعة**[٣].

والنيةُ تقع في كلام العلماء بمعنيين: **أحداهما:** تمييزُ العبادات بعضِها عن بعضٍ ، كتمييز صلاةِ الظهرِ عن صلاة العصر مثلاً. إلى أنْ قال: **والمعنى الثاني:** بمعنى تمييز المقصود بالعملِ: هل هو لله وحده لا شريك له ، أم لله وغيره؟ وهذه النيةُ هي التي يتكلّم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه[٤].

والأدلةُ على هذا الأصل في القرآن والسنة وكلام علماءِ الأمة ومن سارَ على نهجهم كثيرةٌ ، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢ ـ ٣] أي لا يقبلُ الله من العملِ إلا ما أخلصَ فيه العاملُ للهِ وحده ، لا شريك له[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠ / ١٤٩ ـ ١٥٠).
(٢) التحفة العراقية ص (٦٣) ، مجموع الفتاوى (٢٠ / ٦).
(٣) مدارج السالكين (٢ / ٩١).
(٤) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص(٨).
(٥) تفسير ابن كثير (٣ / ١٥٨).

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] .

ومن الأحاديث النبوية قوله ﷺ: «**إنمّا الأعمالُ بالنيّاتِ ، وإنمّا لكلِّ امرىءٍ ما نوى ، فمن كانتْ هجرتهُ إلى اللهِ ورسولِهِ ، فهجرتُه إلى اللهِ ورسولِهِ ، ومَنْ كانتْ هجرتُه لدنيا يصيبها ، أو امرأةٍ ينكحُها فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليه**»[١] .

وفي حديث أبي هريرة قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: «**إنَّ أوَّل الناسِ يُقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استشهد ، فأتي به ، فعرّفه نعمه فعرفها ، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيكَ حتى استشهدتُ ، قال: كذبتَ ، ولكنّكَ قاتلتَ لأن يقال جريءٌ فقد قيل. ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقي في النار.**

ورجلٌ تعلّمَ العلمَ ، وعلّمه ، وقرأ القرآن ، فأتي به ، فعرّفه نعمَه فعرفها ، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلّمتُ العلمَ وعلَّمتُه ، وقرأتُ فيكَ القرآن ، قال: كذبتَ ، ولكنّك تعلّمتَ العلمَ ليقالَ: عالمٌ ، وقرأتَ القرآنَ ليقالَ: هو قارئٌ ، فقد قيل. ثم أُمِرَ به ، فسُحِبَ على وجهه ، حتى أُلقي في النار.

ورجلٌ وسّعَ الله عليه ، وأعطاه من أصنافِ المالِ كله ، فأُتي به ، فعرّفه نعمَه فعرفها ، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ مِنْ سبيلٍ تحبُّ أن ينفقَ فيها إلا أنفقتُ فيها لك ، قال: كذبتَ ، ولكنّك فعلتَ ليقالَ: هو جوادٌ ، وقد قيل ، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه ، حتى ألقي في النار»[٢] .

الشرط الثاني الموافقة للشرع:

وأما الأدلة من القرآن فكثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب بدء الوحي (١). وأخرجه أيضاً في كتاب: الإيمان ، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية الحسنة ، وأن لكل امرىء ما نوى (٥٤) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإمارة ، باب: قوله: إنما الأعمال بالنية ، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره (١٩٠٧) ولفظه (بالنية) بدل (بالنيات).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإمارة ، باب: من قال للرياء والسمعة استحق النار (١٩٠٥).

سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

أما الأدلة بين السنة النبوية فكثيرة منها:

وقوله ﷺ: «**تركتُ فيكم أمرينِ لن تضلّوا ما تمسّكتُم بهما، كتابَ الله وسنّةَ رسولِه**»(١). وقوله ﷺ: «**مَنْ أحدثَ في أمرِنا هذا ما ليسَ مِنْهُ فهو رَدٌّ**»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**لقد تركتُكم على مِثْلِ البيضاءِ، ليلِها كنهارِها، لا يزيغُ عنها إلاّ هالكٌ**»(٣).

وعن مطرّف بن عبد الله يقول: سمعتُ مالكَ بنَ أنسٍ إذا ذُكِرَ عنده الزائغين في الدين يقول: قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: سَنَّ رسولُ اللهِ ﷺ وولاةُ الأمر بعدَه سُنناً، الأخذُ بها اتّباعٌ لكتابِ اللهِ عزّ وجلّ، واستكمالٌ لطاعةِ اللهِ عزّ وجلّ، وقوةٌ على دينِ الله تبارك وتعالى، ليسَ لأحدٍ مِنَ الخَلْقِ تغييرُها ولا تبديلُها، ولا النظرُ في شيءٍ خلافها، مَنِ اهتدى بها فهو مهتدٍ، ومن استنصرَ بها فهو منصورٌ، ومن تركَها واتّبعَ غيرَ سبيلِ المؤمنين ولاّه اللهُ تعالى ما تولّى، وأصلاه جهنّم، وساءت مصيراً(٤).

ومما روي عن الفُضيل بن عياض أنّه تلا قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [تبارك: ٢] فقال: أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إذا

---

(١) أخرجه مالك في موطئه بلاغاً، كتاب: الجامع، باب: النهي عن القول بالقدر (١٦٦١). قال الألباني في مشكاة المصابيح (١٨٦): حسن.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (١٧١٨). وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور. فالصلح مردود (٢٥٥٠) بلفظ: «ما ليس فيه».

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة (٤٨) باب: ذكر قول النبي ﷺ تركتكم على مثل البيضاء. قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٥٩): إسناد حسن. وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: المقدمة، باب: اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (٤٤) بلفظ: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي لا هالك». وأخرجه ابن ماجه في سننه (٥) بلفظ: «لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء» قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٢٨): حسن.

(٤) الشريعة للآجري ص (٤٨).

كان العملُ خالصاً ولم يكن صواباً ، لم يُقْبَلْ ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقْبَلْ ، حتى يكونَ خالصاً صواباً ، والخالصُ إذا كان لله عزّ وجلّ ، والصوابُ إذا كان على السنّة[١] .

وبعد ذكر شَرْطَي العبادةِ المقبولةِ عند الله سبحانه وتعالى يتبيّنُ أنَّ دينَ الإسلام مبنيٌّ على أصلين :

الأصل الأول : أن نعبد الله وحده لا شريك له .

والأصل الثاني : أن نعبده بما شرع من الدين ، وهو ما أمرت به الرسل[٢] .

إنّ الغاية من خلق الإنسانِ وكتابةِ الموتِ والحياةِ عليه واضحٌ في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [تبارك : ٢] **والأحسنُ عملًا يتضمّن أمرين : كما فسر ذلك الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ : عندما قال : أحسنه أي : أخلصَه وأصوبَه**[٣] . **فأخلصه :** هو «**لا إله إلا الله**» ، **وأصوبه :** هو «**محمد رسول الله**» ، وهو الذي أشارت إليه سورةُ الفاتحة ـ أم القرآن الكريم ـ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦ ـ ٧] . والذين أنعمَ اللهُ عليهم هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون ، ومنهم الرسول الكريم ﷺ وصحابته ـ رضوان الله عليهم ـ والذين ساروا على هذا **الصِّرَاطَ المُستَقِيم** أي : الصوابِ الموصلِ للغاية ، وهذا الطريقُ وسطٌ بين طرفين[٤] .

رابعاً ـ حقيقة العبادة:

إنّ دائرةَ العبادةَ التي خلق الله لها الإنسان ، وجعلها غايته في الحياة ، ومهمته في الأرض دائرةٌ رحبةٌ واسعةٌ ، إنها تشمل شؤون الإنسان كلها ، وتستوعبُ حياته جميعاً ، وتستغرقُ مناشطه ، وأعماله كافة[٥] ، ومن التعريف السابق للعبادة

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٨٩) .
(٢) مجموع الفتاوى (١ / ١٨٩) .
(٣) تفسير البغوي ، معالم التنزيل (٤ / ٢٦٩) .
(٤) الوسطية في القرآن الكريم ص (٣٨٩) .
(٥) العبادة في الإسلام للقرضاوي ص (٥٣) .

ـ عندما ذكرنا بأنّه: **اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة** ـ لا يمكنُ أن يخرجَ شيءٌ من نشاطات الإنسان وأعماله، سواء أكان ذلك في العباداتِ المحضة، أو في المعاملاتِ المشروعة، أو في العاداتِ التي طُبِعَ الإنسانُ على فعلها من دائرة العبادة.

وهنا ينبغي لنا الإشارةُ إلى **أنَّ الأصلَ في العباداتِ المحضةِ المنعُ، حتى يردَ ما يدلُّ على مشروعيتها، وأنّ الأصلَ في العاداتِ العفوُ، حتى يردَ ما يدلُّ على منعها**، وذلك مبني على أنّ تصرّفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان: **عباداتٌ** يَصْلُحُ بها دينه، **وعاداتٌ** يحتاجون إليها في دنياهم، فباستقراء أصولِ الشريعة نعلمُ أنَّ **العباداتِ** التي أوجبها الله أو أحبَّها **لا يثبتُ الأمرُ بها إلّا بالشرع وحده**.

وأمّا **العاداتُ**: فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، **والأصلُ فيها عدم الحظر**، فلا يحظر منها إلّا ما حظره الله سبحانه وتعالى، وذلك لأنّ الأمرَ والنهيَ هنا شرعُ الله.

والعبادةُ لا بدَّ أن يكونَ مأموراً بها[١]، فما لم يثبتْ من العباداتِ أنّه مأمور به، كيف يحكم عليه بأنه عبادة؟ وما لم يثبت من العبادات أنّه منهيٌّ عنه كيف يحكم عليه أنه محظور؟

والعادات الأصلُ فيها العفوُ، ولا يُحْظرُ منها إلّا ما حرّم الله[٢].

وهذا التقسيم في الحظر والإباحة لا يخرِجُ شيئاً من أفعال الإنسان العادية من دائرةِ العبادةِ لله، ولكنّ ذلك يختلِفُ في درجته ما بينَ عبادةٍ محضةٍ، وعادةٍ مَشُوْبَةٍ بالعبادة، وعادةٍ تتحوَّل بالنيةِ والقصدِ إلى عبادةٍ، لأنَّ المباحاتِ يؤجَرُ عليها بالنيّةِ والقصدِ الحسنِ، إذا صارت وسائلَ للمقاصد الواجبة، أو المندوبة، أو تكميلاً لشيءٍ منها[٣]، قال النووي في شرحه لحديث «**وفي بِضعِ أحَدِكُم**

---

(١) الوسطية في القرآن الكريم ص (٣٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٩/ ١١٦، ١١٧).

(٣) حقيقة البدعة وأحكامها للغامدي (١/ ١٩).

صدقةٌ»[١]: وفي هذا دليلٌ على أنَّ المباحاتِ تصيرُ طاعاتٍ بالنّيةِ الصادقة[٢].

ومن ذلك يتّضح: **أنَّ الدِّينَ كلَّه داخلٌ في العبادةِ، والدَّينُ منهجُ الله، جاءَ ليسعَ الحياةَ كلَّها، وينظِّمَ جميعَ أمورِها من أدبِ الأكلِ والشربِ وقضاءِ الحاجةِ إلى بناءِ الدولةِ، وسياسةِ المالِ، وشؤونِ المعاملاتِ والعقوباتِ، وأصولِ العلاقاتِ الدوليةِ في السلمِ والحرب.**

إنَّ الشعائرَ التعبّدية من صلاةٍ، وصومٍ، وزكاةٍ، لها أهميتُها ومكانتُها، ولكنَّها ليست العبادةَ كلَّها، بل هي جزءٌ من العبادةِ التي يريدُها الله تعالى.

إنّ مقتضى العبادةِ المطالبِ بها الإنسانُ أن يجعل المسلمُ أقوالَه وأفعالَه وتصرفاتِه وسلوكَه وعلاقاتِه مع الناس وفقَ المناهجِ والأوضاعِ التي جاءتْ بها الشريعةُ الإسلاميةُ، يفعلُ ذلك طاعةً لله، واستسلاماً لأمره[٣].

والدليل على المفهومِ الشاملِ للعبادةِ الكتابُ والسنةُ وفعلُ الصحابةِ رضوان الله عليهم.

فأمّا القرآنُ الكريمُ فقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

وأمّا السنةُ: فقوله ﷺ: «**إنّ المسلمَ إذا أنفقَ على أهلِهِ نفقةً، وهو يَحْتَسِبُها كانتْ له صدقةً**»[٤]. وقوله ﷺ: «**دخلتِ امرأةٌ النارَ في هِرَّةٍ ربطَتْها، فلم تُطْعِمْهَا، ولم تَدَعْهَا تأكلُ مِنْ خِشَاشِ الأرضِ حتّى ماتت**»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٦).

(٢) شرح النووي (٧/ ٩٢).

(٣) مقاصد المكلفين د. عمر الأشقر ص (٤٦٠ ـ ٤٧).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين (١٠٠٢) وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية الحسنة، ولكل امرىء ما نوى (٥٥) بلفظ «إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهو له صدقة».

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم (٣٣١٨).

وأما **الاستدال** على عموم العبادة وشمولها لحياة الإنسان **بفعل الصحابة** ففي قصة بعثِ أبي موسى ومعاذ إلى اليمن ، وفي آخره قال أبو موسى لمعاذٍ: فكيفَ تقرأُ أنتَ يا معاذ؟ قال: أنامُ أوَّل الليل فأقومُ ، وقد قضيتُ جزئي من النوم ، فأقرأُ ما كَتَبَ اللهُ لي ، فَأَحْتَسِبُ نومتي ، كما أَحْتَسِبُ قومتي(١) ، وفي كلام معاذ رضي الله عنه دليلٌ على أنّ المباحاتِ يؤجَرُ عليها بالقصدِ والنيّةِ .

خامساً ـ أنواع العبادات:

إنَّ أنواعَ العباداتِ كثيرةٌ ، نذكر منها :

النوع الأول ـ الدعاء:

وهو لغةً : **الرغبةُ إلى الله** ، وجاء في نصوصِ القرآن والسنة بمعنى العبادة ، قال تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر : ٦٠] وقال تعالى : ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر : ٥٤] وقال تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة : ١٨٦] وقال تعالى : ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف : ٥٥ ـ ٥٦] وقال تعالى : ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

ومن **أسباب قَبولِ الدّعاءِ**: المطعمُ الحلالُ ، وألاّ يستبطىءَ الإجابةَ ، وألاّ يدعو بإثمٍ ولا قطيعةِ رحمٍ ، والأمرُ بالمعروفِ ، والنهيُ عن المنكر ، والجَزْمُ في الدّعاء ، وحضورُ القلبِ وسلامتُه من الغفلةِ والخشوعِ ، والابتعاد عن المعاصي ، والإخلاص في الدعاء لله عز وجل(٢) .

ويمكن أن يقترنَ الدعاءُ **بتوسُّلٍ مشروع** ، كالتوسّلِ بأسماء الله الحسنى ، أو

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المغازي ، باب : بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع (٤٣٤٢) .

(٢) الدعاء والعلاج بالرقى من الكتاب والسنة ، للقحطاني ص (١٢٢) .

بصفةٍ من صفاته العُلىٰ ، أو أنْ يتوسّل العبدُ إلى الله ِبأعماله الصالحة التي يرجو قبولها عند الله ، أو يطلبَ الدعاءَ ممّن يظنُّ صلاحهم ، أو بالتوسّل بهم بشرط أن يكونوا أحياء أي : **يُتَوَسّل بدعائهم**.

وقد تحدّث العلماءُ عن أنواع التوسل المشروعة ومنها :

أ ـ التوسُّل إلى الله بأسمائه الحسنى ، أو بصفةٍ من صفاته العُلَىٰ :

والدليلُ على هذا النوع من أنواع التوسُّلِ قول الله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] .

كأنْ يقولَ المسلمُ في دعائه: اللهمَّ إنِّي أسالُكَ بأنَّكَ أنتَ الرحمنُ الرحيمُ ، اللطيفُ الخبيرُ ، أن تعافيني.

أو يقول: أسألُكَ برحمتِكَ التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ أنْ ترحمَني ، وتغفرَ لي(١) .

ولقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ، أي: ادعوا الله تعالى متوسّلين إليه بأسمائه الحسنى ، ولا شكَّ أنَّ صفاته العُلىٰ داخلةٌ في هذا الطلب ، لأنّ أسماءَ الله عزّ وجلّ الحسنى صفاتٌ له ، خُصَّتْ به تبارك وتعالى(٢) .

ومن الأدلةِ كذلك دعاءُ سليمان عليه السلام حيث قال: ﴿أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] .

ب ـ التوسل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة التي يقومُ بهاالعبد :

كأنْ يتوسَّلَ إلى الله تعالى بالإيمانِ به وطاعتِهِ ، واتباع رسولِهِ ﷺ ومحبَّته.

ومن هذا النوع قولُ الله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦] فيمكِنُ للعبدِ أن يقولَ: اللهمَّ بإيماني بكَ ، أو

(١) المصدر السابق ص (٩٩).
(٢) الذكر والدعاء والعلاج بالرقى ص (٩٩) انظر: منهج القرآن في الدعوة إلى الله ص (١٦٥ ـ ١٦٦).

محبّتي لكَ ، أو اتبّاعي لرسولكَ ﷺ اغفر لي ، أو يقول: اللهمّ إنِّي أسالُكَ بمحبَّتي لمحمَّدٍ ﷺ ، وإيماني به أنْ تفرِّج عنِّي.

ومن ذلك أنْ يذكرَ الداعي عملاً صالحاً ذا بالٍ ، فيه خوفُه مِنَ اللهِ سبحانه وتقواه إياه ، وإيثارُه رضاه على كلِّ شيءٍ ، وطاعتُه له جلَّ شأنه ، ثم يتوسَّلُ به إلى الله في دعائه ، ليكونَ أرجى لقبوله وإجابته[1].

ج ـ التوسُّل إلى الله تعالى بدعاءِ الصالحين الأحياء:

بأنْ يَطْلُبَ المسلمُ من أخيه الحيِّ الحاضرِ أن يدعوَ الله له ، فهذا النوعُ من التوسُّلِ مشروعٌ ، لثبوته عن بعض الصحابةِ مع النبيِّ ﷺ ، حيثُ كان بعضُهم يأتي النبي ﷺ ، فيطلب منه الدعاءَ له أو لعموم المسلمين ، ومن ذلك ما ثبت في «الصحيحين» عن أنسِ بنِ مالك رضي الله عنه أنَّ أعرابياً قامَ يومَ الجمعة والنبيُّ ﷺ يخطبُ فقال: يا رسول الله: هلكَ المالُ ، وجاعَ العيالُ ، فادعُ اللهَ لنا.

فرفع ﷺ يديه ـ وما نرى في السماءِ قزعةً ـ فوالذي نفسي بيدِهِ ما وضعَها حتى ثارَ السحابُ أمثالَ الجبالِ ، ثم لم ينزلْ عن منبرهِ حتّى رأيتُ المطرَ يتحادرُ على لحيتِهِ ﷺ[2] إلى آخر الحديث.

ومثله كذلك توسُّلِ الصحابةِ رضي الله عنهم بدعاءِ العبّاس رضي الله عنه ، وهو في «صحيح البخاري» من حديثِ أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحَطُوا استسقى بالعباسِ بنِ عبدِ المطلب ، فقال: اللهمَّ إنّا كنّا نتوسَّل إليكَ بنبيّنا ﷺ فتسقِيَنا ، وإنَّا نتوسَّلُ إليك بعمِّ نبيِّنا فاسْقِنا ، قال: فيُسْقَون[3] والمراد بقوله: إنّا نتوسَّل إليك بعمِّ نبِّينا ، أي: **بدعائه**.

فهذه الأنواعُ الثلاثةُ من التوسُّلِ كلُّها مشروعةٌ ، لدلالةِ نصوصِ الشرعِ عليها ،

---

(١) الذكر والدعاء والعلاج بالرقى ص (١٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجمعة ، باب: الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة (١٩٣٣) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: صلاة الاستسقاء ، باب: الدعاء في الاستسقاء (٨٩٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجمعة ، باب: سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا (١٠١٠).

وأمّا ما سوى ذلك ممّا لا أصلَ له ، ولا دليلَ على مشروعيته فينبغي على المسلم أن يجتنبه[١] .

النوع الثاني ـ النذر :

تعريفه : هو التزامُ قربةٍ غيرِ لازمةٍ في أصلِ الشرعِ بلفظٍ يُشْعِرُ بذلك ، مثل أَنْ يقولَ : للهِ عليَّ أنْ أصومَ ثلاثةَ أيام[٢] .

حكمه : حكمُ النذرِ الكراهةُ ، بل حرّمه بعضُ العلماء ، لعدم تحمُّل المسلم ما قَدْ يعجزُ عن الوفاءِ به ، ولكنْ إذا نذرَ المسلمُ وجبَ عليه الوفاءُ بهذا النذر ، وذلك ما لم يكنْ في معصيةِ الله ، فأصبحَ هذا النذرُ معلَّقاً في رقبته ، ودَيْناً عليه ، حتى يوفّيه[٣] . قال تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان : ٧] وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة : ٢٧٠] وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج : ٢٩] وقال رسول الله ﷺ : «**مَنْ نذَرَ أَنْ يطيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ ، ومَنْ نَذَرَ أَنْ يعصيَ اللهَ فلا يَعْصِه**»[٤] .

شروطه :

أ ـ أن يكونَ طاعةً لله : لقوله ﷺ : «**لا نذرَ في معصيةِ الربِّ ، أو في قطيعةِ رَحِمٍ ، وفيما لا يملك**»[٥] .

ب ـ أن يكون مما يطيقه العبد : فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بينا النبيُّ ﷺ يخطُبُ ، إذ هو برجلٍ قائمٍ ، فسأل عنه ، فقالوا : أبو إسرائيل ، نذرَ أَنْ يقومَ ولا يقعدَ ، ولا يستظلَّ ، ولا يتكّلمَ ، ويصومَ . فقال النبي ﷺ :

---

(١) فقه الأدعية والأذكار ص (٣٤١) .

(٢) اللباب في شرح العقيدة على ضوء السنة والكتاب ص (٥٤) .

(٣) العقيدة الصافية ص (٢٧٤) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : الأيمان والنذور ، باب : النذور في الطاعة (٦٦٩٦) .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب : الأيمان والنذور ، باب : اليمين في قطيعة الرحم (٣٢٧٢) . (٣٢٧٤) . قال الألباني صحيح . انظر حديث رقم (٧٧٩٣) في صحيح الجامع .

«مره فليتكلّمْ ، وليستظلَّ ، وليقعدْ ، وليتمَّ صومَه»(١) .

ج ـ أن يكونَ فيما يملكُ: قال رسول الله ﷺ: **«لا وفاءَ لنذرٍ في معصية اللهِ ، ولا فيما لا يَمْلِكُ ابنُ آدم»**(٢) .

د ـ ألّا يعتقدَ الناذرُ تأثيرَ النذر في حصولِ الشيءِ وعدمِهِ: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ النذرَ لا يقدِّمُ شيئاً ، ولا يؤخِّرُهُ ، وإنَّما يُسْتَخْرَجُ بالنذرِ مِنَ البخيلِ»**(٣) .

وإذا كان النذرُ للهِ تعالى عبادةً ونوعاً من أنواع التقرّب إلى الله ، فإنَّ صرفه لغير اللهِ تعالى شِرْكٌ أكبرُ ، يخرِجُ من الملّة ، ويوجِبُ لصاحبه النار ، لأنَّ كلَّ ما شأنُه عبادةً لا يجوزُ بحالٍ من الأحوالِ أن يُصرَفَ لغير الله تعالى .

ومن المؤسفِ حقّاً أن نرى مثلَ هذه العباداتِ تُصْرَفُ لغيرِ الله تعالى(٤) ، وهذا جهلُ عظيمُ بالإسلام ، ولا علاجَ له إلا نشرُ العلمِ وإحياءُ الإيمانِ بالله عزّ وجلّ في القلوب .

النوع الثالث ـ الذبح :

معنى الذبح هنا : **هو كُلُّ ما ذُبِحَ هَدْياً أو عقيقةً وغيرها لله تعالى ، بقصدِ التعبّدِ للهِ والتقرّبِ إليه**(٥) ، قال تعالى : ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ [الكوثر: ١ ـ ٢] ، أي: أخلص له صلاتَك وذبْحَك(٦) ، وقال تعالى : ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الأيمان والنذور ، باب: النذر فيما لا يملك وفي معصيته (٦٧٠٤) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: النذر ، باب: لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك العبد (١٦٤١) بلفظ: «. . . العبد» . وأخرجه بلفظه أبو داود في سننه ، كتاب: الأيمان والنذور ، باب: ما يؤمر به من الوفاء بالنذر (٣٣١٣) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الأيمان والنذور ، باب الوفاء بالنذر لقوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ [الإنسان: ٧] (٦٦٩٢) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: النذر ، باب: النهي عن النذر ، وأنه لا يرد شيئاً (١٦٣٩) .

(٤) العقيدة الصافية ص (٢٧٨) .

(٥) العقيدة الصافية ص (٢٨٠) .

(٦) المصدر نفسه ص (٢٨١) ، نقلاً عن تفسير ابن كثير .

وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣] ، والنسك: الذبح(١).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدّثني رسولُ اللهِ ﷺ بأربع كلماتٍ: «**لعنَ اللهُ مَنْ ذبحَ لغيرِ اللهِ ، ولعنَ اللهُ مَنْ لعنَ والديه ، ولَعَنَ اللهُ مَنْ آوى مُحْدِثاً ، ولعنَ اللهُ مَنْ غيَّرَ منارَ الأرضِ**»(٢).

أمّا لعنُ الوالدِ والوالدةِ فهو من الكبائر ، وأمّا الذبحُ لغير الله ، فالمرادُ به أن يذبحَ باسمٍ غيرِ اسم الله تعالى ، كمن ذبحَ للصنم ، أو الصليبِ ، أو لموسى ، أو لعيسى عليه السلام ، أو للكعبة ، ونحو ذلك ، فكلُّ هذا حرامٌ ، ولا تحلُّ هذه الذبيحةُ سواءٌ كان الذابحُ مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً(٣).

إنَّ الذَّبحَ قربةٌ وعبادةٌ يُتقرَّبُ بها إلى اللهِ تعالى ، ويتعبّد بها ، ولذلك وجبَ صرفُها لله تعالى.

النوع الرابع ـ التوكل:

وهو الثقةُ بما عندَ اللهِ ، واليأسُ عمّا في أيدي الناس ، وقيل: هو اعتمادُ القلبِ على اللهِ ، وثقتُه به ، وأنّه كفايةٌ(٤).

والتوكّلُ عبادةٌ ، ويجبُ صرفُها لله تعالى ، حتّى يتمَّ توحيدُ العبدِ ، ويخلو مِنْ شوائبِ الشركِ وأدرانِ الجاهليةِ ، والله سبحانه وتعالى يأمرُنا بالتوكّل عليه وحدَه لا على غيره. قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨] وقال تعالى: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى

---

(١) المصدر نفسه ص (٢٨١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الأضاحي ، باب: تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله (١٩٧٨) بلفظ: حدثني بكلمات أربع قال: «لعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من غير منار الأرض».

مسلم (٣ / ١٥٦٧).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٤ / ٦٥٦).

(٤) اللباب ص (٥٧).

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧ ـ ٢٢٠] وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨] وقال رسول الله ﷺ: «**لو أنَّكُم تتوكّلونَ على اللهِ حَقَّ توكُّلِهِ لرزقَكُم كما يَرْزُقُ الطيرَ، تغدو خِمَاصاً، وتروحُ بِطاناً**»(١).

النوع الخامس ـ الاستعانة:

وهي **طلبُ العونِ من الله تعالى على سبيلِ التعبُّد للهِ**، وهي من أنواع العبادة، ولـذلك يجبُ الاستعـانـة بـالله وحـدَه. قـال تعـالـى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] أي: لا نعبدُ إلاّ إيّاك، ولا نستعينُ إلاّ بكَ، ونبرأُ مِنْ كلِّ معبودٍ دونك ومن عابديه، ونبرأُ مِنَ الحولِ والقوّةِ إلا بك، فلا حولَ لأحدٍ عن معصيتك، ولا قوّة على طاعتِكَ إلا بتوفيقك ومعونتك(٢). وقال تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

وفي حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنتُ خلفَ النبيِّ ﷺ يوماً فقالَ: «**يا غلامُ، إنِّي أعلِّمُكَ كلماتٍ، احفظِ اللهَ يحفظْكَ، احفظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ، إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاستعنْ باللهِ، واعلمْ أنَّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أنْ ينفعوكَ بشيءٍ، لم ينفعوكَ إلّا بشيءٍ قد كتبهَ اللهُ لكَ، وإنِ اجتمعوا على أنْ يضرّوكَ بشيءٍ لم يضروك إلّا بشيءٍ قد كتَبه الله عليكَ، رُفِعَتِ الأقلامُ، وجَفَّتِ الصحفُ**»(٣).

النوع السادس ـ الاستغاثة:

وهي طلبُ الغوثِ، وهو إزالةُ الشدّةِ، كالاستنصار طلب النصرة، والاستغاثة، طلب الغوث.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد في مسنده، (١ / ٣٠). وأخرجه بلفظ قريب الترمذي في جامعه، كتاب: الزهد، باب: في التوكل على الله (٢٣٤٤) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في سننه، كتاب: الزهد، باب: التوكل واليقين (٤١٦٤).

(٢) معارج القبول (٢ / ٤٥٢).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب: منه (٢٥١٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد (١/ ٢٩٣) بلفظ قريب منه.

والفرق بين الاستغاثة والدعاء أنّ الاستغاثة لا تكونُ إلاّ من المكروبِ ، والدعاءُ أعمُّ ، فيكونُ من المكروبِ وغيرِهِ[(١)] .

فالاستغاثةُ نوعٌ من العبادةِ يجبُ صرفُها لله تعالى ، فلا يُستغاثُ إلاّ بالله عز وجل ، ولقد ذكر الله تعالى الاستغاثة في كتابه العزيز ، فلم تصرفْ إلا له سبحانه قال تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩] وقال تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل: ٦٢] وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ [الشورى: ٢٨] .

وكان من دعاءِ النبيِّ ﷺ: **«يا حيُّ يا قيومُ برحمتِكَ أستغيثُ»**[(٢)] .

وعن ثابتِ بن الضحّاك: أنّه كان في زمنِ النبيِّ ﷺ منافقٌ يُؤذي المؤمنين ، فقال بعضُهم: قوموا بنا نستغيثُ برسولِ اللهِ من هذا المنافق. فقال الرسول ﷺ: **«إنّه لا يستغاثُ بي ، وإنّما يستغاثُ بالله»**[(٣)] .

النوع السابع ـ الخشية:

الخشية التعبُّد ، وهي **خضوعُ القلبِ والجوارح لله تعالى طاعةً وخشوعاً وخوفاً من مقامه ووعيده ، على سبيل التعبُّد لله تعالى**[(٤)] قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧] .

---

(١) اللباب ص (٥٧).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه ، كتاب: الدعوات عن رسول الله ﷺ ، باب: منه (٣٥٢٤) بلفظ «يا حي يا قيوم ، برحمتك أستغيث». قال الحافظ ابن حجر نتائج الأفكار (٢ ؛ ٣٨٦): في سنده يزيد بن أبان الرقاشي وهو ضعيف.

(٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٥٩): رواه الطبراني [عن عبادة بن الصامت] ورجاله رجال الصحيح ، غير ابن لهيعة ، وهو حسن الحديث.

(٤) العقيدة الصافية ص (٣٠٩).

وقال رسول الله ﷺ: « . . . **أَمَا واللهِ ، إنِّي لأخشاكم لله ، وأتقاكُم له ، لكنِّي أصومُ وأفطِرُ ، وأصلِّي وأرقدُ ، وأتزوَّج النساءَ ، فَمَنْ رغَب عَنْ سُنَّتي فليسَ مِنِّي**»(١) .

والخشيةُ نوع من أنواعِ العبادةِ التي يجبُ ألاّ تصرفَ إلا للهِ تعالى ، وصرفُها لغير الله يُعدُّ شركاً ينقضُ ويهدِمُ الإيمان ، وكلّما زادَ إيمانُ العبدِ بربّه وخلصَ ، كلّما زادتْ خشيتهُ منه(٢) .

النوع الثامن ـ الخوف :

وهو اضطراب القلبِ وحركتُه من تذكُّر المَخوف(٣) ، وهو أفضلُ مقاماتِ الدين وأجلُّها ، وأجمعُ أنواع العبادة التي يجبُ إخلاصُها لله تعالى(٤) قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣ ـ ١٤] وقال تعالى : ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١] .

وعن عديِّ بن حاتم رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**اتقّوا النارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ**»(٥) . فالنافعُ والضارُّ هو الله ، فلا خوفَ إلاّ منه وحدَه سبحانه وتعالى .

النوع التاسع ـ المحبة :

يعدُّ خُلُقُ المحبّةِ من أجلِّ الأخلاق الإيمانية ، لأنّها أصلُ كلِّ فعلٍ ومبدؤه ،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: النكاح ، باب: الترغيب في النكاح (٤٧٧٦) .

(٢) العقيدة الصافية ص (٣١٢) .

(٣) مدارج السالكين (١ ؛ ٥١٢) .

(٤) اللباب ص (٦٥) .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الزكاة ، باب: اتقوا النار ولو بشق تمرة ، والقليل من الصدقة (١٣٥١) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الزكاة ، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (١٠١٦) .

فلا يكونُ الفعلُ إلاّ عن محبةٍ وإرادةٍ، وكذلك التَّرْكُ، لا يكونُ إلا عنها، ولهذا كانَ رأسُ الإيمانِ الحبُّ في الله والبغضُ في الله ، وكانَ مِنْ أحبَّ للهِ ، ومَنْ أبغضَ للهِ ، وأعطىٰ لله ، ومنعَ لله ، قد استكمل الإيمان(١) . قال تعالى : ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤] . فإنّ هذه الآية تحمِلُ وعيداً شديداً على تقديم محبّةِ أيِّ شيءٍ من أمورِ الدنيا على محبّةِ الله تعالى ورسولِهِ ﷺ ، وأنّه يجبُ إيثارُهما في المحبّةِ على مَنْ سواهما، وهذه المحبّةُ تقتضي إيثارَ طاعتهما واتّباع أمرِهما على إيثارِ مَنْ ذَكَرَ اللهُ مِنَ الأقاربِ والأموالِ وغيرِهما ممّا قد تريدُ النفسُ تقديمها(٢) .

وهذه المحبةُ يقتضيها الإيمانُ ، فمَنْ كان مؤمناً أوجبَ عليه إيمانُهُ أن يتحلّى بها كما يدلُّ عليه قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ ﴾ [البقرة: ١٦٥] .

وقد بيّنَ القرآنُ الكريمُ علامات المحبّة لله تعالى ، فجعلَ من ذلك اتباعَ نبيِّه ﷺ ، والذِّلةِ للمؤمنين ، والعزّةِ على الكافرين ، والجهادِ في سبيله ، وعدم الخوفِ مِنْ لَوْمِ لائمٍ ، ومعاداةِ أعدائه.

وأمّا الاتباعُ لنبيه ﷺ ، فقد دلَّ عليه قوله تعالى : ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] فإنّ هذه الآيةَ تسمّى آيةَ المحبّة(٣) ، فهذه الآيةُ الكريمةُ حاكمةٌ على كلِّ مَنِ ادّعى محبّةَ الله ، وليس هو على الطريقة المحمدية ، فإنّه كاذبٌ في دعواه في نفس الأمر ، حتّى يتبعَ الشرعَ المحمدي والدينَ النبويَّ في جميع أقواله وأفعاله ، كما ثبت في «الصحيح» عن رسولِ اللهِ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عملاً ليسَ عليه أمرُنا فهو رَدٌّ**»(٤) .

---

(١) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة د. أحمد الحداد (١ / ٢٠٤).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٠٥).

(٣) المصدر نفسه (١ / ٢٠٧).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الأقضية ، باب: نقض الأحكام الباطلة ، ورد محدثات

وأمّا **العلامات الأخرى** فقد دلّ عليها قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

سادساً ـ أقسام العبادات:

قسّم العلماءُ العبادات التي لا يجوزُ أن يقصدَ بها غيرُ الله إلى الأقسام التالية:

١ ـ **عبادات اعتقادية:** وهذه أساسُ العباداتِ كلِّها، وهي أن يعتقدَ العبدُ أنَّ الله هو الربُّ الواحدُ الأحدُ، الذي له الخلقُ والأمرُ، وبيدِهِ النفعُ والضرُّ، الذي لا شريكَ له، ولا يَشْفَعُ عنده أحدٌ إلاّ بإذنه، وأنه لا معبودَ بحقٍّ غيرُهُ.

٢ ـ **عبادات قلبية:** والعبادتُ القلبيّة التي لا يجوزُ أن يُقْصَدَ بها إلا الله وحده وصرفُها لغيرِ اللهِ شركٌ كثيرةٌ: كالخوفِ، والرجاءِ، والرغبةِ، والرهبةِ، والخشوعِ، والخشيةِ، والحُبِّ، والإنابةِ، والتوكُّلِ، والخضوع، والاستغاثة... إلخ.

٣ ـ **عبادات قولية:** كالنطق بكلمةِ التوحيد، إذ لا يكفي اعتقادُ معناها، بل لابدَّ من النطقِ بها، وكالاستعاذةِ بالله، والاستعانةِ به، والدعاءِ له، وتسبيحِهِ، وتمجيدِهِ، وتلاوةِ القرآن الكريم.

٤ ـ **عبادات بدنية:** كالصلاة، والصوم، والحج، والذبح، والنذر[١]، وغير ذلك.

٥ ـ **عبادات مالية:** كالزكاة، وأنواع الصدقات، والكفارات، والأضحية، والنفقة[٢].

سابعاً ـ أفضل العبادات:

إنّ أفضلَ العبادة العملُ على مرضاة الرب في كلِّ وقت، وبما هو مقتضى ذلك الوقت. ووظيفته.

= الأمور (١٧١٨). وأخرجه البخاري في صحيحه معلقاً، كتاب: البيوع، باب: النجش ومن قال: لا يجوز ذلك البيع.

(١) الحجُّ والذبحُ والنذرُ عبادات بدنية مالية معاً.

(٢) العقيدة في الله ص (٢٣٦).

فأفضلُ العباداتِ في وقتِ الجهادِ الجهادُ ، وإنْ آلَ إلى تركِ الأورادِ من صلاةِ الليلِ وصيامِ النهارِ.

والأفضلُ في وقتِ حضور الضيفِ مثلًا القيامُ بحقه ، والاشتغالُ به عن الوردِ المستحبِّ ، وكذلك في أداء حقِّ الزوجة والأهل.

والأفضلُ في أوقاتِ السَّحرِ. الاشتغالُ بالصلاةِ ، والقرآنِ ، والدعاءِ ، والذكرِ ، والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب ، وتعليم الجاهل الإقبالُ على تعليمه ، والاشتغال به.

والأفضلُ في أوقات الأذان ، تركُ ما هو فيه من وردِهِ ، والاشتغالُ بإجابةِ المؤذِّن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس الجدُّ والنُّصحُ في إيقاعها على أكملِ الوجوهِ ، والمبادرةِ إليها في أول الوقت ، والخروجِ إلى المسجدِ ، وإنْ بَعُدَ كان أفضلَ.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن أو المال الاشتغالُ بمساعدته ، وإغاثةُ لهفته ، وإيثارُ ذلك على أورادِك وخلوتِكَ.

الأفضل في وقت قراءة القرآن جمعُ القلبِ والهمّةِ على تدبّره وتفهّمه ، حتّى كأنَّ الله تعالى يُخاطِبُكَ به ، فتجمعُ قلبَك على فهمِهِ وتدبُّرِهِ ، والعزمِ على تنفيذِ أوامرِه ، أعظمَ مِنْ جمعيّةِ قلبِ مَنْ جاءَه كتابٌ من السلطانِ على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهادُ في التضرّع ، والدعاءِ ، والذكرِ ، دون الصومِ ، المُضعِفِ عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الإكثارُ من التعبد ، لا سيَّما التكبيرُ والتهليلُ والتحميدُ ، فهو أفضل من الجهادِ غير المتعيَّن.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان لزومُ المسجدِ فيه ، والخلوةِ ، والاعتكافِ ، دون التصدّي لمخالطةِ الناس ، والاشتغالِ بهم ، حتى إنَّه أفضلُ

من الإقبال على تعليمهم العلم ، وإقرائهم القرآنَ عندَ كثيرٍ من العلماء[١] .

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادتُهُ ، وحضورُ جنازتِهِ وتشييع .

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاةِ الناسِ لك : أداءُ واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دونَ الهربِ منهم ، فإنَّ المؤمنَ الذي يخالِطُ الناسَ ، ويصبرَ على أذاهم أفضلُ من الذي لا يخالِطُهم ولا يُؤذونه . والأفضلُ خلطتُهم في الخيرِ ، فهي خيرٌ من اعتزالهم فيه ، واعتزالهم في الشرِّ ، فهو أفضلُ من خلطتهم فيه ، فإنْ علمَ أنّه إذا خالطهم أزاله أو قلله ، فخلطتُهم حينئذٍ أفضل من اعتزالهم .

فالأفضل في كل وقت وحال إيثارُ مرضاةِ الله في ذلك الوقتِ والحالِ ، والاشتغالُ بواجبِ ذلك الوقتِ ووظيفتِهِ ومقتضاه[٢] .

ثامناً ـ تحكيمُ الشريعة وارتباطُها بالتوحيد:

١ ـ ربطها بتوحيد العبادة:

قال تعالى في قصة يوسف ودعوته إلى الله في السجن : ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٤٠] .

وقال تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣١] .

٢ ـ ربطها بتوحيد الربوبية:

قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (١ / ١٠٣) .

(٢) تهذيب مدارج السالكين (١ / ١٠٣ ـ ١٠٤) .

ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

٣ ـ ربطها بتوحيد الأسماء والصفات:

قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

إنّ مِنْ أسماءِ ربنا جل جلاله التي عرّف بها نفسَه إلى عباده، وذكرها في كتابه، وعلى ألسنة رسله وأنبيائه «**الحكيم**»، وقد وردَ هذا الاسمُ أربعاً وتسعينَ مرّةً في القرآن الكريم، كما في قوله عز وجل: ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩] ﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨] ﴿وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠] ويقول تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ﴾ [الأنعام: ١١٤] فهذا دليل على أنَّ اسمه أيضاً «**الحكم**». وبمعناه «**الحاكم**» وقد جاءَ في خمسة مواضعَ بصيغة الجمع منها ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧] ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

والحكيمُ هو الذي يُحْكِمُ الأشياء ويتقِنُها، ويضعُها في موضِعها، كما قال سبحانه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] فالحكيم هو الذي يضع الشيءَ في موضعه بقدره، فلا يتقدّمُ الحِكَمَ البالغةَ العظيمةَ، التي لا يأتي عليها الوصفُ، ولا يدركُها الوَهْمُ.

● **ومن معاني الحكمة حكمتُه في خلقه:** ومِنْ ذلكَ ما تراه في جسدِ الإنسانِ وعقلِهِ وروحهِ من حكمته عزّ وجلّ، حيثُ خَلَقَ الإنسانَ في أحسن تقويم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] ولو نظرتَ للإنسانِ في هيئته

وصورته ، أو نظرتَ في قُدراتِهِ وإمكاناته ، أو نظرتَ في عقلِهِ وروحِه ، لوجدتَ الحكمةَ البالغةَ العظيمةَ[١] .

● **ومن معاني حكمة الله تبارك وتعالى الشرعُ الذي أنزله في كتابه على لسان رسوله** ﷺ ، ولهذا وصف الله تعالى القرآنَ بأنّه حكيمٌ ، كما في قوله : ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨] وقوله : ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس: ٢] فتشريعاته حكمةٌ في مقاصدِها وأسرارِها ومآلاتها ، فشريعته حكمةٌ ، وخَلْقُه وقَدَرُهُ حكمةٌ ، حتّى وإن عجزتْ بعضُ العقولِ في فَهْمِ أبعادها ، فإنَّ مِنَ الحوادثِ والشرائع مالا يُتَبيّنُ مداه إلا بعدَ أجيالٍ وعصورٍ ، ولا زال العلمُ البشريُّ يكتشِفُ الشيءَ بعدَ الشيءِ ، وليس يصحُّ أنْ يكونَ الجهلُ أو عدمُ الإدراكِ في وقتٍ أو مكانٍ أو بالنسبة لفردٍ أو جماعة سبباً في عدم القناعة بما جاءَ عن الله ، لأنَّه أحكمُ الحاكمين ، وأعلمُ العالمين ، وخيرُ الرازقين ، وأحسنُ الخالقين ، فالحكيمُ الذي لا يدخلُ في تدبيره ولا شرعه خللٌ ولا زللٌ ، وأفعالهُ وأقوالهُ تقعُ في مواضِعها بحكمةٍ وعدلٍ وسدادٍ ، فلا يفعلُ إلا السداد ، ولا يقولُ إلا الصوابَ[٢] .

والقرآن الحكيم فيه الحلولُ الصادقةُ ، والمناسبةُ الملائمةُ ، والأحكامُ الصحيحةُ التي بها قوام حياة الناس ، وحَلُّ مشكلاتهم التي يواجهونها اليوم ، سواء على صعيد الفكر ، أو الاقتصاد ، أو السياسة ، أو المجتمع ، وقد وضعَ الأُطُرَ العامّةَ التي تهدي الناسَ إليها[٣] .

ولا شكَّ أنّ أصولَ الهدايةِ الكليّةِ موجودةٌ في القرآن الكريم ، فإنّه تضمَّن الأصولَ العامّةَ التي تصلح بها حياةُ الناسِ ، ولهذا قال الله عز وجل : ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] وهذا دليلٌ على أنَّ الحكمةَ تعني **السُّنَّةَ** ، فمن حكمته عزَّ وجلّ أن يرسلَ الرسلَ الذين يختارُهم مِنَ البشر ، كما قال الله عز وجل : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ

(١) مع الله ص (١٨٤).
(٢) مع الله ص (١٨٦).
(٣) المصدر نفسه ص (١٨٦).

عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] فيختار سبحانه من الرسل أفضلَ البشرِ ممّن لهم الكمالُ البشريُّ في علومهم وعقولهم وأفهامهم ومداركهم وقدراتهم ، ليتمَّ بذلك البلاغُ ، وتقومَ الحجةُ على الناس ، ولهذا كان النبيُّ ﷺ بالمنزلةِ العظيمةِ التي يعرفُها كلُّ مَنْ قرأَ سيرته ، وقد امتنَّ الله سبحانه على الناسِ ببعثته لهذا الرسول ﷺ فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] فمن حكمة الله عزّ وجلّ أنْ بعثَ الرسلَ، وأنزلَ الكتبَ هدايةً للناس، وإقامةً للحجة[١].

● **ومن معاني حكمةِ اللهِ عزّ وجلّ أنْ يلهمَ بعضَ العبادِ الحكمةَ**: كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩] فالله تعالى يؤتي الحكمةَ بعضَ عباده ، فيعرفون كيفَ يحلّون المشكلاتِ ، وكيف يخرجون من المُلمّات والأزمات ، وكيفَ يتعاملون مع المواقف الصعبة ، وكيف يضعون الأمورَ في مواضعها ، والعالم الإسلاميُّ في أشدِّ الحاجةِ لمجلسِ حكماءٍ من الذين حنّكتهم التجاربُ ، كي تستفيدَ الأمةُ من خبرتهم ومعرفتهم وتوقعاتهم ، حتّى لا يخبطَ المسلمون خبطَ عشواء ، ولا يقعوا ضحيةَ المفاجآت والأزمات وهم لا يشعرون[٢].

وأمّا «**الحَكَمُ**» فهو مَنْ له الحكمُ والسلطانُ والقَدَرُ ، فلا يقعُ شيءٌ إلاّ بإذنه ، وهوالمدبِّرُ المتصرِّفُ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] .

«**والحكم**» أيضاً من له التشريعُ والتحليلُ والتحريمُ ، فالحكْمُ ما شرعَ ، والدِّينُ ما أمرَ ونهىٰ ، لا معقّبَ لحُكمِهِ ، ولا رادَّ لقضائِهِ ، فاجتمع **القَدَرُ والشَّرْعُ** ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] .

وحين نقولُ: اللهُ أحكمُ الحاكمين ، واللهُ خيرُ الحاكمين ، فإنّ ذلك تأكيدٌ على عدلِهِ ورحمتِهِ ، ووضعِهِ الأشياءَ في مواضِعها ، فليسَ في قَدَرِه ظلمٌ ولا تعسّفٌ ، وليس في شرعِهِ مُحاباةٌ ولا تخيُّرٌ ، بل هو حِفْظٌ لحقوقِ الحاكمِ والمحكومِ ،

---

(١) مع الله ص (١٨٧).
(٢) المصدر نفسه ص (١٨٧).

والرَّجُلِ والمرأةِ ، والبَرِّ والفاجرِ ، والمسلمِ والكافرِ ، والقويِّ والضعيف ، وفي كلِّ الأحوال حَرباً وسِلْماً ، وعلى كلِّ أحدٍ دون استثناء ، ولذا وجبَ على كلِّ مسلمٍ تحكيمُ كتابهُ ، وسنّةُ نبيه ﷺ ، في دقيقِ أمورِه وجلِّها ، على الصعيد الفردي ، والجماعي ، والأُسري ، والخاصّ ، والعام ، والسياسة ، والاقتصاد ، والاجتماع ، والإعلام ، وكلِّ شيء[1].

٤ ـ ربطها بالإيمان:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠] وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١] .

٥ ـ ربطها بالإسلام:

والإسلامُ أساسُه الاستسلامُ لله ، والانقيادُ له بالطاعةِ والخلوصِ من الشرك[2]. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥] وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] .

٦ ـ ربطها بالشهادتين:

أمّا شهادةُ **(أن لا إله إلا الله)** ، فقد سبقَ في أدلّةِ توحيد العبادة ما يبيّنُ ذلك.

وأما شهادة **(أن محمداً رسول الله)** فقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ

---

(١) المصدر نفسه ص (١٨٨).

(٢) الحكم بغير ما أنزل الله د. عبد الرحمن المحمود ص (٢٢ ـ ٢٧).

فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧] وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١ـ٣٢].

٧ ـ طاعةُ غيرِ الله والإعراضُ عنه كفرٌ وشركٌ:

قال تعالى: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٦] وقال تعالى: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] وقال تعالى: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] فهذه الأدلة جاءت كنماذج، وإلاّ فهي كثيرةٌ جدّاً، تبيّنُ مدى ارتباطِ تحكيمِ الشريعة بالإيمانِ بالله عزَّ وجلّ.

تاسعاً: الآثارُ الحسنةُ للحُكْمِ بما أنزل الله تعالى:

١ ـ الاستخلافُ والتمكين:

إذا أقامَ العبادُ دينَ الله تعالى، وخلصَ لله تحاكمُهم في السرِّ والعلانية، فإنّ الله سبحانه يقوّيهم، ويشدُّ مِنْ أزرِهم، حتى يستخلفَهم في الأرضِ كما استخلفَ الذين من قبلهم، ومكّن لهم، وهي سنةٌ إلهيةٌ ماضيةٌ، نجدُها في قصصٍ شتّى في كتاب الله تعالى.

فهذا **يوسف عليه السلام** صار من أهلِ الاستخلاف والتمكين، بعدَ أن ابتُلي فأبلى بلاءً حسناً، وظهرَ أنّه كان من المحسنين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

وهذا **موسى عليه السلام** كان حريصاً على أن يُظهِرَ لقومه هذه السنة الماضية، عندما خافوا بطشَ فرعون وقومه، فقال له: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] أي: العاقبةُ الحسنةُ ستكونُ لكم بإرثِ الأرضِ شريطةَ أن تكونوا مِنَ المتقين بإقامةِ شرعِ الله في الأرض[١].

ولما استبطؤوا العاقبة، واستأخروا النصر، نبّههم موسى عليه السلام إلى

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٨١).

سُنّةِ الاستخلافِ ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] .

ثم أنجزَ الله عزّ وجل لهم ما وعد ، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] .

وبعد وراثةِ الأرضِ ، والاستخلافِ فيها ، منَّ اللهُ عليهم بالتمكين ، فقال سبحانه: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ ـ ٦] .

وعد الله تعالى المؤمنين من هذه الأمة بما وعد به المؤمنين من قبلهم:

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥] فإذا حقّقَ الناسُ الإيمان ، وتحاكموا إلى شريعة الرحمن ، فستأتيهم ثمرةُ ذلك ، وأثرهُ الباقي ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ فهي مقدّماتٌ ونتائجُ أعمالٍ وآثارٍ ، فتحقيقُ التحاكمِ إلى اللهِ يتحقّقُ به الاستخلافُ ، وتحقيقُ الحكم به يوصِلُ إلى التمكين(١) .

إنَّ وقائع التاريخ الإسلامي تصدّقُ هذا الوعد الإلهي للأمة بالنصر والتمكين إذا أقامت شرعه ، فليست هناك مِنْ جولاتٍ للمسلمين انتصروا فيها على أعدائهم ، وتقدّموا في شؤون دنياهم ، إلا وكانَ واقعُهم شاهداً على تمكينِ القرآن الكريم منهم اعتقاداً وعملاً(٢) .

٢ ـ الأمن والاستقرار:

ضمِنَ الله عزّ وجلّ لأهل الإيمان والعمل بشرعه وحكمه أنْ يُحقّقَ لهم الأمنَ

---

(١) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي د. عبد العزيز مصطفى (١ / ٦٧٣).

(٢) هجر القرآن العظيم أنواعه وأحكامه د. محمود الدوسري ص (٦٢٧).

الذي ينشدون إذا استقاموا على التوحيد ، ونبذوا الشرك بأنواعه ، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢] ولا يُتَصَوَّرُ تحقيقُ أمةِ الإخلاصَ في العبودية ، والخلوصَ من الشرك ، وبالتالي الشعور بالأمنِ والاستقرار إلاّ بإقامةِ شرع الله كاملاً غيرَ منقوص ، وإلاّ فإنَّ الأممَ المنحرفةَ عن شرعِ اللهِ ، يُحيطُ بها الخوف والقلق من جميع جوانبها ، لأنّ الأمنَ والأمانَ قد سُلِبَ ، قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩٩ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٩ ـ ١٠٠] في حين أنّ الله امتنَّ على المؤمنين بالأمن في مظنَّة الخوف لمَّا انقادوا لحكم الله ورسوله ﷺ ، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [الفتح: ٤] **والسكينةُ هي الطمأنينةُ** ، والذين أَنْـزَلَ عليهم السكينةَ هم الصحابةُ رضي الله عنهم يومَ الحديبيّةِ ، الذين استجابوا لله ولرسوله ﷺ ، وانقادوا لحكم الله ورسوله ﷺ(١).

وإذا امتثل الناسُ شرعَ الله ، وطبّقوا أحكامه ، ضَمِنوا الأمنَ التام في أموالهم وأعراضهم ودمائهم ، فما مِنْ حَدٍّ من الحدودِ ، ولا شِرْعَةٍ من الشرائع إلا وتُحْفَظُ بسببها ضرورةٌ من الضروراتِ الخمس: **الدين ، والنفس ، والعقل ، والعرض ، والمال**(٢).

وقوانينُ البشرِ الوضعيةِ لا تُحرِزُ أمناً ، ولا توفّر استقراراً ، إذا ما قورنت بالتشريعات الإسلامية ، فالدولُ قديماً وحديثاً تنفِقُ الأموالَ الطائلةَ ، وترصُدُ الميزانيات الهائلة لتأمينِ الداخلِ ، ومع ذلك لا يحصلُ للناس مِنَ الأمانِ عُشْرُ معشارِ ما يُمْكِنُهم تحصيله لو أنّهم أقاموا حَدًّا من حدودِ الله تعالى كحدِّ السرقة مثلاً(٣).

---

(١) هجر القرآن العظيم ص(٦٢٨).

(٢) المصدر السابق ص (٦٢٨).

(٣) المصدر السابق ص (٦٢٩).

٣ ـ النصر والفتح:

قال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠ ـ ٤١] والمعنى: **لينصرَّنَّ الله عزّ وجلّ مَنْ ينصرُ دينه**، ومَنْ ينصرُ أولياءَه، وينتصِرُ لشرعِهِ في الأولين والآخرين، **كما نصرَ** المهاجرينَ والأنصارَ على صناديد العرب، وأكاسرة العجم، وقياصرة الرُّوم، وأورثهم أرضَهم وديارَهم[(١)].

وسنة الله تعالى ماضيةٌ في نَصْرِ مَنْ ينصرُ دينه، كما قال تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧] وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧] ولهذا **فإنّ حالَ الأمةِ من النَّصر والعزَّة أو عدمِها يُعْتَبَرُ مقياساً دقيقاً، وميزاناً للحُكم على مقدار امتثالها ـ رُعاة ورعيّة ـ لشريعة الله ظاهِراً وباطِناً**، فبالاستجابةُ للشريعةِ يُسْتَجْلَبُ الفتحُ، ويُسْتَنْزَلُ النصرُ، وتُسْتَفْتَحُ الأرضُ[(٢)].

٤ ـ العزُّ والشَّرفُ:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي فيه شرفُكم وصِيْتُكم، وقال تعالى في آخر الآية: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ والاستفهامُ للتوبيخِ والتقريعِ، والمعنى أفلا تعقلونَ ما فُضِّلتم به على غيركم[(٣)].

فهذه الأمةُ لا تستمِّدُ الشرفَ والعزّةَ إلا منِ استمساكها بدينها، وتطبيقها لأحكام الشريعة في جميع نواحي الحياة، كما قال عمر رضي الله عنه **إنّا كُنّا أذلَّ قومٍ، ما أعزَّنا اللهُ إلّا بالإسلامِ، فمهما نطلبُ العزَّ بغيرِ ما أعزّنا اللهُ به أذَّلنا الله**[(٤)].

---

(١) روح المعاني للألوسي (١٧ / ١٦٤).

(٢) هجر القرآن العظيم (٦٣٠).

(٣) زاد المسير لابن الجوزي (٥ / ٣٤١٩).

(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب: الإيمان، (١ / ١٣٠) رقم (٢٠٧). وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي.

فهناك ارتباطٌ وثيقٌ بين حالِ الأمةِ الإسلاميةِ عزًّا وذلاً مع موقفها من تطبيق الشريعة إقبالاً وإدباراً ، **فما عزّتْ في يومٍ بغير دينِ اللهِ ، وما ذلّت في يومٍ إلا بالانحراف عنه**[١] .

ومَنْ أراد العزَّةَ فليتعزّزْ بطاعةِ الله تعالى ، لأنَّ مصدَرها مِنَ الله تعالى ، فليطلبْها مِنْ مصدرِها ، كما قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر : ١٠] وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨] وهذه العزّةُ كما كانت للمؤمنين السابقين فهي كذلك للاحقين ، شريطةَ أن يقتفوا أثرهم في تعظيم حرماتِ اللهِ ، وتطبيقِ شرعه ، والاعتزازِ بدينه[٢] .

٥ ـ بركةُ العيش ورغدُه:

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦] فالآيةُ الكريمةُ تَعِدُ المؤمنين المستجيبين لشرع الله بالبركاتِ متى ما حقّقوا معنى الإيمانِ والتقوى ، والطريقُ إلى بركات السماء والأرض الاستجابةُ للهِ ورسولِه ﷺ ، وإقامةُ شريعته ، حتى ينالوا هذا المطلب النفسي[٣] .

٦ ـ الهدايةُ والتثبيتُ:

قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥ ـ ٦٦] والأمر الذي وُعظوا به ، ووُعدوا الخيرَ لأجله ، هو تحكيمُ الشريعةِ ، والانقيادُ التامُّ للرسولِ ﷺ ، فلو أنّهم امتثلوا ما أُمِروا به ، لثبّتَ الله

---

(١) هجر القرآن العظيم ص (٦٣١) .

(٢) المصدر السابق ص (٦٣١) .

(٣) هجر القرآن العظيم ص (٦٣٢) .

تعالى أقدامهم على الحق ، فلا يضطربون في أمر دينهم(١) .

٧ ـ الفلاحُ والفوزُ:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥١ ـ ٥٢] فقد جمعت هذه الآيةُ الكريمةُ أسبابَ الفوزِ في الدنيا والآخرة ، وهي: طاعةُ الله ورسولِه ﷺ ، وخشيةُ اللهِ وتقواه(٢) .

٨ ـ المغفرةُ وتكفيرُ السيئاتِ:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢] فقد أمرَ الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يستغفرَ للمؤمناتِ إذا هنَّ بايعنَه على السمعِ والطاعةِ ، والرّضى بحكمِ اللهِ ورسولِهِ ﷺ ، وقد جاء الحديثُ على أنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ للمبايعات إذا هُنَّ وفينَ ببيعتهنَّ(٣) .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال وحولَه عِصَابةٌ من أصحابه: «**بايعوني على ألّا تشركوا باللهِ شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادَكم ، ولا تأتوا ببهتانٍ تفترونه بينَ أيديكم وأرجلكم ، ولا تَعْصُوا في معروفٍ ، فمن وفّي مِنْكُم فأجرُهُ على الله ، .ومَنْ أصابَ مِنْ ذلكَ شيئاً فعُوقِبَ في الدنيا ، فهو كفارةٌ له ، ومَنْ أصابَ مِنْ ذلكَ شيئاً ، ثم ستره فهو إلى اللهِ ، إنْ شاءَ عفا عنه ، وإن شاءَ عاقبه**»(٤) .

فقد كان النبيُّ ﷺ يبايعُ المؤمنين والمؤمنات على أمورٍ هي في مضمونها إثباتٌ لموقف التحاكم إلى الشريعة ، والخضوعِ لها ، وهذه البيعةُ كانت على

---

(١) فتح القدير للشوكاني (١ / ٧٣٢).

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (١٨ / ٢٢١).

(٣) هجر القرآن العظيم ص (٦٣٧).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب ، الحديث (١٨) ومسلم في صحيحه ، كتاب: الحدود ، باب الحدود كفارات لأهلها (١٧٠٩).

الامتثال لسائرِ شرائعِ الإسلام ، وما لم يذكر في هذه المبايعةِ كالصلاة ، والزكاةِ ، وسائرِ أركانَ الدين وشعائرِ الإسلام لوضوحِ أمرِه واشتهارِه.

إنّ تحكيمَ الشريعة مظنةُ توبةِ التائبين في الدنيا ، وقبولُ هذه التوبة في الآخرة بالمغفرة ومحو السيئات.

٩ ـ مرافقةُ النبيينَ والصّدّيقينَ في الجنة:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٩ ـ ٧٠]. سمّى الله تبارك وتعالى التحاكُمَ إلى الله والرسول ﷺ طاعة ، وجعل عاقبتهما معيةً كريمةً ومُقاماً كريماً في صحبةٍ كريمةٍ في جوارِ اللهِ الكريمِ ، وحَقٌّ لمن أقام هذا التحاكُمَ على ما يريدُ الله تعالى ، أن يرقى صُعُداً مع هذه الصحبة المباركة في الفردوس الأعلىٰ ، لأنَّ النبيين والصّدّيقين والشهداءَ والصالحين هم خيرُ من أطاعَ الله تعالى ظاهراً وباطناً وأقامَ شريعته ووحّده ، فمَنْ حذا حذوهم حُشِرَ معهم ، وصحبهم في الفردوس الأعلى من الجنة ، وهو طريقٌ مفتوحٌ لكلِّ منِ اقتدى بهم ظاهراً وباطناً[١].

عاشراً: الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله تعالى:

إنَّ للحكمِ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ آثاراً دنيويةً وأخرويةً سيئةً ، تبدو على الحياةِ في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، تصيبُ بشررِها محاسنَها ، وتشوِّه معالمَها ، وبذلك تتحوّل الحياةُ إلى فتنةٍ في الدنيا والآخرة ، فالله عزَّ وجلَّ حذّرنا من مخالفة الأوامرِ الشرعيّة في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] أي: فليحذرْ وليخشَ من خالفَ شريعةَ الرسولِ ﷺ باطناً أو ظاهراً ﴿أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ أي: في قلوبهم من كفرٍ أو نفاقٍ أو بدعةٍ ﴿أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الدنيا بِقَتْلٍ ، أو حَدٍّ ، أو حبسٍ ، أو نحو ذلك[٢].

إن المجتمعاتِ والشعوبَ التي تُسلِمُ قيادتها للحكام الذي يحكمونها بغير

---

(١) هجر القرآن العظيم ص (٦٣٦ ـ ٦٣٩).

(٢) المصدر السابق ص (٦٤٢).

شريعةِ اللهِ تدفعُ ضريبةَ التخلّي عن الحكم بما أنزل الله من أموالِها وأعراضِها وعقولِ أبنائها ، وغير ذلك من ثرواتها الأدبيّةِ والماديّةِ ، ذلك إلى جانب ما يجرُّه التَّخلّي عن الحكم بما أنزل الله من الجوع والخوفِ وضنكِ العيش ، وغضبِ اللهِ في الدنيا والآخرة(١) .

وإليك بعض الآثار المترتبة على الحكم بغير ما أنزل الله في الدارين :

١ ـ قسوة القلب:

قال تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [المائدة : ١٣] **فهم لمَّا نقضوا** ميثاقَ اللهِ على السّمعِ والطاعةِ ، وساءَ تصرُّفهم في آياتِ اللهِ ، وتأوّلوا كتابَ الله على غيرِ ما أنزله ، وحملوه على غيرِ مراده ، وقالوا عليه ما لم يقل ، ثم تركوا العملَ بهِ رغبةً عنه ، **جعلَ الله قلوبهم قاسيةً** ، فلا يتّعظون بمواعظه لغلظِ قلوبهم وقساوتها ، وهذا من أعظم العقوباتِ التي يُخْذَلُ بها القلب ، ويُمنعُ الألطاف الربانية ، ولا يزيدُه الهدى والخيرُ إلا شرّاً(٢) . وهكذا الشأنُ في كلِّ من عدلَ عن شرعِ اللهِ ، مُحكِّماً عقله وهواه ، فجزاؤه أن يُطبعَ على قلبه قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٣] . .

٢ ـ الضلالُ عنِ الحقِّ:

قال تعالى : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص : ٢٦] ومعلومٌ أنَّ نبيَّ الله داود عليه السلام(٣) لا يحكمُ بغيرِ الحقِّ ، ولا يتّبع الهوى فيضله عن سبيل الله ، ولكنَّ الله تعالى يأمُرُ أنبياءَه عليهم السلام ، وينهاهم ، ليُشرِّعوا لأممهم(٤) .

---

(١) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢ / ٧٠٥ ـ ٧١٠) .
(٢) هجر القرآن العظيم ص (٦٤٣) .
(٣) المصدر نفسه ص (٦٤٣) .
(٤) أضواء البيان (٧ / ٢٨) .

وقد جاء التحذيرُ الصريحُ من خطورةِ اتّباع الأهواء ، وتقديمها على أحكام الله تعالى ، وأنّه ليس لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ أن يكونُ له اختيارٌ عند حكم الله ورسوله ﷺ ، فما أمرَ الله هو المتّبعُ ، وما أرادَ النبيُّ ﷺ هو الحقُّ ، ومن خالفهما في شيءٍ فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً ، لأنَّ الله تعالى هو المقصد ، والنبيَّ ﷺ هو الهادي الموصل ، فمن ترك المقصِد ، ولم يسمع قول الهادي ، فهو ضالٌّ قطعاً[١] ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] .

٣ ـ الوقوع في النفاق:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦١ ـ ٦٢] يُبتلىٰ بالنفاقِ مَنْ يضمِرون الكراهيةَ لشرع الله تعالى ، حتى تصيرَ قلوبُهم مريضةً بهذا النفاقِ ، فيحاولون جهدَهم أن يُخفوا نفاقَهم ، ظانِّين أنَّ ذلك أمرٌ ممكن ، ولكنْ يأبىٰ اللهُ تعالى إلاّ أن يفضحَ المنافقين بفلتات ألسنتهم ، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩ ـ ٣٠] و(الأضغانُ): جمعُ ضِغنٍ ، وهو ما في النفوسِ من الحَسَدِ ، والحِقْدِ ، والعداوةِ للإسلام وأهلِهِ ، القائمين بنصرِه[٢] و(لحن القول): ما يبدو من كلامهم الدّالِّ على مقاصِدهم بالتعريض أو التورية .

إنّ شأنَ المنافقين الدائم هو الاستهزاءُ بالشريعة وحملتِها ، والإعراضُ عمّا أنزل الله تعالى ، والصدُّ عن سبيله ، وقد كانوا يُشفقون من افتضاح نفاقهم بهذا الاستهزاء والإعراض ، حتّى قال قائلهم: واللهِ لوددتُ أنّي قُدِّمتُ فجُلدتُ مئةً ، ولا ينزل فينا شيءٌ يفضحنا ، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن

---

(١) التفسير الكبير (٢٥ / ١٨٣).
(٢) هجر القرآن العظيم ص (٦٤٥).

سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٤ ـ ٦٦].

٤ ـ الحرمان من التوبة:

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١] نزلت هذه الآيةُ الكريمةُ في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله ﷺ المقدِّمين آراءَهم وأهواءَهم على شرائع الله عز وجل ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أظهروا الإيمان بألسنتهم، وقلوبُهم خرابٌ، خاويةٌ منه، وهؤلاء المنافقون ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أعداء الإسلام وأهله[1]، والجريمةُ التي اقترفها هؤلاء هي انحرافهُم عن شريعة الإسلام بتبعيضها تارةً، وأخرى بتحريفها حسب أهوائهم وشهواتهم، ومصالحهم الدَّنيئة، فجاءت عقوبتُهم متلائمةً مع فظاعة جُرمهم، الحرمان من التوبة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: إنّ الله تعالى حتّم عليهم ألا يتوبوا من ضلالهم وكفرهم، فلم يُرد الله أنْ يطهِّر من دنسِ الكفر ووسخ الشرك قلوبَهم بطهارة الإسلامِ ونظافةِ الإيمان فيتوبوا[2].

ودلّت الآيةُ الكريمةُ على أنّ مَنْ كان مقصودُه بالتحاكم إلى الحُكم الشرعي اتّباعَ هواه، وأنّه إنْ حُكِمَ له رضيَ، وإن لم يُحْكَمْ له سَخِطَ، فإنَّ ذلك مِنْ عدمِ طهارةِ قلبه، كما أنَّ مَنْ حاكمَ أو تحاكمَ إلى الشرعِ، ورضيَ به، ووافقَ هواه أو خالفه، فإنّه من طهارةِ القلبِ.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٦) هجر القرآن العظيم ص (٦٤٧).
(٢) تفسير الطبري (٤/ ٢٠٩) هجر القرآن ص (٦٤٧).

ودلَّت أيضاً: على أنَّ طهارةَ القلبِ سببٌ لكلِّ خيرٍ ، وهي أكبرُ داعٍ إلى كلِّ قولٍ رشيدٍ ، وعملٍ سديدٍ(١).

كما **دلّت** على الخزي لليهود والمنافقين ، فبالإضافة لعدم طهارةِ قلوبهم فإنَّ هناك خزياً يلاحِقُهم ، ويحيطُ بهم من جميع الجهات ، قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ **فخزيُ اليهودِ**: فضيحتُهم بظهورِ كذبهم في كتمان نصِّ الله تعالى في إيجابِ الرجم ، وأخذ الجزية منهم ، **وخزي المنافقين**: هتكُ أستارِهم باطّلاع الرسول ﷺ على كذبهم وخوفهم من القتل(٢).

٥ ـ الصَّدُّ عن سبيلِ اللهِ:

قال تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩] فهذا حديثُ القرآنِ الكريم عن مشركي العرب الذين اعتاضوا عن اتّباع شرع الله ، بما اهتموا به من أمور الدنيا الخسيسة ، صادّين الناسَ عن الإسلام.

وهناك صنفان متقابلان من أهل الكتاب ، تحدّث القرآن الكريم عنهم في قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠ ـ ١٦٢] ففريقٌ توعّدهم الله تعالى بالعذابِ الأليم ، لتعاطيهم الرِّشوة على الحكم ، فصدّوا الناسَ عن الدِّين ، إضافةً إلى أكلهم الرِّبا ، وأموال الناس بالباطل ، وفي مقابلهم فريقٌ استحقّوا الآجرَ العظيم ، لإيمانهم بالشريعة المنزَّلة ، ثم إيمانهم بالشريعة الحقّة الناسخة ، فكانوا مثلاً يُقتدى بهم(٣).

ولهذا الارتباط الوثيق بين الانحراف عن شرع الله والصَّدِّ عن دينه ، استحقَّ الصَّادون عن سبيلِهِ اللعنةَ والطردَ من رحمته ، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٨٥).
(٢) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٧١٨).
(٣) هجر القرآن العظيم ص (٦٤٩).

أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤ ـ ٤٥].

٦ ـ غيابُ الأمن وانتشارُ الفوضى:

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧] والطغيانُ هو الصفةُ السائدةُ في الإنسانِ عندما يكونُ في معزلٍ عن شرح الرحمن، ولو تأمّلنا وصفَ القرآن الكريم للإنسان بمعزلٍ عن الإيمان، لوجدناه عجباً، فهو ضعيفٌ أمام المغريات، ونسيٌّ للإحسان، وظلومٌ في الحقوق، وكَفَّارٌ للنعم، ومجادِلٌ بالحق أو الباطل، وعجولٌ متسرِّعٌ، وناكرٌ للفضلِ، وبخيلٌ بما عنده، وشديدٌ في الخصومةِ، وشَرِهٌ في جلبِ الخير لنفسِه، وقنوطٌ إذا عجزَ عن جلبِ هذا الخير، وهَلِعٌ جَزِعٌ إذا أصيبَ بضُرٍّ، أو ألمَّ به شَرٌّ، وهو ضانٌّ بالخيرِ إذا تحصّل عليه، ولا يمكن أن تواجه وتعالج وتهذَّب طباعُ هذا المخلوقِ إلا بشريعةٍ مِنْ عندِ خالقِهِ: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] وكيف نتخيَّلُ مجتمعنا يُتْرَكُ فيه الإنسانُ كالوحش الضاري، أو السَّبعِ الكاسر، دونما شريعةٍ تطهِّر قلبه وجوارحه(١).

إنَّ تحقيقَ الأمنِ في المجتمعاتِ مرتبطٌ بتطبيق شرع الله، فقد خَصَّ اللهُ عزَّ وجلَّ مَنْ طبّقَ شرعَهُ، وحقَّقَ شريعتَه بالأمن، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] والمتأمِّلُ في حالِ المجتمعاتِ غير المحكومة بحكمة الشريعة، وضبطها للأمور يرى كثرةَ القتلِ والاغتصابِ، واستباحةَ الأموالِ بكلِّ الطرق والأشكالِ، وانتشارَ الفواحشِ والزنا والفجورِ والخَنا، والإدمانِ، واللصوصيةِ، والجاسوسيّةِ، والتحاسدِ، والشُّحِّ، والبخلِ، والجهلِ، والظُّلمِ، وهذا كلُّه من مظاهر غياب الأمن المرتبط بتحكيم شرع الله.

---

(١) المصدر نفسه ص (٦٥٠).

٧ ـ انتشارُ العداوةِ والبغضاءِ:

قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤].

فاليهودُ لمّا خالفوا رسولَ الله ﷺ وكذّبوه، ولم ينقادوا لشريعته، أخبر الله عزّ وجلّ أنَّ قلوبهم لا تجتمع، بل العداوةُ واقعةٌ بينهم دائماً، لأنهم خالفوا شريعةَ الحقِّ(١).

والنصارى بتركهم بعضَ ما ذُكِّروا به من شريعتهم، ثم تكبُّرِهم عن اتّباع النبيِّ ﷺ كانت عاقبتُهم كعاقبةِ إخوانهم اليهود، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

والأمةُ الإسلامية وعظها الله تعالى بالعداوةِ المُلقاةِ فميا بين طوائف اليهود والنصارى، حتّى لا تقعَ فيما وقعوا فيه، فالرعيةُ تُلقى بينهم العداوات إذا رغبتْ عن شرع اللهِ، فمتى تركَ الناسُ بعضَ ما أمرهم الله به، وقعتْ بينهم العداوةُ والبغضاءُ، وإذا تفرّقَ القومُ فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا(٢).

وإذا خرجَ ولاةُ الأمورِ عن الحكمِ بين الناس بالكتاب والسنة، فقد حكموا بغير ما أنزلَ الله، ووقع بأسهم بينهم، وهذا مِنْ أعظمِ أسباب تغيير الدول(٣).

وقد تعوّذَ النبيُّ ﷺ من مغبةِ تركِ الحكم ما أنزل الله، وعدَّ ذلك من أعظم أسبابِ وقوعِ العداوةِ والبغضاءِ بين المسلمين(٤)، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قالَ: أقبلَ علينا رسولُ الله ﷺ فقال: «**يا معشرَ المهاجرين، خمسٌ إذا ابتليتُم بهنَّ وأعوذُ بالله أن تُدركوهنَّ ... وما لم تحكم أئمتُهم بكتابِ الله**

(١) هجر القرآن العظيم ص (٦٥٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٤٢١).
(٣) المصدر نفسه (٣٥/ ٣٨٨).
(٤) هجر القرآن العظيم ص (٦٥٦).

ويتخيّروا مِما أنزلَ الله ، إلا جعلَ الله بأسهم بينهم»(١) .

٨ ـ الحرمانُ من النصر والتمكين:

قال تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠] وليس شيءٌ أدعى للخذلانِ والحرمانِ من النصر والتمكين مثل هجر التحاكم إلى شريعة الله تعالى ، وعدم نصرِها في الأرض ، ويُعتبر ذلك إخلالاً بشرط النصر المنصوص عليه في آيات كثيرة من كتاب الله ، كما قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧] والمعنى : إنْ تنصروا دينَ اللهِ وشريعتَهَ بالعملِ بها وتعظيمها ينصرْكُمُ الله على أنفسكم ، وعلى أعدائكم من شياطين الجنّ والإنس ، فإنَّ الجزاءَ من جنس العمل(٢) .

وقد نصَّ القرآن الكريم على كيفية نصر الدين والشريعة في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١] والآيةُ الكريمةُ تدلُّ على أنَّ الذين لا يقيمون الصلاة ، ولا يؤتون الزكاة ، ولا يأمرون بالمعروف ، ولا ينهون عن المنكر ، ليس لهم وعدٌ مِنَ اللهِ بالنصرِ البتةَ. . . فالذين يرتكبون جميع المعاصي ممّن يتسمّون باسم المسلمين ، ثم يقولون : (إن الله سينصرنا) مغرورون ، لأنّهم ليسوا من حزبِ اللهِ ، الموعودين بنصره ، كما لا يخى .

ومعنى نصرُ المؤمنين لله ، نصرُهم لدينه ولكتابه ، وسعيهم وجهادُهم في أن تكونَ كلمتُه هي العليا ، وأن تقامَ حدودُه في أرضه ، وتُمْتَثَلَ أوامرُه ، وتُجْتَنَبَ نواهيه ، ويُحْكَمَ في عبادِه بما أنزل على رسوله ﷺ(٣) .

٩ ـ هولُ العقابِ الذي ينتظرُ المبدّلين لشرعِهِ:

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب : الفتن ، باب : العقوبات (٤٠١٩) ، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٢٠ و٨/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤ والحاكم ٤/ ٥٤٠ وإسناده حسن .

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٧٥) ، هجر القرآن العظيم ص (٦٥٦) .

(٣) المصدر السابق ص (٦٥٧) .

ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٥٩ ـ ٦٠] ففي هذه الآياتُ الكريمةُ أنكرَ الله تعالى على مَنْ حرّمَ ما أحلَّ الله ، أو أحلَّ ما حرّم الله ، بمجرّد الآراءِ والأهواء ، التي لا مستندَ لها ، ولا دليلَ عليها ، ثم توعّدهم على ذلك يومَ القيامة فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ أي: ما ظنُّهم أنْ يُصنعَ بهم يومَ مرجعهم إلينا يومَ القيامة[1]؟ فهذا استفهامٌ يرادُ منه تهويلُ وتفظيعُ العقابِ الأليم ، الذي ينتظِرُ المفترين المتقوّلين على الله ، المبدّلين لشرعه ، ولذا نُكِّرَ وأُبهم ، فمصيرُهم هو أسوأُ المصير ، وعقابُهم أوخمُ العقاب[2]. وصيغة الغائب تشمل جنسَ الذين يفترون على الله الكذبَ ، وتنتظمهم جميعاً ، فما ظنُّهم يا تُرى؟ ما الذي يتصوّرون أن يكونَ في شأنهم يومَ القيامة؟ وهو سؤالٌ تذوبُ أمامَه حتى الجبالَ الصلدةَ الجاسية[3].

١٠ ـ الإهانة عند قبض الأرواح:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾

[محمد: ٢٥ ـ ٢٨] هذه الآياتُ الكريماتُ تهدّدُ وتتوعّدُ نوعاً من المنحرفين عمَّا أنزل الله تعالى ، وهم الذين يطيعون أعداءَ الله ـ كاليهود والنصارى ـ في بعضِ ما يأمرون به ، والآياتُ تصفهم بالردّة بسبب ذلك الفعل ، وتتوعّدهم بمصيرٍ مظلمٍ ، وعذابٍ مؤلم ، يبدأ معهم منذ اللحظات الأولى من مفارقة الدنيا[4]. ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي: كيف حالهم إذا

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٠) ، هجر القرآن العظيم ص (٦٥٨).
(٢) تفسير أبي السعود (٤/ ١٥٧) ، هجر القرآن العظيم ص (٦٥٨).
(٣) في ظلال القرآن (٣/ ١٨٠٢).
(٤) تفسير القاسمي (٦/ ٢٥٩) ، تفسير الطبري (٢٦/ ٦٠).

جاءتهم الملائكةُ لقبض أرواحهم ، وتعصّت الأرواحُ في أجسادهم ، واستخرجها الملائكةُ بالعنفِ والقهرِ والضربِ(١) .

وقال سبحانه في نوع آخر من المنحرفين عن شرعه المنزل: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] فالآيةُ تحكي أحوالَ هؤلاءِ عندَ معاينةِ الموتِ ، والخروج من الدنيا ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: شدائده وسكراته ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ بالعذابِ ومطارقِ الحديد لقبض أرواحهم ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ أي: أخرجوا أرواحكم من أجسادكم ، أي هاتوا أرواحكم ، والأمرُ للإهانةِ والإرهاقِ ، إغلاظاً في قبضِ أرواحِهم ، ولا يتركون لهم راحةً ، ولا يعاملونهم بلينٍ ، وفيه إشارةٌ إلى أنّهم يجزعون ، فلا يلفظون أرواحهم ، وهو على هذا الوجه وعيدٌ بالآلام عند النزع ، جزاءً في الدنيا على شركهم(٢) . ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: الهَوان ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تتعظَّمون ، وتأنفون عن قبول ما أنزله الله في آياته(٣) .

١١ ـ الأكلُ من النار ، وغضبُ الجبار:

قال العليم الخبير: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٤ ـ ١٧٦] .

بعد أن تحدّثتِ الآياتُ عن بعض أحكام الشريعة مثل تحريم أكلِ الميتةِ ، والدمِ ، ولحمِ الخنزيرِ ، وما أُهلَّ لغيرِ الله به ، توعّدت من يكتمون أحكامَ

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٢٣).
(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٢٢٣).
(٣) تفسير القرطبي (٧/ ٤٣ ـ ٤٤).

الشريعةِ مقابلَ ثمنٍ قليلٍ يأكلونه ، لأنّ كتمانَ الشريعة يسلتزمُ أنواعاً من الانحراف عنها[١] ، فهؤلاء الذين يكتمون الحقَّ المنزل ، لقاءَ ثمنٍ رخيصٍ ، إنّما يأتون حراماً ، يعذّبهم الله عليه بنار جهنم ، يأكلونها في بطونهم الجشعة ، فهي نارٌ على الحقيقةِ ، يأكلونها يومَ القيامة ، جزاءَ ما اقترفوا من أكلِ الرشوةِ على الدين[٢] ، والذي هو أعظم من عذاب النار ، غضبُ الله عليهم ، وإعراضهُ عنهم ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يطهّرهم من الأخلاق الرَّديئةِ ، إذ ليسَ لهم أعمالٌ تصلحُ للمدح والرِّضا والجزاء عليها ، بل يعذّبهم عذاباً أليماً ، لأنهم تركوا كتابَ الله ، وأعرضوا عنه ، وعن التحاكم إليه في الدنيا ، واختاروا الضلالة على الهدى ، والعذابَ على المغفرة[٣] .

١٢ ـ العذابُ المهينُ:

ذكر العزيزُ الحكيمُ جوانبَ من أحكامِ الشريعة في صدرِ سورةِ النساء ، والمتمثّلة في بيان أموال اليتامى ، وأحكامِ الأنكحةِ ، وأحوالِ المواريثِ والوصايا ، ثم ذكر بعدَ ذلك الوعد والوعيد ، ترغيباً في الطاعة ، وترهيباً من المعصية ، فقال سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣] فهذا هو الوعدُ.

أما **الوعيد** فهو قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤] فكلُّ من اعتدى على حدود اللهِ تعالى ، مُكذِّباً أو جاحداً ، أو مُبدِّلاً أو مبغضاً ، فهو متوعَّدٌ بهذا العذاب المهين ، لأنّه غيَّرَ ما حكمَ الله به ، وضادَّ الله في حُكمِه ، وهذا إنّما يصدر عن عدمِ الرّضا بما قسمَ الله ، وحكمَ به ، ولهذا يُجازيه الله بالإهانةِ في العذاب الأليمِ[٤] .

---

(١) الحكم والتحكم في خطاب الوحي (٢ / ٧٦٤).
(٢) تفسير القرطبي (٢ / ٢٣٩) ، تفسير السعدي (١ / ١٣٤).
(٣) هجر القرآن العظيم ص (٦٦٢).
(٤) المصدر نفسه ص (٦٦٤).

هذه هي أهم الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله ، قال الشاعر (من الكامل) :

والله ِما خوفي الذنوبَ فإنّها لعلى طريقِ العفوِ والغفرانِ
لكنّما أخشى انسلاخَ القلبِ عن تحكيمِ هذا الوحيِ والقرآنِ

حادي عشر ـ حماية الرسول ﷺ لتوحيد العبادة:

بين رسول الله ﷺ هذا التوحيد أتمَّ بيانٍ ، ودعا إليه أعظمَ دعوةٍ ، وجُلُّ القرآن الكريم نزلَ ليقرِّرَ هذا النوعَ من التوحيد ، ويدعو إليه ، وجاهد رسولُ الله ِﷺ في ذلك أعظمَ جهادٍ ، وقام على حمايتِهِ وصيانةِ حماه حتّى أتاهُ اليقين ، بل إنّه وهو في الرمقِ الأخيرِ ، وهو يعالِجُ نزعَ الروحِ يبيّنُ لأمته أهميةَ هذا التوحيد.

كما ربّى أصحابه رضي الله عنهم على ذلك ، ليكونوا جنوداً وحماةً لهذا التوحيد ، ويسلّموا هذه الأمانة إلى مَنْ بعدهم صافيةً نقيةً ، وقد كانوا كذلك رضي الله عنهم وأرضاهم.

وفيما يلي بعضُ الأمثلةِ على حماية رسول الله ﷺ لهذا النوع من التوحيد ، وبيانه ، والنهي عن كل ما يضاده من شرك ، أو بدعة ، أو يكون وسيلة وذريعة إلى ذلك ، وإن لم يكن في نفسِه شراً[(١)].

١ ـ النهي عن الغلو والإطراء:

حذَّر الرسولُ ﷺ أُمّتَهُ من الغلوِّ ، ونهاهم عن ذلك ، وحذَّرهم منه ، ومن إطرائه ، أو تجاوز الحد في مدحه والثناء عليه ، حمايةً لجانب التوحيد ، فقال ﷺ: «**إيّاكُمْ والغلوُّ ، فإنّه أهلكَ مَنْ كانَ قبلَكُم الغلوُّ**»[(٢)] ، وسدَّ الذرائعَ الموصلة إليه ، فنهى عن الإطراءِ ، وقال ﷺ: «**لا تطروني كما أطرتِ النصارى ابنَ مريم ، فإنما أنا عبدُه ، فقولوا: عبدُ الله ِورسولُه**»[(٣)].

---

(١) حماية الرسول حمى التوحيد ص (٢٨٧).

(٢) أخرجه النسائي في سننه ، كتاب: مناسك الحج ، باب: التقاط الحصى (٣٠٥٧) ، وابن ماجه في سننه ، كتاب المناسك ، باب: قدر حصى الرمي (٣٠٢٩) بلفظ «إياكم والغلو في الدين ، فإنه أهلك من كان قبلكم الغلوُّ في الدين». قال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٨٣) : صحيح.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: أحاديث الأنبياء ، باب: قول الله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ [مريم: ١٦] (٣٢٦١).

٢ ـ زيارةُ القبورِ والنهيُ عن اتخاذِها مساجدَ:

بيّن رسولُ اللهِ ﷺ الغايةَ من زيارةِ القبورِ ، والحكمةَ التي مِنْ أجلها شُرِعتْ زيارتُها ، فقد قال رسول الله ﷺ: «**فزوروا القبورَ ، فإنّها تذكّر الموتَ**»(١) .

ووضّحَ أيضاً أنَّ من الحكمةِ في زيارة القبور الدعاءَ للميّتِ ، والاستغفارَ له ، والترحُّمَ عليه(٢) .

وبين رسولُ اللهِ ﷺ كيفيةَ الزيارةِ الشرعيةِ للقبورِ بقوله وعمله ، وعلّمها أصحابه ، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أنّ جبريلَ عليه السلام أتَىٰ رسولَ اللهِ ﷺ فقال: إنّ ربَّكَ يأمُرُكَ أن تأتيَ أهلَ البقيعِ ، فتستغفرَ لهم ، قالتْ: قلتُ: كيف أقولُ لهم يا رسول الله؟ قال قولي: «**السلامُ على أهلِ الديارِ من المؤمنينَ والمسلمينَ ، ويرحمُ اللهُ المستقدِمينَ مِنَا والمستأخِرينَ ، وإنّ شاءَ اللهُ بكم لاحقون**»(٣) .

وكان رسول الله ﷺ قد نهى عن زيارة القبور أولَ الأمرِ ، سدّاً للذريعة ، ثم أذنَ فيها ، حين تمكّن التوحيدُ في القلوب ، وبيّنَ الزيارةَ المشروعة ، وأمرَ بها ، ونهى عن كلِّ ما يخالفها ، وحذّر منها أشدَّ التحذير(٤) .

وكان من دعائه ﷺ قوله: «**اللهمَّ لا تجعلْ قبرِي وثناً يُعْبَدُ**»(٥) .

وكان رسول الله ﷺ يحذِّرُ وينهَىٰ أمته عن اتخاذِ قبرِه مسجداً؛ أو القبورِ مساجدَ ، فعن أمِّ سلمة رضي الله عنها وأمِّ حبيبة رضي الله عنها ذكرتا لرسولِ اللهِ ﷺ كنيسةً رأتها بأرضِ الحبشة ، وما فيها من الصور ، فقال: «**أولئكَ قومٌ إذا ماتَ**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الجنائز ، باب: استئذان النبيِّ ربَّه عزّ وجلّ في زياة قبر أمه (٩٧٦) .

(٢) حماية الرسول حمى التوحيد ص (٢٩٥) .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الجنائز ، باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (٩٧٤) .

(٤) حماية الرسول حمى التوحيد ص ٢٩٦ .

(٥) أخرجه بهذا اللفظ مالك في موطئه ، كتاب: النداء للصلاة ، باب: جامع الصلاة ، (٤١٦) مرسلاً. وأخرجه أحمد في مسنده ، (٢/ ٢٤٦) بلفظ: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً**» .

فيهم الرجلُ الصالحُ ، أو العبدُ الصالحُ ، بنوا على قبرِهِ مسجداً ، وصوّروا فيه تلكَ الصورَ ، أولئكَ شِرارُ الخَلْقِ عندَ الله»[١] .

وكان رسولُ الله ﷺ يقولُ في مرضِ موته : «**لعنةُ اللهِ على اليهودِ والنصارى اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ**» يحذِّر ما صنعوا ، ولولا ذلك لأبرِزَ قبرُه[٢] .

وقد نهى رسولُ الله ﷺ أن يُبنىٰ على القبورِ أو يُقْعَدَ عليها ، أو يُصَلَّىٰ عليها[٣] .

٣ ـ الرُّقى والتمائم:

قال رسول الله ﷺ : «**إنّ الرُّقى والتمائمَ والتِوَلةَ شركٌ**»[٤] .

والمقصودُ **بالرقى** غيرُ المشروعِ منها ، وهي التي تسمّى العزائم ، التي يعتقدون فيها دفعَ الآفاتِ ، والحفظَ من المكروهاتِ ، وأمّا ما كان منها مِنَ المشروعِ والمأثورِ عن رسول الله ﷺ فلا يدخلُ في ذلك ، لما جاء في الحديث عن عوفِ بن مالك رضي الله عنه قال: كنّا نرقي في الجاهلية ، فقلنا: يا رسول الله! كيف ترى في ذلك؟ فقال: «**اعرضوا عليَّ رقاكم ، لا بأسَ بالرُّقى ما لم يكن فيه شرك**»[٥] .

والرُّقى المشروعة هي التي توفّرت فيها شروط ثلاثةٌ :

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الصلاة ، باب: الصلاة: في البيعة (٤٢٤) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة ، باب: النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور (٥٢٨) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الصلاة ، باب: الصلاة في البيعة (٤٢٥) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة ، باب: النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور (٥٢٩) .

(٣) رواه أبو يعلى في مسنده (٢ / ٦٦) ورجاله ثقات .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب: الطب ، باب: في تعليق التمائم (٣٨٨٣) ، وابن ماجه في سننه ، كتاب: الطب ، باب: تعليق التمائم (٣٥٣٠). وهو صحيح. انظر السلسلة الصحيحة (٣٣١) .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: السلام ، باب: لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك (٢٢٠٠) .

١ ـ أن تكون بكلام الله ، أو بأسمائه وصفاته .

٢ ـ أن تكونَ باللّسان العربي [١]، وبمعانٍ معروفة .

٣ ـ أن يعتقد أنَّ الرقية لا تؤثِّرُ بذاتها ، بل بتقديرِ اللهِ عزّ وجلَّ .

أما **التمائم**: فهي جمعُ تميمةٍ ، وهي: ما يعلَّقُ عادةً على الصبيان مِنْ خرزٍ أو عظامٍ أو جلدٍ ، أو نحو ذلك ، لاعتقادِ دفعِ العين عنهم ، وقد نهى عنها رسولُ اللهِ ﷺ لما فيها من شركٍ ، أو ذريعةٍ إليه[٢] .

وأما **التِوَلَةُ**: بكسر التاء ، وفتح الواو ، فهي ما يوضع بزعم أنّه يحبِّب المرأةَ إلى زوجها ، كما فسّر ذلك ابنُ مسعود رضي الله عنه قالوا: يا أبا عبد الرحمن هذه الرُّقى والتمائم قد عرفناها ، فما التِوَلة؟ قال: شيءٌ تضعه النساءُ يتحبَّبْنَ إلى أزواجهنَّ[٣] .

وكانت المرأة تجلِبُ به محبةَ زوجها ، وهو ضربٌ من السحر[٤] .

وهذه الأحاديثُ وغيرُها تنهَىٰ عن هذه الأمور ، التي فيها توكلٌ على غيرِ الله تعالى ، واعتقادُ جلبِ نفعٍ ، أو دفعِ ضُرٍّ ، من دونه عزّ وجلّ ، والله تعالى يقول: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧] .

فقد حرص رسول الله ﷺ على حمايةِ التوحيد من مثل هذه الأمور ، التي قد يتساهل فيها المرءُ مع خطورتها ، فمنْ تعلّق وأنزل حوائجَه به ، والتجأ إليه ، وفوَّض أمره إليه ، كفاه ، وقرَّب إليه كلَّ بعيد ، ويسّر له كلَّ عسير ، ومن تعلّقَ بغيره ، أو سكنَ إلى رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك: وكله الله إلى ذلك ، وخَذَلَهُ ، وهذا معروفٌ بالنصوص والتجارب ، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣][٥] .

---

(١) لمّا جاز لغير العربي أن يدعو بلسانه جاز له أن يرقي به فالرقية دعاء (ن).

(٢) حماية الرسول حمى التوحيد ص (٣١٦).

(٣) المصدر نفسه ص (٣١٧).

(٤) المصدر نفسه ص (٣١٧).

(٥) فتح المجيد ص (١٠٥).

٤ ـ الاستسقاءُ بالأنواء:

ومعناه نسبةُ السقيا ونزولِ المطرِ إلى الأنواءِ ، **والأنواءُ**: جمعُ نوءٍ ، وهي منازِلُ القمرِ[(١)] .

وقد حرص الرسولُ ﷺ أن يبيّنَ لأمته ما كانَ عليه أهلُ الجاهلية من شركٍ وضلالٍ ، وأمرهم بالحذرِ من ذلك ، والبعدِ عنه ، وأهمُّ ذلك وأعظمُه ما كان متعلِّقاً بأمورِ الاعتقاد ، ومن ذلك ما كان شائعاً في الجاهليةِ من نسبة نزول المطر إلى النجوم ومطالعها ومغاربها ، وبيّنَ عليه الصلاة والسلام ما في ذلك من الشركِ المنافي للتوحيد ، كما جاء في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**أربعٌ في أمتي مِنْ أمرِ الجاهليةِ لا يتركونهنّ: الفخرُ في الأحسابِ ، والطعنُ في الأنسابِ ، والاستسقاءُ بالنجومِ ، والنياحةُ**»[(٢)] .

وعن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صلّى بنا رسولُ اللهِ ﷺ صلاةَ الصبح بالحديبيّة على إثرِ سماءٍ كانتْ من الليلِ ، فلمّا انصرفَ ، أقبلَ على الناسِ ، فقالَ «**هل تدرونَ ماذا قالَ ربُّكم**»؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «**أصبحَ مِنْ عبادِي مؤمنٌ بي وكافِرٌ ، فأمّا مَنْ قالَ: مُطِرْنا بفضلِ اللهِ ورحمتِهِ فذلك مؤمنٌ بي ، كافرٌ بالكواكبِ ، وأمّا مَنْ قال: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا وكذا ، فذلكَ كافرٌ بي مؤمنٌ بالكواكب**»[(٣)] .

وهذا الحديثُ القدسيُّ العظيمُ يخبر به رسولُ اللهِ ﷺ عن ربِّه عزَّ وجل أنَّ مِنَ الناسِ من ينسِبُ نعمَهُ سبحانه وتعالى إلى غيرِهِ ، ويضيفُ أفعالَه إلى سواه ، وهو تعالى المنعِمُ وحدَه ، الذي يجبُ أن تنسبَ إليه وحدَه جميعُ النعم ، جلّ شأنه ، فهو المتفرِّدُ بالرزق ، المستحقُّ أن تُنْسَبَ إليه النعمُ ، ويفرَدَ بالشكرِ عليها

---

(١) حماية الرسول ص (٣٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنائز ، باب: التشديد في النياحة (٩٣٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الأذان ، باب: يستقبل الإمام الناس إذا سلم (١٨١٠) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان كفر من قال: مطرنا بالنَوْءِ (٧١).

وحدَه ، لا شريك له(١). وهذا البيان من رسولِ الله ﷺ حمايةٌ منه لجانب التوحيدِ ، حرصاً على أمته من الشركِ.

لقد نزل القرآنُ الكريم على رسول الله ﷺ ، وبيّنَ أنَّ الله **سبحانه هو الذي ينزل الأمطار** في آياتٍ محكماتٍ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٤٨ ـ ٥٠] قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١٠ ـ ١١] .

وقد نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ **يبيّنُ الحكمةَ من خلق النجوم** قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٧] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥] فهذه ثلاثُ حكمٍ جعلها الله سبحانه وتعالى في خلق النجوم ، **فهي زينةٌ** للسماء ، **ورجومٌ تُرْجَمُ بها الشياطينُ** عند استراقهم السمع ، **ووسيلةٌ للاهتداء في ظلمات البر والبحر**(٢).

٥ ـ السحر:

وهي رقًى وعزائمُ وعُقَدٌ يفعلها السحرةُ ، تؤثّر في القلوبِ والأبدانِ بمرضٍ ، أو قتلٍ ، أو تفريقٍ بينَ المرءِ وزوجه ، وغيرِ ذلك ، كما أخبر الله عن ذلك في كتابه الكريم ، فقال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢] ، ويقع ضرره بمشيئة الله عز وجل ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢] .

والسحر حقيقة ، وقد أمر الله بالاستعاذة من أهلِه إذ يقول عز وجل في سورة الفلق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن

---

(١) حماية حمى التوحيد ص (٣٢٣).

(٢) حماية الرسول حمى التوحيد ص (٣٢٦).

شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ و(النفاثات): هنَّ السواحرُ.

وبيّنَ سبحانه أنَّ **السحرَ كفرٌ بالله تعالى**: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] قال أبو بكر بن العربي: وما كفرَ سليمان قطُّ، ولا سحرَ، ولكنّ الشياطين كفروا بسحرِهم، وأنّهم يعلّمونه الناس، ومعتقِدُ السحرِ كافرٌ، وفاعله كافِرُ، ومعلِّمه كافر، ويعلّمون الناسَ ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما كانَ الملكانِ يعلمان أحداً حتى يقولا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقد ذَمَّ الله عز وجل السحرَ وأهلَه في كتابه الكريم، وبيّنَ بطلانَ عملِهم، وأنَّهم لا خلاقَ لهم في الآخرة، وجاء ذلك في آيات كثيرة من كتابه، منها قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١] وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

وقال رسول الله ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقاتِ**» قالوا: يا رسول الله وما هُنّ؟ قال: «**الشركُ باللهِ، والسِّحْرُ، وقتلُ النَّفْسِ التي حرّم الله إلا بالحق، وأكلُ مالِ اليتيم، وأكلُ الربا، والتولِّي يومَ الزحف، وقذفُ المحصناتِ المؤمناتِ الغافلَات**»(١).

٦ ـ الكهانة:

تضافرتِ الآياتُ والأحاديثُ الصحيحة بالنهي عن إتيانِ الكُهّان وتصديقهم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الوصايا، باب: قول الله تعال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] (٢٦١٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها (٨٩).

فيما يقولون ، وتحريم ما يُعْطَوْن من حلوان[1]. قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٣] .

وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أتىٰ عرَّافاً ، فسأله عَنْ شيءٍ ، لم تُقبلْ له صلاةٌ أربعينَ ليلةً**»[2].

وعن أبي مسعود قال: **نهى رسولُ الله ﷺ عن ثمنِ الكَلْبِ ، ومَهْرِ البَغِيِّ ، وحُلوانِ الكاهنِ**[3].

٧ ـ الشفاعة:

بيّن الرسولُ ﷺ للناس الصراطَ المستقيمَ الذي يصلُهم بربّهم دون شفعاء ولا وسائط ، وهو طريقُ التوحيدِ الخالصِ للهِ عزّ وجلّ ، وإفرادِهِ سبحانه بالعبادةِ دون ما سواه .

أمّا الشفاعةُ المثبتةُ التي أثبتها القرآن الكريم وبينها رسولُ اللهِ ﷺ فلها شرطان:

الأول ـ الإذن مِنَ اللهِ تعالى للشافع ، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .

والثاني ـ الرضا عن المشفوعِ له ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] . .

وهذه الشفاعةُ خَصَّ الله تعالى بها أهلَ توحيدِهِ وعبادتِهِ تفضُّلاً منه وكرماً ، فهذه خاصّةٌ بهم ، لأنّهم لم يتّخذوا من دونِ الله ولياً ولا شفيعاً ، وقد رضي الله قولَهم وعملَهم ، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله**!**

---

(١) موقف الإسلام من السحر ، حياة سعيد (١ / ٢٣٧) حلوانُ الكاهن ما يعطاه من مالٍ على كهانته .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: السلام ، باب: تحريم الكهانة واتيان الكهان (٢٢٣٠) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: البيوع ، باب: ثمن الكلب (٢١٢٢) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: المساقاة ، باب: تحريم ثمن الكلب ، وحلوان الكاهن ، ومهر البغي (١٥٦٧) . وحلوان الكاهن ما يعطاه من مال على كهانته .

مَنْ أسعدُ النّاسِ بشفاعتك يومِ القيامة؟ قال عليه الصلاةُ والسلامُ: «**أسعدُ الناسِ بشفاعتي يوم القيامةِ مَنْ قالَ لا إلهَ إلا الله خالِصاً مِنْ قلبِهِ أو نفسه**»[١].

وأول الشافعين رسولُ الله ﷺ أمامُ الموحّدين، وخاتمُ المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والذي اختصّه الله تعالى وأكرمه بشفاعات عظيمة في ذلك اليوم، تفضُّلاً وتكريماً منه سبحانه لرسوله محمّد ﷺ، ورحمةً بأمته ﷺ.

قال رسول الله ﷺ: «**لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ، فتعجَّلَ كلُّ نبيٍّ دعوتَه، وإنِّي اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يومَ القيامةِ، فهي نائلةٌ إنْ شاءَ الله مَنْ ماتَ من أمتي لا يشرِكُ باللهِ شيئاً**»[٢].

فله ﷺ الشفاعةُ العظمى يومَ القيامةِ، والتي يتخلّى عنها أولو العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهي - كما بيّنَ - لأهلِ التوحيدِ من أمته، وهو الذي يشفع في دخول المؤمنينَ الجنة، وفي إخراجِ عصاة الموحّدين من النارِ.

والشفاعةُ إنّما تكون وتنفع أهلَ التوحيد، أمّا غيرهم فهم كما قال عز وجل ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨][٣]

وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: العلم، باب: الحرص على الحديث (٩٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: اختباء النبيِّ دعوة الشفاعة لأمته (١٩٩).

(٣) حماية الرسول حمى التوحيد ص ٣٤٨ والنهاية في الفتن والملاحم ص (٣٨٨).

المبحث السادس

الإيمان بالله جلّ جلاله

أولاً ـ الإيمان لغة وشرعاً ، وزيادة ونقصاناً .

ثانياً ـ الإسلام والإيمان والإحسان .

ثالثاً ـ أصل الإيمان بالله عز وجل .

رابعاً ـ الأسس التي يقوم عليها الإيمان بالله جل جلاله .

خامساً ـ شرح بعض الآيات التي تتحدّث عن الإيمان بالله جل جلاله .

سادساً ـ أسباب قوة الإيمان بالله جل جلاله .

سابعاً ـ صفات المؤمنين .

ثامناً ـ من فوائد الإيمان بالله تعالى وثمراته .

* * *

المبحث السادس

الإيمان بالله جلّ جلاله

أولاً ـ الإيمان لغة وشرعاً وزيادة ونقصاناً:

الإيمان **لغة**: التصديق، قال تعالى حكايةً عن إخوة يوسف مع أبيهم: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] أي: **بمصدِّقٍ لنا**.

وشرعاً: هو نطقٌ باللسانِ، واعتقادٌ بالقلبِ، وعملٌ بالجوارحِ، ويزيدُ بالطاعةِ، وينقُصُ بالمعصيةِ(١).

ومن الأدّلة من الكتاب والسنة على زيادة الإيمان ونقصانه: قوله تعالى: ﴿ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ [المدثر: ٣١] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَانٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢] وقال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴾ [مريم: ٧٦] وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وعن جندب بن عبد الله قال: كنّا مع النبيِّ ﷺ ونحن فتيان حِزاورة، فتعلَّمنا الإيمانَ قبل أنْ نتعلّمَ القرآنَ، ثم تعلّمنا القرآنَ فازددنا به إيماناً(٢).

وقال رسول الله ﷺ «**الإيمانُ بضعٌ وسبعون أو بضع وستون شعبةً، فأفضلُها**

---

(١) فتح الباري (١/ ٤٥ ـ ٤٨)، شرح أصول اعتقاد وأهل السنة (١/ ١٥١).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: المقدمة، باب: في الإيمان (٦١). قال الهيثمي (١/ ١٢): إسناده صحيح. **والحزاورة**: الغلمان الأشداء.

قولُ: لا إلـهِ إلا الله ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريقِ ، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان»(١) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ ، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُ وهو مؤمنٌ ، ولا يسرقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ ، ولا يَنْتَهِبُ**(٢) **نهبةً يرفع الناسَ إليه فيها أبصارُهم حين ينتَهِبَها وهو مؤمنٌ**»(٣) . والقول الصحيح الذي قاله المحققون في شرح هذا الحديث: إنّ معناه لا يفعلُ هذه المعاصي وهو كامِلُ الإيمان(٤) .

والطاعات والأعمال الصالحة داخلة في الإيمان ، ومن الأدلة على ذلك: قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١] .

وقد أطلق القرآن الكريم لفظَ الإيمانِ على العمل في بعض الآيات ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] والإيمان هنا يراد به الصلاة ، وقد ذهبَ جمهورُ المفسّرين إلى هذا ، بل إنَّ الصحابة فهموا هذا ، وتضافرت الروايات عنهم في سبب نزول الآية(٥) .

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء ، وكونه من الإيمان (٣٥) .

(٢) أي: لا يختلس شيئاً له قيمة عالية .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: المظالم والغصب ، باب: النهبى بغير إذن صاحبه (٢٤٧٥) وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية ، على إرادة نفي كماله (٧٥) .

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١ / ١٤٢) .

(٥) فقه النصر والتمكين ص (١٦٣) .

ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَـٰهَدُواْۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] فالآيةُ اعتبرتْ هذه الخصالَ تصديقاً وإيماناً، وجعلتْ أعمال البرِّ هذه من الإيمانِ، ووجهُ الدلالةِ مِنَ الآيةِ ما فسّره رسولُ اللهِ ﷺ حيث روى عبد الرزاق في «مصنفه» وغيره عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان، فتلى عليه هذه الآية ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ... إلخ﴾ والحديثُ رجالُه ثقات(١).

ثانياً ـ الإسلام والإيمان والإحسان:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بينما نحنُ عندَ رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يوم، إذْ طلعَ علينا رجلٌ، شديدُ بياضِ الثيابِ، شديدُ سوادِ الشعرِ، لا يُرَىٰ عليه أثرُ السفرِ، ولا يعرفُه منّا أحدٌ، حتى جلسَ إلى النبيِّ ﷺ، فأسندَ ركبتيه إلى ركبتيه، ووضعَ كفّيه على فَخِذيه وقال: يا محمّدُ، أخبرني عن الإسلامِ.

فقال رسول الله ﷺ: **«الإسلامُ أنْ تشهدَ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ، وأنَّ محمّداً رسولُ اللهِ، وتقيمَ الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيتَ إنِ استطعتَ إليه سبيلاً»**

قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسألُه ويصَدِّقُه. قال: فأخبرني عن الإيمان؟

قال: **«أن تؤمن باللهِ، وملائكتِهِ، وكتبِهِ، ورسلِه، واليوم الآخرِ، وتؤمِنَ بالقدرِ خير وشرِه»**.

قال: صدقتَ، قال: فأخبرني عن الإحسان؟

قال: **«أنْ تعبدَ اللهَ كأنّكَ تراه، فإنْ لم تكنْ تراه فإنّه يراك»**.

إلى أن قال: **«يا عمر أتدري مَنِ السائل؟»**

قلت: الله ورسوله أعلم.

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الإيمان باب أمور الإيمان (١ / ٥١).

قال: «**إنّه جبريلُ، أتاكُم يعلّمكم دينكم**»(١). فجعل الدِّينَ هو الإسلامَ والإيمانَ والإحسانَ.

فتبيّن أنَّ ديننا يجمعُ الثلاثةَ، لكن هو درجاتٌ ثلاثٌ: مسلمٌ، ثم مؤمنٌ، ثم مُحْسِنٌ، والمراد بالإيمان ما ذُكِرَ مع الإسلام قطعاً، كما أنّه يريدُ بالإحسان مع الإيمان والإسلام، لا أنَّ الإحسانَ يكون مجرداً عن الإيمان(٢). وهذا كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢] والمقتصد والسابق كلاهما يدخلُ الجنة بلا عقوبة، بخلاف الظالم لنفسه، فإنّه مُعَرَّضٌ للوعيد، وهكذا مَنْ أتى بالإسلام الظاهر مع التصديق بالقلب، لكن لم يَقُمْ بما يجب عليه من الإيمان الباطن، فإنّه معرَّضٌ للوعيد.

فأما الإحسان وهو أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أهله، والإيمانُ أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أهله من الإسلام، فالإحسانُ يدخل فيه الإيمانُ، والإيمانُ يدخل فيه الإسلامُ، والمحسنون أخصُّ من المؤمنين، والمؤمنون أخصُّ من المسلمين(٣).

ثالثاً ـ أصل الإيمان بالله جلَّ جلاله:

بأصل الإيمانِ يدخلُ العبدُ في الإسلام، وبه يكونُ اعتبارُ سائرِ الأعمال، وبصلاحِ ما في القلبِ أو فسادِهِ يكونُ صلاحُ الأعمالِ أو فسادُها، قال رسول الله ﷺ: «**ألا إنَّ في الجسدِ مضغةٌ إذا صَلَحتْ صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهيَ القلبُ**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان، والإسلام، والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى (٨).
(٢) المنحة الإلهية في تهذيب الطحاوية ص (١٤٦).
(٣) المصدر نفسه ص (١٤٧).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب: المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

فأصل الإيمان في القلبِ ، وهو قولُ القلبِ وعملُه ، وهو إقرارٌ بالتصديقِ والحُبِّ والانقيادِ.

فالتصديقُ: هو قولُ القلبِ ، وهوالمعرفةُ والإثباتُ لما دلّت عليه الشهادتان.

والحبُّ: عملُ القلبِ نحو المشهودِ لهما ، وهو الله تبارك وتعالى في شهادة **(أن لا إلهَ إلّا الله)** ، ومحمّدٌ بنُ عبدِ الله في شهادةِ **(أنَّ محمّداً رسولُ اللهِ)** ، فيحبُّ اللهَ ورسولَه ﷺ ودينَه.

والانقيادُ: عملُ القلبِ أيضاً ، وهو القبولُ ، وعقدُ العزمِ على الامتثال لما دلّتْ عليه الشهادتان[١].

وينعقد أصل الإيمان بالله عزّ وجلّ بثلاثةِ أمورٍ:

الأول ـ النطق بالشهادتين.

والثاني ـ قول القلب ، وهوالعلم والتصديق بمعناهما ، وأنّ الرسول ﷺ صادقٌ في كلِّ ما أخبرَ به عن الله.

والثالث ـ عمل القلب ، وهو قبولُ التوحيدِ ، والبراءةُ من ضدّه ، والمحبةُ للهِ ولرسوله ﷺ ولدينِه ، والعزمُ على الانقيادِ لهما.

فإذا جاءَ العبدُ بأصلِ الإيمانِ ، فهو مأمورٌ مكلَّفٌ بتكميلِ إيمانِهِ ، ليس له أمنٌ في الحياة الدنيا ولا في الآخرةِ إلّا بذلك ، فإذا عملَ العبدُ الطاعاتِ ، واجتنبَ المحرّماتِ ، فقد استكملَ عُرَى الإيمانِ الواجبِ ، وأصبحَ في مرتبةِ المقتصد[٢].

وقد كتب عمرُ بنُ عبد العزيز إلى عَدِيِّ بن عَدِيٍّ أنّ للإيمانِ فرائضَ وشرائعَ وحدوداً وسنناً ، فمنِ استكملَها استكملَ الإيمان ، ومن لم يستكمِلْها لم يستكملِ الإيمانَ[٣].

---

(١) أثر الإيمان في تحصين الأمة (١ / ١٩١).

(٢) المصدر نفسه (١ / ١٩٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بني الإسلام على خمس معلقاً ١/ ١١) ووصله ابن أبي شيبة في مصنفه كتاب: الإيمان والرؤيا ، باب (٣٠٤٤٤).

رابعاً ـ الأسس التي يقوم عليها الإيمان بالله جلّ جلاله:

يقوم الإيمانُ بالله عز وجل على أسسٍ من أهمها:

١ ـ **الكفر بالطاغوت:** فُسِّرَ الطاغوتُ بالشيطانِ، والساحرِ، والكاهنِ، والأصنام(١)، وهذا تفسيرٌ لـه ببعـض أفرادِهِ، وإلاّ **فالطاغوتُ يطلَقُ على كلِّ مَنْ طغى وتجـاوزَ حـدَّه، وادّعى حقاً من حقـوقِ اللهِ التي تفرّدَ بها**(٢). قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧] وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ التطهيرَ مقدَّمٌ على التزكيةِ، وأنَّ تخليصَ القلبِ من أدرانه ونجاستهِ المتمثّلةِ بالمعتقداتِ الباطلةِ وما يترتّبُ عليها من محبّةِ الطواغيتِ أو التعلُّق بهم واجبٌ، لحلول الإيمانِ بالقلبِ(٣).

٢ ـ الإيمانُ بالغيب:

قال تعالى: ﴿الم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٣].

والغيب: هو كلُّ ما غابَ عنك، وفي قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: آمنوا بالله، وملائكته، ورسله، واليومِ الآخر، وجنته، وناره، ولقائه، وآمنوا بالحياة بعد الموت(٤)، وقد جمعَ الرسولُ ﷺ أصولَ الأمور الغيبيّة بتعريفه للإيمانِ في حديث جبريل عليه السلام ـ حيث قال: «**أنْ تؤمنَ باللهِ، وملائكتهِ، وكتبهِ، ورسلِهِ، واليومِ الآخرِ، وتؤمنَ بالقدرِ خيرهِ وشرّه**»(٥).

٣ ـ امتثالُ الأوامرِ واجتنابُ النواهي:

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ففي هذه الآيةِ

---

(١) جامع البيان لابن جرير (٣/ ٢١٨، ١٩).
(٢) أثر الإيمان (١/ ٤٧).
(٣) أثر الإيمان (١/ ٤٤).
(٤) جامع البيان (١/ ١٠١).
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى(٨).

بيانٌ للحكمةِ التي خلق الله الناسَ من أجلِها ، وهي أنْ يكلِّفَهم بعبادته ، بالامتثال لأوامره ، والانتهاء عن نواهيه ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [البقرة: ٢٠٨] **والسلم**: هو الإسلام ، والمراد: **بكافة**: أي جميع شرائع الإسلام ، ففي الآيةِ يدعو الله المؤمنينَ إلى الأخذِ بجميع شرائع الإسلام ، وإقامةِ جميع شرائع الإسلام ، وإقامةِ جميعِ أحكامهِ وحدودهِ ، دون تضييعِ بعضِه ، والعملِ ببعضه[١] .

٤ ـ الإخلاص لله في العبادة:

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩] .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ﴾ [غافر: ٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ [الزمر: ٣] فالإخلاصُ شرطٌ في صحّةِ العبادةِ ، وأساسٌ مهّمٌ من أُسس الإيمان ، ومن دونه لا يدخلُ العبد في ولايةِ اللهِ ، ولا يُقْبَلُ منه عمل ، ولا يَتَحَصَّلُ على ثمراتِ الإيمان وكراماتِه التي وعدَ بها عبادَه المؤمنين[٢] .

٥ ـ صدق المتابعة للنبيِّ ﷺ:

قال تعالى : ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٢١] هذه الآيةُ الكريمةُ أصلٌ كبيرٌ في التأسّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله[٣] ، وقال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف: ١١٠] . وهذان ركنا العمل المتقبَّل لابدّ أن يكون صواباً خالصاً. **فالصواب**: أن يكون على السنّةِ ، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا ﴾ . **والخالص**: أن يخلصَ مِنَ الشركِ الجليِّ

---

(١) جامع البيان (٢ / ٣٢٤).
(٢) أثر الإيمان (١ / ٦٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦ / ٣٩٢).

والخفي ، وإليه الإشارةُ بقوله : ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[١] .

٦ ـ العلم:

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٥] فالعلمُ أساسٌ هامٌّ في الإيمان بالله ، وركنٌ بارزٌ في دعوة النبيِّ ﷺ ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨] فدلّتْ هذه الآية على أنَّ طريقَ النبيِّ ﷺ يقوم على ثلاثةِ أمورٍ :

الأول ـ التوحيدُ الخالِصُ ، القائم على فعل الطاعات ، واجتناب المحرمات ، مع الإخلاص لله في ذلك .

والثاني ـ الدعوة إلى التوحيد .

والثالث ـ العلمُ والبصيرةُ في ذلك كله[٢] .

وقد بين سبحانه أنّ التعليم من أخصِّ وظائفِ النبيِّ ﷺ ، وأنّه أخرج به المسلمين من الضلال المبين ، فقال سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] . فيجب علينا أن نعلم أهم المسائل هي :

الأولى ـ العلم، وهو معرفةُ الله، ومعرفةُ نبيه ﷺ، ومعرفةُ دين الإسلام بالأدلّةِ .

والثانية ـ العمل به .

والثالثة ـ الدعوة إليه .

والرابعة ـ الصبر على الأذى فيه .

والدليل قول الله تعالى في سورة العصر : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ .

إنّ العمل الصالح يقومُ على الإيمان ، والإيمانُ يقوم على التوحيدِ ، والإيمانُ

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص (٥٢٥) .
(٢) جامع البيان (١٣ / ٧٩ ، ٨٠) ، أثر الإيمان (١ / ٧١) .

الذي يريده الله هو الإيمانُ الحيُّ الفاعِلُ ، هو الإيمانُ المؤثّر النامي ، هو الإيمانُ القائِدُ الموجِّه. . . الإيمانُ الذي ينفعُ صاحبَه ، هو الإيمان الذي ينغرِسُ في قلبه ، فينمو ويزدهر ، وينير ويضيء ، ويزين هذا القلب بزينته ، ويملؤه في كل جوانبه وزواياه ، الإيمان الذي يمدُّ أغصانَه وفروعه على كيان هذا المؤمن ووجوده ، ويلقي ظلالَه على حياتِه وواقعِه ، ويعطي ثمارَه له في ليلِه ونهارِه ، الإيمانُ الذي عاشه المؤمنون الصادقون العاملون من الأنبياء والأولياء الصالحين ، هو الذي تَنْتُجُ عنه الأعمالُ ، ويُضْبَطُ به السلوكُ ، ويَصْلُحُ به الواقعُ ، وتستقيمُ به الحياةُ ، الإيمانُ المعبِّرُ هو الذي يبعثُ على الهمّةِ ، والنشاطِ ، والسعي ، والجهد ، والمجاهدة ، والجهاد ، والتربية ، والاستعلاء ، والعزة ، والثبات ، واليقين[١] .

خامساً ـ شرح بعض الآيات التي تحدثت عن الإيمان:

الأولى ـ زينة الإيمان:

قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجرات : ٧] لمّا كانتِ المعاصي بعضُها كفرٌ ، وبعضُها ليس بكفرٍ، فَرّقَ بينها فجعلها ثلاثةَ أنواع : نوعٌ منها **كفرٌ**، ونوعٌ منها **فسقٌ** ليس بكفر ، ونوعٌ **عصيان** ليس بكفر ولا فسق. وأخبر أنّه كرهها كلَّها للمؤمنين.

ولمّا كانتِ الطاعاتُ كلُّها داخلةٌ في الإيمان ، وليس فيها شيءٌ خارجٌ عنه لم يفرِّقْ بينها ، فيقول: حبب إليكم الإيمان والفرائض وسائر الطاعات ، بل أجمل ذلك فقال: ﴿ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ فدخل في ذلك جميعُ الطاعات[٢] .

الثانية ـ نور الإيمان:

قال تعالى : ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [النور: ٣٥] وقد فُسِّرَ قولُه تعالى : ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) في ظلال الإيمان ص (٦٣).
(٢) الأمثال القرآنية (١ / ١٩٤) مجموع الفتاوى (٧ / ٤٢).

وَٱلْأَرْضِۚ﴾ بكونه منوِّرُ السماوات والأرض ، وهادي أهلِ السماواتِ والأرض ، فبنوره اهتدى أهلُ السماواتِ والأرض ، وهذا إنّما هو فعلُه ، وإلاّ فالنورُ من أوصافه ، قائمٌ به ، ومنه اشتق اسم النور الذي هو أحدُ الأسماءِ الحسنى ، والنورُ يضافُ إليه سبحانه على أحدِ وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها ، وإضافة مفعول إلى فاعله[1] . وفي قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ وهو أنّ **أصل الإيمان يكونُ من الله** ، عندما يشرحُ صدر عبدِه المؤمنِ للإسلام، ويجعل له نوراً، فيبدأ به النور والحياة.

وقد شبّه العلمَ المستفاد من الوحي الواصلِ للقلب بالزيت الجيّدِ ، فاستدامةُ النورِ وقوتُه وسلامتُه ، وتنامي حياة القلب ، إنّما تكونُ بالعلم بالكتاب والسنة والعمل به ، فهي غذاؤه ومادّةُ حياته[2] .

إنّ ضياءَ النار يحتاجُ في دوامه إلى مادّةٍ تحمله ، وتلك المادة للضياء بمنزلةِ غذاء الحيـوانِ ، كذلـك **نـورُ الإيمان يحتاجُ إلى مادّةٍ من العلم النافع ، والعمل الصالح يقومُ بها ، ويدوم بدوامها** ، فإذا ذهبتْ مادّةُ الإيمان طفىء كما تُطْفَأُ النارُ بفراغ مادتها[3] .

إنّ المثلَ دلَّ على **أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقصُ** ، **يزيدُ بزيادةِ العلمِ الواصلِ للقلبِ المستفادِ من نورِ الكتابِ والسنةِ ، كما ينقصُ بنقصِهِ**. ومأخذُ ذلكَ من المثل هو تشبيهُ العلمِ الذي يمدُّ القلبَ بالمعارِف والحقائقِ الإيمانيةِ بالزيتِ الذي يمدُّ المصباحَ بالوقودِ ، وأنَّ المصباحَ يزيدُ ضوؤه ، ويصفو بزيادةِ الزيتِ وجودتِهِ ، والمؤمنون يتفاوتون بقوّة النورِ الكائن في قلوبهم بحسب ما عندهم من العلم والإيمان ، وأكملُ المؤمنينِ نوراً هو النبيُّ ﷺ لكمالِ علمِهِ وإيمانِهِ.

إنّ المثلَ دلّ على **أنَّ النور الذي يجعله الله في قلوب المؤمنين نور حقيقي** ، ومأخذُ ذلكَ هو تشبيه ذلك النورِ الذي يُعلمُ معناه ، ولا تُعقل كيفيته بنورِ المصباح المحسوس ، فالتشبيه بالمحسوس يؤكِّدُ وجودَه وحقيقته[4] .

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص (٦).
(٢) المصدر نفسه ص (٢٠) ، الأمثال القرآنية (١ / ٣٦٠).
(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية ص (٢٠).
(٤) الأمثال القرآنية (١ / ٣٧٠ ـ ٣٧٥).

هناك تشابه بين **الفطرة والفتيلة** ، من حيثُ إنّ كلاًّ منهما في أصلِ خَلْقِهِ وصنعه مهيّأٌ لاستدعاء وتشرُّب ما يناسبه ، **فالفتيلةُ** تتشرَّبُ الوقودَ المناسِبَ ، وتمتصُّه ، وتتبلَّلُ به ، وتصبحُ مهيأةً به للاشتعال إذا أُوقدت. وكذلك **الفطرة** على الدين الحنيف التي فطر الله قلوبَ العبادِ عليها مهيأةٌ لاستدعاء ما يناسِبُ ما فُطِرَتْ عليه من التوحيد والدين والحق ، فإذا تشّربتْ ما يَرِدُ إليها من ذلك مِنَ العلمِ بالكتابِ والسنّةِ ، فإنّها تكونُ مهيأةً لإيقادِ مصباحِ القلبِ ، وقذفِ نورِ الإيمانِ بِهِ ، قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الروم: ٣٠] فالله عزّ وجلّ فطر كلَّ الناسِ على معرفته وتوحيده ومحبته ، وجبل نفوسَهم على استدعاء وقبول ما يناسب ذلـك من الدين والإسلام. والفطرةُ تزكو بالعلمِ المستمدِّ من الكتابِ والسنةِ ، وتطهيرها من مكايد شياطين الإنس والجن ، الذين يجتهدون في إفسادِها(١).

إنَّ المثلَ دلّ على **أثرِ نورِ العلمِ والإيمان على العقلِ** ، حيث أكسبه سلامةَ التعقُّل ، وسدادَ النظرِ ، وصِحّةَ الاستنتاج ، **وأنّ الطريق إلى الحقِّ في كلِّ المطالب الدينية إنّما يكونُ بإعمالِ العقلِ المستنيرِ بالوحي النازل على الرسول ﷺ لاستخلاص الحقائق والمعارف اليقينية وغيرها** ، **وأنّ العقلَ المجرّدَ عن العلم لا سبيلَ له إلى تلك الحقائق**.

كما دلَّ المثلُ على **أنّ النورَ سطع وأشرق على كلِّ أعمال القلب** ووظائفه الأخرى من العقائد ، والعواطف ، والإرادات ، والانفعالات ، فأخصبَها بالخيرِ والسلامةِ والصلاحِ(٢).

في قوله ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ ﴾ دلَّ على **أنَّ نور القرآن والسنة والعلم المستفاد منهما يغذي نور الإيمان** ، **ويزيدُه ويقوّيه**. وفي قوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ دليلٌ على أن **النورين من الله** ، نور الإيمان الذي يُقْذَفُ في القلبِ ، ونور العلمِ الذي طريقُه الوحي ، فمن هُدِيَ إلى الأول ، واهتدى بالثاني ، فقد أعطاه الله نوراً

(١) المصدر نفسه (١ / ٣٩٠ ـ ٤١٢).
(٢) الأمثال القرآنية (١ / ٤١٨).

تاماً ، ومن أضلّه الله فليسَ له من نورٍ ، بل هو في طريقٍ من طُرقِ الضلال ، سائرٌ في الظلّماتِ(١) .

الثالثة ـ روح الإيمان:

قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢] . فسمّى وحيَه **روحاً** لِمَا يحصلُ به مِنْ حياةِ القلوبِ والأرواح التي هي الحياةُ في الحقيقة ، ومن عَدِمَها فهو ميتٌ لا حيٌّ . . . وسمّاه **نوراً** لما يحصل به من استنارةِ القلوبِ وإضاءتها ، وكمال الروح بهاتين الصفتين بالحياة والنور ، ولا سبيلَ إليهما إلا على أيدي الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، والاهتداء بما بعثوا به ، وتلقّي العلم النافع والعمل الصالح من مشكاتهم ، وإلا فالروحُ ميّتةٌ مظلمةٌ ، وإن كان العبدُ مشاراً إليه بالزهد والفقه والفضيلة والكلام في البحوث ، فإنّ الحياةَ والاستنارةَ بالروح الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ ، وجعله نوراً يهدي به مَنْ يشاء من عباده ، فليس العلم كثرةَ النقل والبحث والكلام ولكنّه نورٌ يميِّزُ به صحيحَ الأقوالِ من سقيمِها ، وحقَّها مِنْ باطِلها ، وما هو من مشكاةِ النبوّةِ مما هو من آراء الرجال(٢) .

سادساً ـ أسباب قوة الإيمان:

هذا الفصلُ عظيمُ النفعِ والحاجةِ ، بل الضرورةُ ماسّةٌ إلى معرفته والعناية به معرفةً واتصافاً ، وذلك أنّ الإيمانَ هو كمالُ العبدِ ، وبه ترتفعُ درجاته في الدنيا والآخرة ، وهو السببُ والطريقُ لكلِّ خيرٍ عاجلٍ وآجلٍ ، ولا يحصلُ ، ولا يقوى ، ولا يتمُّ إلا بمعرفةِ ما منه يُسْتَمَدُّ ، وإلى ينبوعه وأسبابه وطُرُقه ، والله تعالى قد جعلَ لكلِّ مطلوبٍ سبباً وطريقاً يوصِلُ إليه ، والإيمانُ أعظمُ المطالِبِ وأهمُّها وأعمُّها ، وقد جعل الله له مواد كثيرةً تجلبه وتقوّيه ، كما كانت له أسبابٌ تضعفه وتوهّيه .

ومواده التي تجلبه وتقوِّيه أمران : مجملٌ ومفصّلٌ :

---

(١) المصدر السابق (١ ٤٢٠) .

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص (٢٤) .

أما **المجمل** فهو: **التدبّر لآياتِ الله المتلوّةِ** من الكتاب والسنة، **والتأمل لآياته الكونية** على اختلاف أنواعها، والحرص على معرفة الحق الذي خُلِقَ له العبد، والعمل بالحق، فجميعُ الأسبابِ مرجعُها إلى هذا الأصل العظيم[(١)].

وأما **التفصيل**: فالإيمان يحصل ويقوىٰ بأمورٍ كثيرةٍ، منها:

١ ـ معرفة أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة، والحرص على فهم معانيها، والتعبّد لله بها:

قال رسول الله ﷺ: «**إنّ للهِ تسعةً وتسعين اسماً، مئةً إلّا واحداً، مَنْ أحصاها دخلَ الجنّة**»[(٢)] أيْ مَنْ حفظَها، وفهمَ معانيها، واعتقدها، وتعبَّدَ اللهَ بها دخل الجنّةَ، والجنّةُ لا يدخلُها إلا المؤمنون، فعَلِمَ أنَّ ذلك أعظمُ ينبوعٍ ومادّةٍ لحصولِ الإيمان وقوّته وثباته. ومعرفةُ الأسماءالحسنى هي أصلُ الإيمانِ، والإيمانُ يرجِعُ إليها، فكلّما ازداد العبدُ معرفةً بأسماءِ الله وصفاته ازدادَ إيمانه، وقويَ يقينُه، فينبغي للمؤمن أن يبذلَ مقدروه ومستطاعه في معرفة الأسماء والصفات، وتكونَ هذه المعرفة متلقّاةً من الكتاب والسنة، وما روي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسانٍ، فهذه المعرفةُ النافعةُ تجعلُ المؤمنَ في زيادةٍ في إيمانه، وقوّةٍ في يقينه، وطمأنيةٍ في أحواله[(٣)].

٢ ـ تدبّر القرآن الكريم على وَجْهِ العموم:

إنَّ المتدبّرَ لا يزالُ يستفيدُ من علوم القرآن ومعارفه ما يزدادُ به إيماناً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] وهو العلاجُ الناجعُ لأمراضِ القلوبِ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] إنّه موعظةٌ من الله، وهل هناك أبلغُ من الموعظةِ الربانية؟! وأيسرُ منها؟! وأكثرُ نفاذاً إلى القلبِ والضميرِ؟! ففيه الشفاءُ لأمراضِ الشبهاتِ والشهواتِ، وأمراض الهوى والانحراف، وأمراض الشكِّ والشرك، وأمراضِ القلوبِ والنفوسِ، والجوارحِ،

---

(١) شجرة الإيمان للسعدي ص (٣٩).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) شجرة الإيمان للسعدي ص (٤١).

والحواس ، وأمراض السياسة والاقتصاد والأخلاق والاجتماع والحياة والحضارة[١] ، قال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء : ٨٢] فهو غذاءٌ للروح ، وعلاجٌ يشفي النفوسَ من عللِها ، ويكسبُها المناعةَ القويّةَ[٢] .

ومن ثمراتِ تدبُّرِ القرآن : أنّه **وسيلةٌ لمعرفة ما يريدُ الله منا ، وكيفيّةُ عبادَته تبارك وتعالى** ، ومعرفة ما أنزل الله إلينا ، لأنّ **القرآن الكريم منهجُ حياةٍ أنزله الله عز وجل ، وهو أساسُ التشريع الذي يجبُ على العبادِ أن يتدبّروه ، ويلتزموا بأوامره ، ويجتنبوا نواهيه ليحقّقوا عبادةَ اللهَ تعالى**[٣] .

وإذا نُظِرَ إلى انتظامِ القرآنِ الكريمِ وإحكامِهِ ، وأنَّه يصدِّقُ بعضُه بعضاً ، ويوافِقُ بعضُه بعضاً ، ليس فيه تناقضٌ ولا اختلافٌ : تيقّنَ أنه ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] وأنّه لو كان مِنْ عندِ غيرِ الله لوُجِدَ فيه من التناقضِ والاختلافِ أمورٌ كثيرة ، قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] وهذا مِنْ أعظمِ مقوّيات الإيمان ، ويقوّيه من وجوهٍ كثيرةٍ ، فالمؤمنُ بمجرَّد ما يتلو آياتِ الله ، ويعرف ما اشتمل عليه من الأخبار الصادقة والأحكام الحسنة ، يحصل له من أمورِ الإيمانِ خيرٌ كبيرٌ ، فكيف إذا أحسنَ تأمُّله ، وفهمَ مقاصده وأسراره؟ ولهذا كان المؤمنون الكُمّلُ يقولون : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ ﴾ [آل عمران : ١٩٣] .

٣ ـ معرفةُ سيرة النبيِّ ﷺ وشمائله:

فإنَّ مَنْ عرفه حقَّ المعرفةِ لم يَرْتَبْ في صدقه ، وصدقِ ما جاء به ، قال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ أي : فمعرفته ﷺ توجِبُ للعبدِ المبادرةَ إلى الإيمانِ ممّن لم يؤمنْ ، وزيادةَ الإيمانِ ممّن آمنَ به ، وقال تعالى مشجِّعاً لهم على تدبّر أحوال الرسول ﷺ الداعية للإيمان : ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم

(١) الإيمان أولاً فكيف نبدأ به ، د. الهدلي ص (١١٩).
(٢) هجر القرآن العظيم د. محمود الدوسري ص (٥٦٧).
(٣) المصدر نفسه ص (٥٦٦).

بِوَاحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] وأقسمَ تعالى بكمال هذا الرسولِ ، وعظمةِ أخلاقه ، وأنّه أكملُ مخلوقٍ قال تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١ ـ ٤] فهو ﷺ أكبرُ داعٍ للإيمان في أوصافه الحميدة ، وشمائله الجميلةِ ، وأقوالِه الصادقةِ النافعةِ ، وأفعالِه الرشيدةِ ، فهو الإمامُ الأعظمُ ، والقدوةُ الأكملُ ، وقد ذكرَ اللهُ عن أولي الألبابِ الذين هم خواصُّ الخَلْقِ أنّهم قالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ وهو هذا الرسول الكريم ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ﴾ بقوله وخُلُقِهِ ، وعملِه ودينِه وجميع أحوالِه ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّاۚ﴾ [آل عمران: ١٩٣] أي: إيماناً لا يدخلُه ريبٌ ، ولمّا كانَ هذا الإيمانُ مِنْ أعظمِ ما يقرِّبُ العبدَ إلى اللهِ ، ومن أعظمِ الوسائلِ التي يحبُّها الله ـ توسُّلوا بإيمانهم أنْ يكفِّرَ عنهم السيئاتِ ، وينيلهم المطالبَ العالياتِ قالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣] ولهذا كان الرجلُ المنصِفُ الذي ليسَ له إرادةٌ إلاّ اتباع الحقِّ مجرّد ما يراه ويسمع كلامه يبادر إلى الإيمان به ﷺ ، ولا يرتابُ في رسالته ، بل كثيرٌ منهم مجرَّد ما يرى وجهه الكريم ﷺ يعرف أنّه ليس وجه كذاب[١] .

٤ ـ التفكّرُ في الكونِ والنظرُ في الأنفسِ:

إنَّ التفكُّرَ في الكونِ ، وفي خَلْقِ السماواتِ والأرضِ وما فيهنَّ من المخلوقاتِ المتنوّعةِ ، والنظرَ في الإنسان ، وما هو عليه من الصفات: يقوِّي الإيمانَ ، لما في هذه الموجوداتِ من عظمةِ الخَلْق الدّالِ على قدرة خالِقها وعظمته ، وما فيها مِنَ الحُسْنِ والانتظام والإحكام الذي يحيِّرُ الألبابَ ، الدالَّ على سَعَةِ علم الله ، وشمول حكمته ، وما فيها من أصنافِ المنافع والنعمِ الكثيرة التي لا تعدُّ ولا تحصى ، الدالة على سَعَةِ رحمة الله وجودِه وبره ، وذلك كلُّه يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره ، واللهج بذكره ، وإخلاص الدِّين له ، وهذا هو روحُ الإيمان وسرُّه[٢] .

---

(١) شجرة الإيمان ص (٤٨) .

(٢) المصدر نفسه ص (٥٠) .

وكذلك النظر إلى فقرِ المخلوقاتِ كلِّها ، واضطرارِها إلى ربها من كلِّ الوجوه ، وأنها لا تستغني عنه طرفةَ عينٍ ، خصوصاً ما تشاهِدُه في نفسِك ، من أدلّةِ الافتقار ، وقوّة الاضطرار ، وذلك يوجِبُ للعبدِ كمالَ الخضوع ، وكثرةَ الدعاءِ ، والتضرّع إلى ربه ، وكمالَ الثقةِ بوعده ، وشدّةَ الطمع في برّه وإحسانه ، وبهذا يتحقَّقُ الإيمانُ ، ويقوى التعبّد ، فإنَّ الدعاءَ مخُّ العبادةِ وخالصُها[١] .

وكذلك الفكُّر في كثرةِ نِعَمِ الله وآلائه العامّة والخاصة ، التي لا يخلو منها مخلوقٌ طرفةَ عينٍ ، فإنَّ هذا يدعو إلى الإيمان[٢] ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩١] .

٥ ـ الإكثارُ مِنْ ذكرِ الله ومن الدُّعاء الذي هو مُخُّ العبادة في كلِّ وقتٍ:

فإنَّ الذكرَ للهِ يغرسُ شجرةَ الإيمانِ في القلب ، ويغذّيها وينمّيها ، وكلّما ازدادَ العبدُ ذكراً للهِ ، قوي إيمانُه ، كما أنَّ الإيمانَ يدعو إلى كثرةِ الذكر ، فمن أحبَّ الله أكثرَ مِنْ ذكرِه ، ومحبّةُ اللهِ هي الإيمانُ ، بل هي روحُه .

وللذكرِ آثارٌ نافعةٌ في حياة المسلمين الدنيوية والأخروية منها :

أ ـ الحياة الطيبة الحقيقية :

فالحياة هي حياةُ الروح المتغذّية بالوحي الإلهي ، المتعلِّق قلبُ صاحبها بذكر الله ، وهي التي وصفَها الله بالحياةِ الطيبة بقوله سبحانه : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] وبقوله أيضاً : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود : ٣] فذِكْرُ اللهِ تعالى ومحبّتُه وطاعتُه ، والإقبالُ عليه ضامِنٌ لأطيَبِ الحياةِ في الدنيا والآخرة ، والإعراضُ عنه ومعصيتُه كفيلٌ بالحياة المنغّصة ، والمعيشة الضنك في الدنيا والآخرة[٣] ، قال تعالى :

---

(١) شجرة الإيمان ص (٥٠٠).
(٢) المصدر نفسه ص (٥٠).
(٣) مدارج السالكين (٣/ ٢٥٩).

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤] وعلى هذا فحياةُ الروح والقلبِ هذه لا يحياها ولا يذوقُ طعَمها إلا الذاكِرُ لله سبحانه وتعالى، كما قال المصطفى ﷺ: «**مَثَلُ الذي يَذْكُرُ ربَّهُ، والّذِي لا يَذْكُرُ ربَّه، مثلُ الحيِّ والميِّتِ**»[1]، فما بين الذاكِرِ والغافلِ هو ما بين الحيِّ والميّتِ، وشتّان ما بينهما[2]، فسبحان مَنْ أشهدَ عباده جنّته قبلَ لقائه، وفتحَ لهم أبوابها في دارِ العملِ، فآتاهم مِنْ روحِها ونسيمِها وطِيْبِها حتّى قال قائلهم: مساكينُ أهلُ الدنيا، خرجوا منها، ولم يذوقوا أطيبَ ما فيها؟!

قيل: ما أطيبُ ما فيها؟

قال: محبّةُ الله تعالى ومعرفتُه وذكره[3].

فالذاكر بين الغافلين هو كالحيِّ بين الموتى حياةً متكاملةً في البدن والروح والشعور، قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ب ـ القوّةُ في الأبدانِ وإحياءَ المعاش والجهاد:

إنّ الذكرَ يعطي الذاكرَ قوّةً حتى إنّه ليفعلُ مع الذكر ما لم يكن يظنُّ فعلَه بدونه[4]، وشاهِدُ ذلك موقفُ النبيِّ ﷺ مع ابنته فاطمة وعلي رضي الله عنهما، لمّا سألته خادماً، وشكت إليه ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة، فعلمَّهما أنْ يسبِّحَا كلَّ ليلةٍ إذا أخذا مضاجعهما ثلاثاً وثلاثين، ويحمدا ثلاثاً وثلاثين، ويكبِّرا أربعاً وثلاثين، وقال لهما: «**فهذا خيرٌ لكما من خادمٍ**»[5]،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الدعوات، باب: فضل ذكر الله عز وجل (٦٤٠٧) وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد (٧٧٩) بلفظ قريب.

(٢) ذكر الله تعالى بين الاتباع والابتداع عبد الرحمن خليفة ص (١٧١).

(٣) المصدر السابق ص (١٧١).

(٤) المصدر السابق ص (١٧٢).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن رضي الله عنه (١٣٧٠٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم (٢٧٢٧).

فقيل: إنَّ مَنْ داومَ على ذلك وجدَ قوّة في يومه مغنيةٌ عن خادمٍ[(١)].

ج ـ رقَّةُ القلبِ وخشوعُه:

إنَّ ذكرَ اللهِ يوجبُ خشوعَ القلب وصلاحَه ورِقَّتَه، ويذهِبُ الغفلةَ عنه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

د ـ النجاة من عذاب الله تعالى:

قال رسول الله ﷺ: «**ما عَمِلَ آدميٌّ عملًا قط أنجىٰ له مِنْ عذابِ اللهِ مِنْ ذكرِ اللهِ**»[(٢)]، وهذه نهايةُ الغاياتِ، وأعظمُ المطالبِ، وهي أُوْلى آثارِ الذكر وثمارُه، وأجلُّ فوائِده في المعاد[(٣)].

هـ ـ الذاكر من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة:

ذكرَ رسولُ الله ﷺ من السبعةِ الذين يظلُّهم اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلاّ ظلِّه: «**ورجلٌ ذكرَ الله خالياً ففاضتْ عيناه**»[(٤)].

و ـ تكثيرُ الشهودِ يومَ القيامة:

فكلُ معالمِ الأرضِ تأتي شاهدةً للذاكرين يومَ تحدِّثُ الأرض أخبارها، فالجبالُ والقِفارُ تتباهى وتستبشِرُ بمن يذكرُ الله عزّ وجلّ عليها، قال ابن مسعود:

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٧ / ٤٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥ / ٢٣٩). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ١٧٣): رجاله رجال الصحيح، إلا أن زياد بن أبي زياد مولى ابن عياش لم يدرك معاذاً، وبلفظ قريب أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب: فضل الذكر (٣٧٩٠).

(٣) ذكر الله تعالى ص (١٧٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجماعة والإمامة، باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، وفضل المساجد (٦٢٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

إنَّ الجبلَ لينادِي الجبلَ باسمه ، يا فلان! هل مرَ بكَ اليومَ أحدٌ يذكرُ الله عزّ وجلّ؟ فإذا قال : نعم استبشرَ[١] .

٦ ـ معرفة محاسن الدين:

من الأسبابِ المقوّية للإيمانِ معرفةُ محاسنِ الدين ، فإنَّ الدينَ الإسلاميَّ كلُّه محاسنُ ، عقائدُه أصحُّ العقائدِ وأصدقُها وأنفعُها ، وأخلاقهُ أحمدُ الأخلاقِ وأجملُها ، وأعمالُه وأحكامُه أحسنُ الأحكامِ وأعدلُها ، وبهذا النظرِ الجليلِ يزيِّنُ اللهُ الإيمانَ في قلبِ العبدِ ، ويحبّبه إليه ، كما امتنّ به على خيار خلقه بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] فيكونُ الإيمانُ في القلبِ أعظمَ المحبوباتِ ، وأجملَ الأشياءِ ، وبهذا يذوقُ العبدُ حلاوةَ الإيمانِ ، ويجدُها في قلبه ، فيتجمَّلُ الباطنُ بأصولِ الإيمانِ وحقائقه ، وتتجمّل الجوارحُ بأعمالِ الإيمانِ ، وفي الدعاء المأثور: «**اللهمّ زيّنا بزينةِ الإيمانِ ، واجعلنا هداةً مهتدين**»[٢] .

ومن النماذجِ الرفيعة في القدرة على عرض محاسن الإسلام على الآخرين ما قام به جعفرُ بنُ أبي طالب رضي الله عنه في عرض محاسن الإسلام على النجاشي ملك الحبشة ، وكان ذلك سبباً في إسلامه وهدايته ، فقد قال جعفر رضي الله عنه ، وكان هو المتكلِّم عن المسلمين: أيُّها الملِكُ ، كنّا قوماً أهلَ جاهليةٍ ، نعبدُ الأصنامَ ، ونأكلُ الميتةَ ، ونأتي الفواحشَ ، ونقطعُ الأرحامَ ، ونُسِيْءُ الجوارَ ، ويأكلُ القويُّ منّا الضعيفَ ، فكنّا على ذلك ، حتى بعثَ الله إلينا رسولاً منا ، نعرفُ نسبَه وصدقَه وأمانتَه وعفافَه ، فدعانا إلى الله لنوحّدَه ونعبدَه ، ونخلعَ ما كنّا نعبدُ نحن وآباؤنا من دونه من الحجارةِ والأوثانِ ، وأمرنا بصدقِ الحديثِ ، وأداءِ الأمانةِ ، وصلةِ الرحمِ ، وحُسنِ الجوارِ ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكلِ مالِ اليتيمِ ، وقذف المحصنات.

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٩ / ١٠٣) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٣٨) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ٢٤٢).

(٢) أخرجه النسائي في سننه ، كتاب: السهو: باب: نوع آخر (١٣٠٥) ، وأحمد في مسنده (٤/ ٢٦٤) قال الألباني في مشكاة المصابيح (٢٤٩٧): صحيح.

وأمرنا أن نعبدَ الله وحدَه لا نشركُ به شيئاً ، وأمرنا بالصلاةِ والزكاةِ والصيامِ ، (قال: فعدّدَ عليه أمورَ الإسلامِ) فصدّقناه ، وآمنا به ، واتّبعناه على ما جاء به من دينِ اللهِ ، فعبدنا الله وحدَه فلم نشركْ به شيئاً ، وحرّمنا ما حرّم علينا ، وأحللنا ما أحلّ لنا ، فعدا علينا قومُنا ، فعذّبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردّونا إلى عبادةِ الأوثانِ من عبادة الله تعالى ، وأنْ نستحلَّ ما كنا نستحلُّ من الخبائثِ ، فلمّا قهرونا وظلمونا ، وضيّقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادِكَ ، واخترناكَ على مَنْ سواكَ ، ورَغِبْنا في جوارِك ، ورجونا أنْ لا نظلمَ عندَك أيُّها الملك.

فقال له النجاشي: وهل معكَ ممّا جاء به عن اللهِ مِنْ شيءٍ؟

فقال له جعفر: نعم.

فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ.

فقرأ عليه صدراً من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [سورة مريم] . فبكى ـ والله ـ النجاشي حتى اخضلّتْ لحيتُه ، وبكت أساقفتُه ، حتى أَخْضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال لهم النجاشي: إنَّ هذا (يقصد القرآن الكريم) والذي جاء به عيسى (يقصِدُ الإنجيل) والذي جاء به موسى (يقصد التوراة) ليخرجُ من مشكاةٍ واحدةٍ (أي من مصدر واحد أي من عند الله تعالى) انطلقا ، فلا واللهِ لا أسلِّمهم إليكم أبداً ، ولا يُكادون (يخاطب عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ـ مندوبي قريش إلى النجاشي) قالت أمُّ سلمة رضي الله عنها: فخرجا من عنده مقبوحينِ ، مردوداً عليهما ما جاءوا به ، وأقمنا عنده بخيرِ دارٍ مع خير جارٍ[١] ، ثم أسلم بعد ذلك النجاشي ، وحَسُنَ إسلامه ، وأسلم معه أساقفه وبطارقه وكثيرٌ من النصارى في تلك الديار[٢].

كان ردُّ جعفر على أسئلة النجاشي في غاية الذَّكاءِ وقمّةِ المهارة السياسية والإعلامية والدعوية والعقدية فقد قام بالتالي:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١ / ٢٠٢) ، (٥ / ٢٩٠) ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٢٧): رجاله رجال الصحيح غير إسحاق ، وقد صرح بالسماع.

(٢) حقيقة الولاء والبراء ، سيد سعيد ص (١٥٦٠).

● **عدّد عيوبَ الجاهلية** ، وعرضها بصورةٍ تنفِّرُ السامعَ ، وقصد بذلك تشويه صورةِ قريشٍ في عَيْنِ الملك ، وركّز على الصفاتِ الذميمة التي لا تُنْتَزَعُ إلا بنبوَّةٍ.

● **عرضَ شخصيةَ الرسولِ ﷺ في** هذا المجتمع الآسن ، المليء بالرّذائل ، وكيف كان بعيداً عن النّقائص كلها ، ومعروفاً بنسبه وصدقه ، وأمانته ، وعفافه فهو المؤهّلُ للرسّالة.

● **أبرزَ جعفرُ محاسنَ الإسلام وأخلاقَه التي تتفق مع أخلاق دعوات الأنبياء** ، كنبذِ عبادة الأوثان ، وصدقِ الحديث ، وأداءِ الأمانة ، وصلةِ الرحم ، وحُسنِ الجوار ، والكفِّ عن المحارم والدِّماء ، وإقام الصلاةِ ، وإيتاءِ الزّكاة ، لأنَّ النجاشي وبطارقتَه موغلون في النصرانيةِ ، فهم يدركون أنّ هذه رسالاتُ الأنبياء ، التي بعثوا بها من لدن موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام[1].

● لقد نجحَ جعفرُ رضي الله عنه بتوفيقِ اللهِ في عَرْضِ محاسنِ الإسلام ، فأسلمَ الملكُ ، وكسبَه إلى جانبه.

٧ ـ الاجتهادُ في التحقُّق من مقامِ الإحسان في عبادة الله ، والإحسانُ إلى خلقه:

فيجتهدُ أن يعبدَ الله كأنّه يشاهده ويراه ، فيجتهدُ في إكمالِ العملِ وإتقانه ، ولا يزالُ العبد يجاهِدُ نفسه ليتحقّق بهذا المقام العالي ، حتى يقوِّمَ إيمانَه ويقينَه ويصلُ في ذلك إلى حقِّ اليقين الذي هو أعلى مراتبِ اليقين ، فيذوقَ حلاوةَ الطاعاتِ ، ويجدَ ثمرةَ المعاملاتِ ، وهذا هو الإيمانُ الكامِلُ.

وكذلك **الإحسانُ إلى الخلقِ بالقول والفعل والمال والجاه وأنواع المنافع هو من الإيمان ، ومن دواعي الإيمان ، والجزاء من جنس العمل** ، فكما أحسنَ إلى عبادِ اللهِ ، وأوصلَ إليهم من برّه ، أحسنَ الله إليه أنواعاً من الإحسانِ ، ومن أفضلها: أن يقوّيَ إيمانه ورغبتَه في فعل الخير ، والتقرّب إلى ربه ، وإخلاص العمل له ، وبذلك يتحقّق العبدُ بالنصح لله ولعباده ، فإنّ الدّينَ النصيحةُ ، ومن

(١) السيرة النبوية للصَّلابي (١ / ٣٦١).

وُفّقَ للإحسان في عبادة ربه ، والإحسانِ في معاملةِ الخلق ، فقد تحقّق نصحُه[١] ، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ [النحل: ٩٠] وقال تعالى: ﴿ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦] وقال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [هود: ١١٥] وقال تعالى: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] فالمحسنون يشعرون بمعيّةِ الله ، فيا له من شعورٍ عظيمٍ يستحقّه المحسنون![٢].

٨ ـ الدعوة إلى الله:

ومن دواعي الإيمان وأسبابه الدعوةُ إلى اللهِ وإلى دينه ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، والدعوة إلى أصل الدين ، والدعوة إلى التزام شرائعه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإنّ طريقَ الدعوة إلى الله والنصيحة لعباده من أكبر مقوّمات الإيمان ، وصاحبُ الدعوة لابدَّ أن يسعى لنشر هذه الدعوة ، ويقيمَ الأدلّة والبراهينَ على تحقيقها ، ويأتيَ الأمور من أبوابها ، ويتوسّلَ إلى الأمورِ من طرقها ، وهذه الأمورُ من طرق الإيمان وأبوابه ، وإنّ الجزاءَ من جنسِ العمل ، فكما سعى إلى تكميلِ العبادِ ونصحِهم وتوصيتهم بالحق ، وصبر على ذلك لا بّد أن يجازيه الله من جنس عمله ، ويؤيّده بنورٍ منه وروحٍ وقوةٍ وإيمانٍ وحُسنِ التوكُّل عليه ، فإنَّ الإيمانَ وحُسْنَ التوكل على الله يحصلُ به النصرُ على الأعداء ، وعلى شياطينِ الإنس وشياطين الجن[٣] ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٩] وقال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ [فصلت: ٣٣ ـ ٣٥] .

---

(١) شجرة الإيمان ص (٥٣).
(٢) أخلاق المؤمن عمرو خالد ص (٣٨).
(٣) شجرة الإيمان ص (٥٣).

٩ ـ توطينُ النفس على مقاومة ما ينافي الإيمان:

ومن أهمِّ موادّ الإيمان ومقوياته توطينُ النفس على مقاومة ما ينافي الإيمان من شُعَبِ الكفر والفسوق والعصيان ، فكما أنّه لا بدّ في الإيمان من فعلِ جميعِ الأسباب المقوّيةِ المنمّية له ، فلا بدَّ مع ذلك من دفعِ الموانعِ والعوائق ، وهي الإقلاعُ عن المعاصي ، والتوبةُ ممّا يقع منها ، وحفظُ الجوارح كلِّها من المحرّمات ، ومقاومةُ فتن الشبهاتِ القادحةِ في علوم الإيمان ، والمضعفة له ، والشهواتِ المضعفةِ لإرادات الإيمان[١] ، فإنّ الإرادات ـ التي أصلُها الرغبةُ في الخير ومحبته ، والسعي فيه ـ لا تترك إلا بترك إراداتِ ما ينافيها من رغبةِ النفس في الشرِّ ، ومقاومةِ النفس الأمارة بالسوء ، فمتى حُفِظَ العبدُ من الوقوع في فتن الشبهات وفتن الشهوات تمَّ إيمانه ، وقوي يقينه ، وصار بستان إيمانه ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥] ومتى كان الأمر بالعكس ، بأن استولت عليه النفس الإمارةُ بالسوء ، ووقع في فتن الشبهات أو الشهوات أو كليهما ، انطبق عليه هذا المثل ، وهو قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦] .

فالعبدُ المؤمنُ الموفَّقُ لا يزالُ يسعى في أمرين:

أحدهما: تحقيقُ أصولِ الإيمان وفروعه ، والتحقّق بها علماً وحالاً .

والثاني: السعيُ في دفع ما ينافيها وينقضها أو ينقصُها من الفتن الظاهرة والباطنة ، ويداوي ما قصّر فيه من الأول ، وما تجرأ عليه من الثاني ، بالتوبة النصوح ، وتدارك الأمر قبل فواته ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١] أي: مبصرون الخلل الذي وقعوا فيه ، والنقص الذي أصابهم من طائفِ الشيطان ، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان ، فإذا أبصروا ، تداركوا هذا الخلل بسدّه ، وهذا الفتق

(١) المصدر السابق ص (٦٠).

برتقه[1] ، فعادوا إلى حالهم الكاملة ، وعاد عدُّوهم حسيراً ذليلاً ، وإخوانُ الشيطان ، ﴿ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢] فالشياطينُ لا تُقَصِّرُ عن إغوائهم وإيقاعهم في أشراك الهلاك ، والمستجيبين لهم لا يقصّرون عن طاعة أعدائهم ، والاستجابة لدعوتهم حتى يقعوا في الهلاك ، ويحقُّ عليهم الخسار ، ولذلك نكثِرُ من الدعاء: اللهمَّ حَبِّبْ إلينا الإيمانَ وزّينْه في قلوبِنَا ، وكرِّه إلينا الكُفْرَ والفُسوقَ والعِصيانَ ، واجعلنا مِنَ الرّاشدينَ بفضلِكَ ومنَّتِكَ إنّكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ[2] .

١٠ ـ معرفة حقيقةِ الدُّنيا واعتبارُها ممراً للآخرة:

ومن مقوِّيات الإيمانِ معرفةُ حقيقةِ الدنيا ، وأنّها مهما طالتْ فهي إلى زوالٍ ، وأنّ متاعَها مهما عَظُمَ ، فإنّه قليلٌ حقيرٌ ، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] إنّ الآيةَ الكريمةَ السابقة فيها عشرُ جملٍ وقعَ التركيبُ من مجموعها ، بحيثُ لو سقطَ منها شيءٌ اختلّ التشبيه ، إذ المقصودُ تشبيهُ حالِ الدنيا بسرعةِ تقضّيها ، وانقراضِ نعيمها ، واغترارِ الناس بها ، بحالِ ماءٍ نزلَ من السماء ، وأنبتَ أنواعَ العشب ، وزيّنَ بزخرفه وجهَ الأرضِ ، كالعروس إذا أخذتْ الثيابَ الفاخرة ، حتى إذا طمع أهلُها فيها ، وظنّوا أنّها مسلمّةٌ من الجوائح ، أتاها بأسُ اللهِ فجأةً ، فكأنها لم تكن بالأمسِ[3] .

وأخبرنا رسولُ اللهِ ﷺ بقول الله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥] .

أي: واضرب يا محمَّد للناسِ ﴿ مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما فيها من الحبِّ ، فشبَّ ،

(١) شجرة الإيمان ص (٦١).
(٢) المصدر السابق ص (٦٢).
(٣) مباحث في إعجاز القرآن ص (٢١٦).

ونما ، وحَسُنَ ، وعلاه الزهرُ والنضرةُ ، ثم بعد هذا كله ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ أي: يابساً ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ أي: تفرّقه وتطرحه ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي: هو قادرٌ على الإنشاء والإفناء(١).

وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠] يقول تعالى مُوهِّناً أمرَ الحياة الدنيا ، ومحقّراً لها ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ أي: تفريجُ نفسٍ ﴿وَلَهْوٌ﴾ أي: باطلٌ ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي: منظرٌ جميلٌ ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ أي: بالحسبِ والنّسبِ ﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أي: مطرٍ ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: يُعْجِبُ الزرّاع ذلك النباتُ ، فإنّهم أحرصُ الناس عليه ، وأميلُ الناس إليه ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: ثم يجفُّ بعد خضرته ونضرته ، وتراه مصفرّاً ، أي: من اليبس ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ أي: ثمّ يكونُ بعد ذلك كلّه حطاماً ، أي: هشيماً منكسراً ، وكذلك الدنيا لا تبقى ، كما لا يبقى النباتُ الذي وصفناه ، ولمّا كان هذا المثلُ دالاً على زوال الدنيا ، وانقضائها لا محالةَ ، وأنَّ الآخرةَ كائنةٌ وآتيةٌ لا محالةَ ، حذّرنا الله تعالى من أمرها ، ورغّبنا فيما فيها من الخيرِ ، فقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ أي: وليس في الآخرة الآتيةِ إلا: إمّا هذا وإمّا هذا ، أي: إمّا عذابٌ شديد ، وإمّا مغفرة من الله ورضوان ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: هي متاعٌ زائلٌ يغرُّ ويخدعُ مَنْ يركنُ إليها وإلى متاعها ، فيغترّ بها ، وتعجّبَ ممن يعتقدُ أنّه لا دارَ سواها ، ولا معادَ ورائها ، مع أنها حقيرةٌ قليلةُ المتاعِ بالنسبة إلى الدّار الآخرة(٢).

إنّ هذه الحقيقةَ التي أشارت إليها الآياتُ الكريمة ، هي حقيقةُ الدنيا بكلِّ متاعها وزينتِها ، وما تشتهيه النفسُ منها ، وإنَّ كلَّ ذلك بالنسبة لنعيم الآخرة شيءٌ تافه ، وقليلٌ وزائلٌ ، هكذا فهم المسلمون حقيقةَ الدنيا ، فكان رسول الله ﷺ يبصّرهم ، ويذكّرهم بدورهم ورسالتِهم في الأرض ، ومكانتِهم عند الله ، وظلَّ

---

(١) تفسير القاسمي (١١ / ٤٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٣١٢ ـ ٣١٣).

رسول الله ﷺ معهم على هذه الحال من التبصير والتذكير حتّى انقدحَ في ذهنهم ما لهم عند الله ، وما دورُهم وما رسالتُهم في الأرض ، وتأثراً بتربيته الحميدة تـولّد الحمـاسُ والعزيمـةُ في نفوس أصحابه ، فانطلقوا عاملين بالليل والنهار بكلِّ ما في وسعهم وما في طاقتهم دون فتور أو توانٍ ، ودون كسل أو ملل ، ودون خـوفٍ من أحـدٍ إلا الله ، ودونَ طمعٍ في مغنـم أو جـاه ، إلا أداء هـذا الـدور وهذه الرسـالـة لتحقيق هذه الغـايـة في الدنيا ، والفوز والنجاة في الآخرة[١] . .

سابعاً ـ صفات المؤمنين:

عرض القرآن الكريم كثيراً من صفاتِ أهلِ الإيمان ، وتحدّثت آياته الكريمةُ عن أهمّها وأشهرِها ، ودعت المؤمنينَ إلى أنْ يتّصفوا بها حتى يعيشوا حياةً إيمانيةً مباركةً سعيدةً ، وحتى ينالوا جنةَ الله وثوابه ونعيمه ، ولقد كان حديثُ القرآن الكريم عن صفاتِ المؤمنين شاملاً ومتنوعاً ، وقد توزّعت سور القرآن في الحديثِ عن صفات المؤمنين في الفترة المكية والمدنية ، وهذا يعطي أهميةً لتذكير المسلمين بها ، حتى لا تُنسى ولا تُمهلَ ، ولكي يتربّى على هذه الصفاتِ والأخلاق عموم المسلمين[٢] ، ولا يمكننا حصرُ صفاتِ المؤمنين في القرآن الكريم ، ولكن نقدّم مجموعةً من الآيات الواردة في بعض السور ، والتي تضمّنت مجموعةً من الصفات اللازمة لأهل الإيمان .

١ ـ قال تعالى في سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾

---

(١) منهج الرسول ﷺ في غرس الروح الجهادية ص (١٩ ـ ٣٤)
(٢) في ظلال الإيمان ص (٧٩ ـ ٨٠) .

فمن صفات هؤلاء المؤمنين في هذه الآيات الكريمة:

أ ـ الخشوع في الصلاة:

قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ امرىءٍ مسلم تحضرُهُ صلاةٌ مكتوبةٌ، فيُحْسِنُ وضوءَها وخشوعَها وركوعَها إلاّ كانتْ كفّارةً لما قبلَها مِنَ الذّنوبِ ما لم يأتِ كبيرةً، وذلك الدهرُ كلَّه**»[١]. والخشوع مطلوبٌ من المرءِ في الصلاة لوجوه منها **الوجه الأول**: لتذكّرِ اللهِ، والخوفِ من وعيده، كما قال عز وجل: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤] **والوجه الثاني**: أنّ للصلاة أركاناً وواجباتٍ وسنناً، وروحُها النيةُ، والإخلاصُ، والخشوعُ، وحضورُ القلب، فإنّ الصلاة تشتمل على أذكارٍ ومناجاةٍ وأفعالٍ، ومع عدم حضورِ القلبِ لا يحصلُ المقصودُ بالأذكارِ والمناجاةِ، لأنَّ النطقَ إذا لم يعرِبْ عمّا في الضميرِ كان بمنزلة الهذيان، وكذلك لا يحصلُ المقصودُ من الأفعالِ، لأنَّه إذا كان المقصودُ من القيام الخدمةَ، ومن الركوعِ والسجودِ الذلَّ والتعظيمَ، ولو لم يكن القلبُ حاضراً لم يحصل المقصودُ، فإنَّ الفعلَ متى خرجَ عن مقصودِه بقي صورةً لا اعتبارَ بها، قال تعال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ [الحج: ٣٧] والمقصود أنَّ الواصلَ إلى الله سبحانه وتعالى هو الوصفُ الذي استولى على القلب حتّى حملَ على امتثالِ الأوامرِ المطلوبة، فلابدّ من حضور القلبِ في الصلاةِ، ولكن سامحَ الشارعُ في غفلةٍ تطرأ، لأنَّ حضورَ القلبِ في أولها ينسحبُ حكمُه على باقيها[٢].

ب ـ الإعراض عن اللغو واللغو:

كلُّ كلامٍ ساقطٍ حقُّه أن يُلغىٰ، كالكذب والشتم، والهزل، يعني أنّ لهم من الجدِّ ما شغلهم عن الهزل، ولمّا وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصفَ بالإعراضِ عن اللغو، ليجمع لهم الفعلَ والتركَ الشاقّين على الأنفس، اللذين هما قاعدتا بناء التكليف[٣]. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣﴾ أي: عن الباطل، وهو يشتمل على الشرك، كما قاله بعضهم، وعلى المعاصي كما

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الطهارة، باب: فضل الوضوء والصلاة عقبه (٢٢٨).
(٢) مختصر منهاج القاصدين ص (٢٦) تفسير المراغي ٥/ ٦.
(٣) تفسير النسفي، وتفسير الكشاف (٣ ؛ ٢٦).

قاله آخرون ـ وما لافائدة فيه من الأقوال والأفعال ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] .

ج ـ تطهيرهم لأنفسهم بأداء الزكاة:

قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ وقال رسول الله ﷺ: «**الطُّهُورُ شطرُ الإيمانِ ، والحَمْدُ للهِ تملأُ الميزانَ ، وسُبْحَانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماواتِ والأرضِ ، والصلاةُ نورٌ ، والصدقةُ برهانٌ ، والصبرُ ضياءٌ ، والقرآنُ حُجَّةٌ لكَ أو عليكَ ، كلُّ الناسِ يغدو فبائعٌ نفسَه ، فمعتقُها أو موبقُها**»[(١)] قوله: «**الصدقة برهان**» معناه: الصدقةُ حجةٌ على إيمان فاعِلها ، فإنَّ المنافقَ يمتنِعُ منها ، لكونه لا يعتقده ، فمن تصدّقَ استُدلَّ بصدقته على صدق إيمانه ، فالمؤمنون في حياتهم الدنيا يصونون بالزكاة المجتمعَ من الخلل الذي ينشِئُه الفقرُ في جانب ، والترف في جانب ، فهي تأمينٌ اجتماعي للأفراد جميعاً ، وهي ضمانٌ اجتماعي للعاجزين ، وهي وقايةٌ للجماعة كلِّها من التفكك والانحلال[(٢)] .

د ـ حفظ الفروج:

قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ فالمؤمنون قومٌ يحبّون العفة ، ويحافظون على طهارتهم بمعناها الشامل ، وهذه طهارةُ الروح ، ووقايةُ النفس والأسرة والمجتمع بحفظ الفروج من دنس المباشرة في غير حلالٍ ، وحفظِ القلوبِ من التطلُّع في غير حلالٍ ، وحفظِ المجتمع من انطلاق الشهوات فيه بغير حساب ، ومن فساد البيوت فيها والأنساب[(٣)] .

وحفظُ الفَرْجِ يشمل تجنُّبَ إتيان الزوجة في الدبر ، وفي أثناء الحيض ، وفي أثناء الصيام ، والإحرام .

وحفظ الفرج يقتضي سَدَّ الذرائع ، أي تجنُّبَ السُبُل التي تفضي إليه ، ولهذا أمر القرآن الكريم المؤمنين والمؤمنات بغضِّ البصر ، وعدمِ إبداء الزينة ، فذلك

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الطهارة ، باب: فضل الوضوء (٢٢٣) .
(٢) الحياة في القرآن الكريم ، حزمي جزولي .
(٣) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٤٥) .

أزكى لهنّ وأطهر[١] ، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠ ـ ٣١] ولكي يمكّن الإسلام المسلمَ من الممارسة الفعلية لحفظ الفرج والعفّة ، فإنّه يراعي الأمور التالية:

الأمر الأول: إنّ الإسلامَ لم يجعلْ الزواجَ أبدياً كالمسيحية مثلاً ، فأباحَ الطلاق إذاوقعَ النفورُ بين الزوجين، وعند عجزِ الزوجِ، أو مرضه، أو إعساره، أو غيبته.

الأمر الثاني: أباحَ للزوجِ الطلاقَ ، والتزوّجَ بأكثر من واحدة على أن يعدلَ بينهنَّ فيما يملك.

الأمرَ الثالث: أمرَ الذي لا يستطيعُ مؤنَ النكاحِ بالصومِ ، ليدفعَ شهوته ، ويحفظَ فرجه وعفته ، قال رسول الله ﷺ: «**يا معشرَ الشبابِ ، مَنِ استطاعَ مِنْكُم الباءَةَ فليتزوّجْ ، فإنّه أغضُّ للبصرِ ، وأحصنُ للفرجِ ، وَمَنْ لم يستطعْ فعليه بالصّوْمِ فإنَّه له وجاءُ**»[٢]. وبهذا فتحت الشريعةُ للمُحْصَنُ كلَّ أبوابَ الحلالِ ، وأغلقتْ دونه بابَ الحرام[٣].

وفضلاً عن هذا فإنَّ المجتمعَ الإسلاميَّ الحقيقيَّ يخالِفُ المحتمعاتِ القائمةِ جذرياً لصالح العفّة ، فنظمُه وقوانينُه تعاونُ الرجالَ والنساءَ على التعفّف[٤].

---

(١) الفضائل الخلقية في الإسلام ، لأحمد عبد الرحمن ص (٢٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: النكاح ، باب: من لم يستطع الباءة فليصم (٥٠٦٦) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: النكاح ، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤونة (١٤٠٠).

(٣) التشريع الجنائي الإسلامي (١/ ٦٤٢).

(٤) الفضائل الخلقية في الإسلام ، ص (٢٤٥).

هـ ـ رعاية الأمانة والعهد:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾ أي: إذا اؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدّون الأمانة إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كالمنافقين الذين وصفهم رسول الله ﷺ بقوله: «**آيةُ المنافِقِ ثلاثٌ: إذا حدّثَ كذبَ، وإذا وعدَ أخلفَ، وإذا أؤتمنَ خانَ**»[(١)]. قال تعالى: ﴿۞إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وعن أبي ذر قال: قلتُ: يا رسول الله! ألا تستعملني؟ فضربَ بيدِهِ على منكبي، ثم قال: «**يا أبا ذر! إنك ضعيفٌ، وإنها أمانةٌ، وإنها يومَ القيامةِ خزيٌ وندامةٌ، إلا مَنْ أخذها بحقِّها، وأدّى الذي عليه فيها**»[(٢)]. فسمّى الرسولُ ﷺ الولايةَ في هذا الحديثِ أمانةً، لأنّ تأديةَ حقِّها بالعدلِ، وعدم الاستغلال الشخصيّ فيها، واليقظة على مصالح الناس: كلُّ ذلك لا يكون إلاَّ بخلق الأمانة[(٣)].

وعن أبي هريرة قال: بينما كان النبيُّ ﷺ يحدّثُ إذا جاء إعرابيٌّ فقال: «متى الساعة؟ قال: «**إذ ضيعت الأمانةُ فانتظرِ الساعةَ**».

قال: كيف إضاعتها؟.

فقال رسول الله ﷺ: «**إذا وُسِدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلِهِ فانتظرِ الساعة**»[(٤)].

وقال تعالى: ﴿۞وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: علامة النفاق (٣٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال المنافق (٥٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: كراهة الإمارة بغير ضرورة (١٨٢٥).

(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها (١/ ٦٠٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: العلم، باب: من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه فأتمَّ الحديث، ثم أجاب السائل (٥٩).

و ـ المحافظة على الصلوات:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ أي الذين على أوقاتِ صلاتهم يحافظون، فلا يضيعونها، ولا يشتغلون عنها حتى تفوتهم، ولكنّهم يراعونها حتّى يؤدونها فيها[١]. روي عن عبد الله بن مسعود قال: سألتُ رسول الله ﷺ: أيُّ العملِ أفضلُ؟ قال: «**الصلاةُ على وقتِها**» قال: قلتُ: ثُمَّ أيْ؟ قال: «**برُّ الوالدينِ**» قال: قلتُ: ثمَّ أيْ؟ قال: «**الجهادُ في سبيلِ الله**» فما تركت استزيدُه إلا إرعاءً عليه[٢].

٢ ـ وقال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۝٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝٦٤ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ۝٧٢ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝٧٣ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦﴾ **هذه هي صفاتُ عبادِ الله** المؤمنين في الحياة الدنيا، الذين استوجبوا المثوبةَ منه، وجزاهم على ذلك الجزاءَ العظيم.

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٥). وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير بلفظ قريب (٢٨٧٢).

فمن هذه الصفات:

أ ـ السكينة والوقار: قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: بالسكينةِ والوقار غير مستكبرين، ولا متجبّرين، ولا ساعينَ فيها بالفسادِ ومعاصي الله[١]. فالمؤمنون قومٌ لا يريدون في الأرض علوّاً، ولا يبغون فيها كذلك فساداً، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] وفي بيان المعنى الصحيح للسكينة والوقار، ليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنُّعاً ورياءً، فقد كان سيّدُ ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنّما ينحطُّ من صببٍ، وكأنّما الأرضُ تطوى له، وقد كره بعضُ السلف المشيَ بتضعُّفٍ وتصنُّعٍ[٢].

وتبيِّنُ الآية أنَّ المؤمنين في الحياة الدنيا يتميّزون عن غيرهم بالسكينة والوقار والتواضع، وهم لا يستكبرون، ولا يسعَوْن في الأرض بالفساد، ذلك لأنّ الكِبْرَ له خطورته البالغة على الحياةِ البشريّة، فلا يبقى في حالةِ وجودِ الكِبْر احترامٌ لأحدٍ، ولا هيبةٌ لأحدٍ، ولا حرمةٌ لأحدٍ، ولا أدبٌ لأحدٍ[٣].

ب ـ الحلم: قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ فهم حلماءُ لا يجهلون، وإن جُهِلَ عليهم حلموا ولا يَسْفَهون.

هذا نهارهم، فكيف ليلهم؟خير ليل، صفُّوا أقدامهم، وأجروا دموعهم على خدودهم، يطلبونَ مِنَ الله ِجلَّ ثناؤه فِكاك رقابهم[٤].

والحلمُ من الخصالِ المحمودةِ التي يحبُّها الله عزَّ وجلَّ، قال رسول الله ﷺ: لأشجِّ عبدِ القيس: «**إنَّ فيكَ خصلتينِ يحبُّهما اللهُ: الحلمُ والأناةُ**»[٥].

ج ـ إحياءُ الليل بالصلاة: من صفاتِ عبادِ الله المؤمنين في الحياة الدنيا إحياؤهم الليلَ أو أكثرَه بالصلاةِ والطاعةِ، وقد ذكر الله سبحانه هذه الصفة

---

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٤٠٧).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٩).
(٣) الحياة في القرآن الكريم (٢/ ٤٤٣).
(٤) تفسير الطبري (٩/ ٤٠٩).
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله وشرائع الدين، والدعاء إليه، والسؤال عنه، وحفظه، وتبليغه من لم يبلغه (١٧).

للمؤمنين في آياتٍ كثيرةٍ ، منها قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٥ ـ ١٦] وقوله سبحانه : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧ ـ ١٨] .

وهم في صلاتهم وعبادتهم تمتلئُ قلوبُهم بالتقوى والخوف من عذاب جهنم ، فهم يتوجّهون إلى ربِّهم تضرُّعاً وخُفية ، ليصرفَ عنهم عذابها ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل : ٦] فإنَّ مغالبةَ هتافِ النوم وجاذبيةِ الفراش ، بعد كدِّ النهار ، أشدُّ وطأً ، وأجهدُ للبدن ، ولكنَّها إعلانٌ لسيطرة الروح ، واستجابةٌ لدعوة الله ، وإيثارٌ للإنس به ، ومن ثَمَّ فإنَّها أقومُ قيلاً ، لأنَّ للذكر فيها حلاوتُه ، وللصلاة فيها خشوعُها ، وللمناجاةِ فيها شفافيتُها ، وإنها لتسكبُ في القلبِ أُنساً وراحةً وشفافيةً ونوراً ، قد لا يجدُها في صلاةِ النهار وذكره ، واللهُ الذي خلقَ هذا القلبَ يعلمُ مداخلَه وأوتارَه ، وويعلمَ ما يتسرّبُ إليه وما يوقع عليه ، وأيُّ الأوقاتِ يكونُ فيها أكثرَ تفتُّحاً واستعداداً وتهيُّؤاً ، وأيُّ الأسباب أعلقُ به ، وأشدُّ تأثيراً فيه(١) .

د ـ **القصدُ والاعتدالُ في الإنفاق**: ومن صفات المؤمنين في الحياة الدنيا القصدُ والاعتدالُ ، والتوازنُ في الإنفاق ، وهم ليسوا بمبذّرين في إنفاقهم ، فلا ينفقون فوق الحاجةِ ، ولا بخلاء على أهليهم ، فيقصّرون في حقهم ، ولا يكفونهم ، بل عدلاً خياراً ، وخيرُ الأمور أوسطها ، لا هذا ولا هذا ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ .

هـ ـ **عدم الشركِ بالله ، والتحرّج عن قتل النفس والزنا**: ومن صفات عباد الله المؤمنين في الحياة الدنيا أنَّهم لا يشركون بالله ، بل يخلِصون العبادةَ له ، ويفردونه بالطاعةِ ، ولا يقتلون النفس إلاّ بالحقّ الذي يزيلُ حرمتها وعصمتها ، كالكفر بالله بعد إسلامها ، أو الزنا بعد إحصانها ، أو قتل النفس ، وتقتل بها(٢) .

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٤٦) .
(٢) الحياة في القرآن الكريم (٢/ ٤٥٠) .

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴿٧١﴾﴾.

و ـ عدمُ شهادةِ الزور: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾﴾، وشهادةُ الزورِ من أكبر الكبائر، فقد صرّح بذلك رسولُ الله ﷺ حيثُ قال لأصحابه: «**ألا أنبِّئكم بأكبرِ الكبائرِ** ـ ثلاثاً ـ: **الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور ـ أو قول الزور**» ـ وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس، فما زال يكرِّرُها حتى قلنا: ليتَه سكت[1].

ز ـ الانتفاع بموعظة القرآن: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾﴾.

ح ـ الرغبة في مضاعفة السالكين في الدرب إلى الله: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾.

سئل الحسن البصريُّ عن هذه الآية، فقال: أن يري اللهَ العبدُ المسلمُ من زوجتِهِ ومن أخيه ومن حميه، طاعةَ الله، لا واللهِ لا شيءَ أقرُّ لعينِ المسلمِ مِنْ أن يرى ولداً أو ولد ولدٍ أو أخاً أو حميماً مطيعاً لله عزَّ وجلَّ[2].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ أئمة هدًى يهتدى بنا، ولا تجعلنا أئمة ضلالة، لأنّه قال لأهل السعادة: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣] ولأهل الشقاوة: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

وقال آخرون: هداة مهتدين، دعاة إلى الخير، فأحبّوا أن تكونَ عبادتهم متصلةً بعبادةِ أولادِهم وذرياتهم، وأن يكونَ هداهم متعدّياً إلى غيرهم بالنفع،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها (٨٧). وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الشهادات، باب: ما قيل في شهادة الزور (٢٦٥٤) بلفظ قريب.

(٢) الحياة في القرآن الكريم (٢/ ٤٥٧).

وذلك أكثرُ ثواباً ، وأحسن مآباً ، ولهذا قال رسول الله ﷺ: **«إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطعَ عملُه إلّا من ثلاثٍ ، ولدٍ صالحٍ يدعو له ، أو علمٍ يُنْتَفَعُ به من بعدِهِ ، أو صدقةٍ جاريةٍ»**(١) .

ونكتفي بهذا القدر في ذكر صفاتِ المؤمنين في الحياة الدنيا ، فلا نتوسّعُ خشيةَ الإطالةِ ، وإلاّ فصفاتُ المؤمنين كثيرةٌ كما وردت في القرآن الكريم ، فمنها: الإخلاصُ والصدقُ ، والتوكلُ ، ومحبةُ اللهِ ، والخوفُ والرجاءُ ، والشكرُ ، والصبرُ ، والرضا ، والشجاعةُ ، وغيرها من الصفاتِ الحميدةِ(٢) .

ثامناً: فوائد الإيمان وثمراته:

إنَّ للإيمانِ الصحيحِ فوائدَ وثمراتٍ عاجلةً وآجلةً في القلبِ والبدنِ والراحةِ والحياةِ الطيّبةِ في الدنيا والآخرة ، كما أنَّ لهذه الشجرة الإيمانية من الثمارِ اليانعةِ ، والجنى اللذيذ ، والأُكل الدائم ، والخير المستمر ، وأمور لا تحصى ، وفوائد لا تستقصى ، ومجملها: أن خيراتِ الدنيا والآخرة ودفعَ الشرورِ كلِّها من ثمراتِ الإيمانِ الصحيح ، وذلك أنَّ شجرةَ الإيمانِ الصحيح إذا ثبتتْ وقويتْ أصولُها ، وتفرّعتْ فروعُها ، وزهت أغصانُها ، وأينعتْ أفنانُها ، عادت على صاحِبها وعلى غيرِه ، بكل خيرٍ عاجلٍ وآجلٍ.

ومن أعظم ثمار الإيمان وفوائده:

١ ـ الاغتباطُ بولايةِ الله الخاصّة:

الاغتباط بولاية الله هي أعظمُ ما يتنافس فيه المتنافسون ، وأجلُّ ما حصّله الموفقون ، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٣] فكلُّ مؤمنٍ تقيٍّ فهو للهِ وليٌّ خاصّةً.

ومن ثمراتها ما قاله الله عنهم: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١) ولفظه: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له».

(٢) الحياة في القرآن الكريم (٢/ ٤٥٩).

ٱلنُّورِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أي: يخرجُهم من ظلماتِ الكفرِ إلى نورِ الإيمانِ، ومن ظلماتِ الجهلِ إلى نورِ العلمِ، ومن ظلماتِ المعاصي إلى نورِ الطاعاتِ، ومن ظلماتِ الغفلةِ إلى نورِ اليقظَةِ الذكرِ، وحاصلُ ذلك أنّهُ يخرِجُهم من ظلماتِ الشرور المتنوّعة إلى ما يدفعُها من أنوارِ الخيرِ العاجلِ والآجل، وإنَّما حازوا هذا العطاءَ الجزيلَ بإيمانهم الصحيح، وتحقيقهم هذا الإيمان بالتقوى، فإنَّ التقوى من تمام الإيمان(١).

والتقوى من شروط ولاية الله الخاصة، ومن شروط التمكين لهذه الأمة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦] إنَّ تقوى الله تجعلُ بينَ العبدِ وبينَ ما يخشاه من ربه ومن غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تقيهِ مِنْ ذلكَ، وهي أنْ تعملَ بطاعةِ اللهِ على نورٍ من اللهِ، ترجو ثوابَ اللهِ، وأن تتركَ معصيةَ اللهِ، على نورٍ من اللهِ، تخافُ عقابَ اللهِ(٢).

وللتقوى ثمرات عاجلة وآجلة منها:

الثمرة الأولى ـ المخرج من كل ضيق، والرزق من حيث لا يحتسبه العبد: قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

الثمرة الثانية ـ السهولةُ واليسرُ في كلِّ أمرٍ: قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

الثمرة الثالثة ـ تيسيرُ العلمِ النافعِ: قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

الثمرة الرابعة ـ إطلاقُ نورِ البصيرة: قال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

الثمرة الخامسة: محبَّةُ اللهِ ومحبَّةُ الملائكةِ والقبولُ في الأرض:

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

---

(١) شجرة الإيمان ص(٦٣ ـ ٦٤).

(٢) فقه النصر والتمكين للصلاّبي (٢٠٤).

وقال رسولُ الله ﷺ: «**إذا أحبَّ اللهُ العبدَ قال لجبريلُ: قد أحببتُ فلاناً فأحبّه، فيحبُّه جبريلُ عليه السلام، ثم ينادي في أهلِ السماءِ: إنَّ الله قد أحبَّ فلاناً فأحبُّوه، فيحبُّه أهلُ السماء، ثم يوضَعُ له القبولُ في الأرض**»(١).

الثمرة السادسة: نصرة الله عزَّ وجلَّ وتأييده وتسديده: وهي المعية المقصودة بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]. فهذه المعيةُ هي معيةُ التأييد والنصرة والتسديد، وهي معيةُ الله عزَّ وجلَّ لأنبيائه وأوليائه، ومعيته للمتقين والصابرين، وهي تقتضي التأييدَ والحفظَ والإعانةَ، كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

أما المعية العامة، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [النساء: ١٠٨]. فهي تستوجِبُ من العبدِ الحذَرَ والخوفَ ومراقبةَ الله عزَّ وجلَّ.

الثمرة السابعة ـ الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم: قال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

الثمرة الثامنة ـ حفظ الذرية الضعاف بعناية الله تعالى: قال تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩] ففي الآيةِ إشارةٌ إلى إرشادِ المسلمين الذين يخشون تركَ ذريةٍ ضعافاً إلى التقوى في سائر شؤونهم، حتى يحفظَ أبناءَهم، ويدخلوا تحت حفظِ اللهِ وعنايته، والآيةُ تشعِرُ بالتهديدِ بضياع أولادِهم إن فقدوا تقوى الله، وإشارةٌ إلى أنَّ تقوى الأصولِ تحفظُ الفروعَ، وأنَّ الرجالَ الصالحين يُحْفَظُوْنَ في ذريتهم الضعاف، كما في آية: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ

(١) أخرجه بهذا اللفظ مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب: ما جاء في المتحابين في الله (١٥٠٢). وأخرجه بنحوه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٠٩)، وكذلك مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده (٢٦٣٧).

لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] . فإنَّ الغلامين حُفِظا ببركة أبيهما في أنفِسهما ومالِهما(١) .

الثمرة التاسعة ـ سببٌ لقبولِ الأعمال التي بها سعادةُ العبادِ في الدنيا والآخرة: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] .

الثمرة العاشرة ـ سببُ النجاةِ من عذاب الدنيا: قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧ ـ ١٨] .

الثمرة الحادية عشرة ـ تكفيرُ السيئات: قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥] .

الثمرة الثانية عشرة ـ ميراث الجنة: قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣] فهم الورثة الشرعيون لجنّة الله عزَّ وجلَّ ، وهم لا يذهبون إلى الجنة سيراً على أقدامهم، بل يحشرون إليها ركباناً، مع أنَّ الله عزَّ وجلَّ يقرّبُ إليهم الجنة تحيةً لهم ، ودفعاً لمشقتهم ، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] .

الثمرة الثالثة عشرة ـ تجمعُ بين المتحابّين مِنْ أهلِهَا: قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] ومن بركة التقوى أنَّ الله عزَّ وجلَّ ينزع ما قد يعلقُ بقلوبهم من الضغائن والغل ، فتزدادُ مودَّتهم ، وتتمُّ محبتُهم وصحبتُهم ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٥ ـ ٤٧] .

إنَّ هذه الثمار العظيمة عندما تمسُّ شغافَ قلوبِ المسلمين تضفي على الأمةِ فيضاً ربانياً موصولاً بالله ، يصِلُ حلقةَ الدنيا بالآخرة ، كما أنَّ الحرص على تقوى الله تعالى يكسِبُ الأمة صفاتٍ رفيعةٍ ، وأخلاقاً حميدةً ، ومكارمَ نفيسةً تجعل هذه الأمة مؤهَّلة لقيادة البشرية نحو سعادتها.

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٥/ ٤٧).

٢ ـ الفوز برضا الله تعالى:

ومن ثمرات الإيمان الفوز برضا الله تعالى، ودار كرامته، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧١ـ٧٢] فنالوا رضا ربهم ورحمتَه، وفازوا بهذه المساكن الطيبة، بإيمانهم الذي كمَّلوا به أنفسهم، وكملوا غيرَهم بقيامهم بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، والأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر، فاستولوا على أجلِّ الوسائل، وأفضلِ الغاياتِ، وذلك فضل الله[١].

٣ ـ دفاع الله عن المؤمنين:

ومن ثمرات الإيمان أنَّ الله يدفعُ عن المؤمنين جميعَ المكاره، وينجيهم من الشدائد، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨]، أي: يدافِعُ عنهم كلَّ مكروه، ويدافعُ عنهم شرَّ شياطينِ الإنسِ وشياطينِ الجنِّ، ويدافعُ عنهم الأعداء، ويدافع عنهم المكاره قبل نزولها، ويرفعها أو يخفضها بعد نزولها، ولمّا ذكر تعالى ما وقعَ فيه يونُس ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨] إذا وقعوا في الشدائدِ، كما أنجينا يونس عليه السلام. قال النبيُّ ﷺ: «**دعوةُ أخي يونس، ما دعا بها مكروبٌ إلا فرّجَ الله عنه كربتَه: لا إلهَ إلاّ أنتَ سبحانَكَ إنِّي كنتُ من الظالمين**»[٢].

---

(١) شجرة الإيمان ص(٦٥).

(٢) أخرج الترمذي في جامعه، كتاب: الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد (٣٥٠٥) عن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يَدْعُ بها رجلٌ مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له**». قال الألباني: صحيح. انظر المشكاة (٢٢٩٢).

٤ ـ الحياة الطيبة:

ومن ثمرات الإيمان الحياة الطيبة في هذه الدار، وفي دار القرار، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] وهذا وعدٌ ربانيٌّ لمن جمعَ بين الإيمانِ والعملِ الصالح، بأنْ يتفضَّلَ الله عزَّ وجل عليه بالحياة الطيبة، كما أنَّ الله سبحانه قد شيَّدَ في موضع آخرَ صرحَ الحياةِ الناجحةِ على أساسِ الإيمانِ الصحيح والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١ ـ ٢] إنَّ الإيمانَ أساسُ الحياة الطيبة، ذلك لأنَّه يجعلُ صاحبَه ثابتاً عالياً مثمراً في حياته، ثابتاً لا تزعزعه الأعاصيرُ، ولا تعصفُ به رياحُ الباطل، ولا تقوى عليه معاولُ الطغيان[١].

٥ ـ حصولُ البشارةِ بكرامةِ الله والأمنِ التامِّ من جميع الوجوه:

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣] فأطلقَها ليعمَّ الخيرُ العاجلُ والآجلُ، وقيّدها في مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]، فلهم البشارةُ المطلقةُ والمقيّدةُ، ولهم الأمنُ المطلقُ في مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] ولهم الأمن المقيّدُ في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨] فنفى عنهم الخوفَ لما يستقبلونه، والحُزْنَ ممّا مضى عليهم، وبذلك يتمُّ الأمن، فالمؤمن له الأمنُ التام في الدنيا والآخرة، أَمِنَ مِنْ سخطِ الله وعقابه، وأَمِنَ مِنْ جميعِ المكاره والشرور.

وللمؤمن البشارةُ الكاملةُ بكلِّ خيرٍ كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤] ويوضح هذه البشارة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣٠ ـ ٣١] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) الحياة في القرآن الكريم ص(٤٩٣).

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨] فرتَّبَ على الإيمانِ حصولَ الثوابِ المضاعفِ، وكمالَ النورِ الذي يمشي به العبدُ في حياته، ويمشي به يومَ القيامةِ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الحديد: ١٢] فالمؤمنُ من يمشي في الدنيا بنورِ علمِهِ وإيمانِهِ، وإذا أطفئت الأنوارُ يومَ القيامة، مشى بنورِهِ على الصراط، حتى يجوزَ به إلى دار الكرامة والنعيم.

وكذلك رتب المغفرةَ على الإيمان، ومَنْ غُفِرَتْ سيئاتُه، سَلِمَ من العقاب، ونال أعظمَ الثواب(١).

٦ ـ حصول الفلاح والهدى:

ومن ثمراتِ الإيمانِ حصولُ الفلاح الذي هو إدراكُ غايةِ الغايات، فإنّه إدراكُ كلِّ مطلوبٍ، والسلامةُ من كلِّ مرهوبٍ، والهُدى الذي هو أشرفُ الوسائل، كما قال تعالى بعدما ذكّر المؤمنين بما أَنْزَلَ على محمّدٍ ﷺ وما أَنْزَلَ على مَنْ قبله، والإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاةِ: اللتين هما من أعظم آثار الإيمان، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] فلا سبيلَ إلى الهُدى والفلاح، اللذين لا صلاحَ ولا سعادةَ إلاَّ بهما، إلا بالإيمانِ التامِّ بكلِّ كتابٍ أنزله، وبكلِّ رسولٍ أرسله، فالهُدَى أجلُّ الوسائل، والفلاحُ أكملُ الغايات(٢).

٧ ـ الانتفاعُ بالمواعظ والتذكير:

ومن ثمراتِ الإيمان الانتفاعُ بالمواعظ، والتذكير والآياتِ، قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] لأنَّ الإيمانَ يحمِلُ صاحبه على التزام الحقِّ واتباعه، علماً وعملاً، وكذلك معه الآلةُ العظيمة والاستعدادُ لتلقّي المواعظ النافعة، والآيات الدالة على الحق، وليس عنده مانعٌ يمنعه من قبول الحق، ولا مِنَ العمل به، كما أنَّ الإيمان يوجِبُ سلامةَ الفطرة، وحُسْنَ

---

(١) شجرة الإيمان ص(٧٩).

(٢) شجرة الإيمان ص(٨٠).

القصد ، ومن كان كذلك انتفعَ بالآياتِ[(١)].

٨ ـ قطعُ الشكوكِ التي تضرُّ بالدين:

ومنها أنَّ الإيمانَ يقطعُ الشكوكَ التي تعرِضُ لكثيرٍ من الناس ، فتضرُّ بدينهم ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات : ١٥] أي : دفعَ الإيمانُ الصحيحُ الذي معهم الرَّيْبَ والشكَّ الموجود ، وأزاله بالكلية ، وقاومَ الشكوكَ التي تُلْقِيها شياطينُ الإنس والجن ، والنفوسُ الأمّارةِ بالسوء ، فليس لهذه العلل المهلِكَةِ دواءٌ إلاَّ تحقيقُ الإيمانِ ، ولهذا ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة : أنَّ النبيَّ ﷺ قال : «**لا يزالُ الناسُ يتساءلون ، حتى يُقَالَ : هذا اللهُ خلقَ الخلقَ ، فَمَنْ خَلَقَ الله؟ فمن وجدَ ذلك ، فليقلْ آمنتُ باللهِ ، وَلْيَنْتَهِ ، وليتعوَّذْ باللهِ مِنَ الشيطانِ**»[(٢)] ، فذكر رسول الله ﷺ هذا الدواءَ النافعَ لهذا الداءِ المهلكِ ، وهو ثلاثة أشياء :

الأول: الانتهاء عن هذه الوساوس الشيطانية.

والثاني : **الاستعاذة من شرِّ من ألقاها وشبّه بها** ، ليضل بها العباد.

الثالث: **الاعتصام بعصمة الإيمان الصحيح** ، الذي مَنِ اعتصمَ به كان من الآمنين.

وذلك لأنَّ الباطلَ يتّضحُ بطلانه بأمورٍ كثيرة ، أعظمُها العلمُ بأنَّه منافٍ للحق ، وكلُّ ما ناقضَ الحق فهو باطلٌ : ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس : ٣٢][(٣)].

٩ ـ ملجأ المؤمنين :

ومن ثمراتِ الإيمان وفوائدِه أنَّ الإيمانَ ملجأُ المؤمنين في كلِّ ما يلمُّ بهم ، من سرورٍ ، وحزنٍ ، وخوفٍ ، وأمنٍ ، وطاعةٍ ، ومعصيةٍ ، وغيرِ ذلك من الأمور التي لا بدَّ لكلِّ أحدٍ منها.

---

(١) المصدر نفسه ص (٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : بدء الخلق ، باب : صفة إبليس وجنوده (٣٢٧٦) ومسلم في صحيحه، كتاب : الإيمان ، باب : بيان الوسوسة في الإيمان ، وما يقوله من وجدها (١٣٢).

(٣) شجرة الإيمان ص(٨٤).

● **فهم يلجؤون إلى الإيمان عند المحابِّ والسرورِ** ، فيحمَدون الله ، ويثنون عليه ، ويستعملون النِّعَم فيما يحبُّ المنعم.

● **ويلجؤون إلى الإيمان عند المكارِه والأحزانِ** ، فيتسلّون بإيمانهم وحلاوته ، ويتسلّون بما يترتّب على ذلك من الثوابِ ، ويقابِلونَ الأحزان والقلق براحة القلب والرجوع إلى الحياة الطيبة المقاومة للأحزان والأتراح.

● **ويلجؤون إلى الإيمانِ عند الخوف** ، فيطمئنون إليه ، ويزيدهم إيماناً وثباتاً ، وقوة وشجاعة ، ويضمحِلُّ الخوفُ الذي أصابهم ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤] لقد اضمحلَّ الخوفُ من قلوبِ هؤلاء الأخيار ، وخلفَه قوةُ الإيمان وحلاوته ، وقوة التوكل على الله ، والثقة بوعده.

● **ويلجؤون إلى الإيمان عند الأمن** ، فلا يُبْطِرُهم ، ولا يُحْدِثُ لهم الكبرياء ، بل يتواضعون ، ويعلمون أنّه من الله ، ومن فضلِه ، وتيسيره ، فيشكرون الذي أنعمَ بالسبب والمسبب ، الأمنِ وأسبابه ، ويعلمون أنّه إذا حصلَ لهم ظفرٌ بالأعداء وعِزٌّ ، أنه بحولِ الله ِوقوتِهِ وفضله ، لا بحولهم ولا بقوتهم.

● **ويلجؤون إلى الإيمان عند الطاعة ، والتوفيق للأعمال الصالحة** ، فيتعرّضون بنعمة الله عليهم بها ، وأنَّ نعمته فيها أعظمُ من نعمةِ العافية والرزقِ ، ويحرصون على تكميلها ، وعمل كل سبب لقبولها ، وعدم ردها أو نقصها ، ويسألونَ الذي تفضّلَ عليهم بالتوفيق لها ، أن يتمَّ عليهم نعمته بقبولها ، والذي تفضَّلَ عليهم بحصولِ أصلها ، أن يتمِّمَ لهم منها ما انتقصوه منها.

● **ويلجؤون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي بالمبادرة إلى التوبة منها** ، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات ، لجبر نقصها ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فالمؤمنُ يجولُ ما يجولُ في الغفلةِ والتجرؤ على بعض الآثام ، ثم يعودُ سريعاً إلى الإيمان ، الذي بنىٰ عليه أمورَه كلها ، فالمؤمنون في جميع تقلّباتهم وتصرّفاتهم ملجؤهم إلى الإيمانِ ، ومفزُعهم إلى تحقيقه ، ودفعِ ما ينافيه

ويضاده ، وذلك مِنْ فضل الله عليهم ومَنّه[١] .

١٠ ـ المنع من الوقوع في الموبقات المهلكة:

ومنها أنَّ الإيمانَ الصحيحَ يمنعُ العبدَ من الوقوع في الموبقات المهلكةِ ، قال رسولُ الله ﷺ : «**لا يزني الزَّاني حين يَزني وهو مؤمنٌ ، ولا يسرقُ السارقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ ، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمنٌ**»[٢] . ومن وقعت منه ، فإنَّه لضعفِ إيمانه ، وذهابِ نورِه ، وزوالِ الحياء ممّن يراهُ حيثُ نهاه ، وهذا معروفٌ مشاهدٌ .

والإيمانُ الصادقُ الصحيحُ ، يصحبُهُ الحياءُ مِنَ الله ، والحبَّ له ، والرجاء القويّ لثوابه ، والخوف من عقابه ، والنور الذي ينافي الظلمة ، وهذه الأمورُ التي هي من مكمّلات الإيمانِ لا ريبَ أنها تأمرُ صاحبَها بكلِّ خير ، وتزجره عن كلِّ قبيحٍ ، فأخبر **أنَّ الإيمانَ إذا صحبَه** عند وجود أسباب هذه الفواحش ، فإنَّ نورَ إيمانه يمنعه من الوقوع فيها ، فإنَّ النورَ الذي يصحب الإيمانَ الصادقَ ، ووجودَ حلاوةِ الإيمانِ ، والحياءَ مِنَ اللهِ ، الذي هو من أعظم شعب الإيمان ، بلا شك ، **يمنعُ من مواقعةِ** هذه الفواحش[٣] .

١١ ـ الشكر والصبر:

ومن فوائد وثمرات الإيمانِ أنَّه يحمِلُ صاحبه على الشكرِ في حالة السرّاءِ ، والصبرِ في حالةِ الضّراء ، وكسب الخيرِ في كلِّ أوقاته ، قال النبي ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن إنَّ أمرَه كلَّه خيرٌ وليس ذلكَ لأحدٍ إلا للمؤمن ، إنْ أصابتْه سرّاءُ شَكَرَ ، فكان خيراً له ، وإنْ أصابتْه ضرّاءُ صبرَ ، فكانَ خيراً له**»[٤] .

---

(١) شجرة الإيمان ص(٨٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : الأشربة ، باب : قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة : ٩٠] (٥٥٧٨) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ، ونفيه عن المتلبس بالمعصية ، على إرادة نفي كماله (٥٧).

(٣) شجرة الإيمان ص(٨٨).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : الزهد والرقائق ، باب : المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

والشكرُ والصبرُ هما جِماعُ كلِّ خيرٍ ، فالمؤمنُ مغتَنِمٌ للخيرات في كلِّ أوقاته ، رابحٌ في كلِّ حالاته.

فيجتمع للمؤمن عند **السرّاء** نعمتان: نعمةُ حصولِ ذلك المحبوب ، ونعمةُ التوفيق للشكر الذي هو أعلى من ذلك ، وبذلك تتمُّ عليه النعمة.

ويجتمعُ له عند **الضّراء** ثلاثُ نعم: نعمةُ تكفيرِ السيئات ، ونعمةُ حصولِ مرتبة الصبر ، التي هي أعلى من ذلك ، ونعمةُ سهولةِ الضرّاء عليه ، لأنّه متى عرفَ حصولَ الأجرِ والثوابِ والتمرن على الصبر هانت عليه وطأةُ المصيبةِ ، وخفّ عليه حملها[1].

١٢ ـ تأثيرُه على الأعمال والأقوال:

ومن فوائد وثمرات الإيمان أنَّ جميعَ الأعمال والأقوالِ إنّما تصحُّ وتكمُلُ بحسب ما يقومُ بقلبِ صاحبها من الإيمانِ والإخلاصِ ، ولهذا ذكر الله هذا الشرطَ الذي هو أساسُ كلِّ عمل ، مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ [الأنبياء: ٩٤] أي لا يُجْحَدُ سعيُه ، ولا يضيعُ عملُه ، بل يُضاعفُ بحسب قوّة إيمانِه ، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]. والسعيُّ للآخرةِ هو العملُ بكلِّ ما يقرِّبُ إليها، ويدني منها ، من الأعمال التي شرعها الله على لسان نبيّه محمّدٍ ﷺ ، فإذا تأسَّستْ على الإيمان ، ونبنتْ عليه ، كان السعيُ مشكوراً مقبولاً مضاعفاً ، لا يضيع منه مثقال ذرة.

وأما إذا فقَدَ العملُ الإيمانَ ، فلو استغرق العاملُ ليلَه ونهارَه ، فإنّه غيرُ مقبولٍ ، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وذلك لأنها أُسِّست على غيرِ الإيمانِ بالله ورسوله ﷺ ، الذي روحه الإخلاصُ للمعبود ، والمتابعة للرسول ﷺ ، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥] فهم لمّا فقدوا الإيمانَ ، وحلَّ محله الكفرُ باللهِ وآياته ، حبطتْ أعمالُهم ، وقال تعالى: ﴿لَئِنْ

(١) شجرة الإيمان ص(٨٢).

أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

ولهذا كانت الردةُ عن الإيمان تحبِطُ جميعَ الأعمال الصالحة، كما أنَّ الدخولَ في الإسلامِ والإيمانِ يجبُّ ما قبله من السيئات وإن عظمتْ، والتوبةُ من الذنوبِ المنافية والقادحةِ فيه، والمنقصةِ له، تجبُّ ما قبلها[١].

١٣ ـ هداية الله إلى الصراط المستقيم:

ومن فوائد وثمرات الإيمان أنّه يهدي صاحبه إلى الصراط المستقيم، يهديه إلى علم الحق، وإلى العمل به، وإلى تلّقي المحابِّ والمسارّ بالشكرِ، وتلقّي المكارهِ والمصائبِ بالرضا والصبر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩] وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] هو الرجلُ تصيبُه المصيبةُ، فيعلمْ أنّها من عند اللهِ، فيرضى ويسلِّمُ.

ومن ثمرات الإيمان أنّه يسلِّي صاحبه عن المصائب والمكاره، التي كلُّ أحدٍ عُرضةٌ لها في كلِّ وقتٍ، ومصاحبةُ الإيمانِ واليقينِ أعظمُ مسلٍّ عنها، ومُهَوِّنٍ لها، وذلك لقوّة إيمانه، وقوّة توكله، وقوّة رجائه بثواب الله ربه، وطمعه في فضله، فحلاوةُ الأجرِ تخفِّفُ مرارةَ الصبر، قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] ولهذا تجد اثنين تصيبهم مصيبةٌ واحدةٌ، أو متقاربةٌ، وأحدهما عنده إيمانٌ، والآخر فاقدُ له، تجدُ الفرقَ العظيمَ بين حاليهما، وتأثيرُها في ظاهرهما وباطنهما، وهذا الفرقُ راجعٌ إلى الإيمان، والعمل بمقتضاه[٢].

١٤ ـ محبة الله والمؤمنين من خلقه:

ومن ثمراتِ الإيمان ولوازمه من الأعمال الصالحة ما ذكره الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] أي: بسببِ إيمانهم وأعمالِ الإيمانِ يحبُّهم الله، ويجعلُ لهم المحبّةَ في قلوب المؤمنين،

(١) شجرة الإيمان ص(٦٩ ـ ٧٠).
(٢) شجرة الإيمان ص(٧٦).

ومن أحبّه الله ، وأحبّه المؤمنون من عباده ، حصلتْ له السعادةُ والفلاحُ ، والفوائد الكثيرة من محبة المؤمنين ، من الثناء والدعاء له حياً وميتاً ، والاقتداء به ، وحصول الإمامةِ في الدين ، وهذه أيضاً من أجلِّ ثمراتِ الإيمان ، أن يجعلَ الله للمؤمنين ـ الذين كمّلوا إيمانهم بالعلم والعمل ـ لسانَ صدقٍ ، ويجعلهم أئمةً يهدون بأمره ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فبالصبر واليقين اللذين هما رأسُ الإيمان وكماله نالوا الإمامةَ في الدِّين[١] .

١٥ ـ رَفْعُ اللهِ مكانتهم:

ومن فوائد وثمرات الإيمان رفع مكانة أهله عند الله عزَّ وجلَّ وعند خلقه قال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] فهم أعلى الخلق درجةً عند الله وعند عباده في الدنيا والآخرة ، وإنّما نالوا هذه الرفعة ، بإيمانهم الصحيحِ ، وعلمهم ، ويقينهم ، والعلم واليقين من أصولِ الإيمانِ[٢] .

هذه بعضُ الفوائدِ والثمرات من الإيمان الصحيح ، وممّا تقدّم يتبيَّنُ لنا أنَّ شجرة الإيمان من أبركِ الأشجارِ وأنفعِها ، وأدومها ، وأنَّ **عروقها وأصولها وقواعدها**: الإيمانُ وعلومُه ومعارفُه ، **وساقُها وأفنانُها**: شرائعُ الإسلام ، والأعمالُ الصالحةُ ، والأخلاقُ الفاضلةُ المؤيّدةُ والمقرونةُ بالإخلاص لله ، والمتابعةُ لرسول الله ﷺ: وأنَّ **ثمارها وجناها الدائم المستمر**: السمتُ الحسنُ ، والهدي الصالح ، والخلقُ الجميلُ ، واللهجُ بذكر اللهِ وشكره ، والثناءُ عليه ، والنفعُ لعباد الله بحسب القدرة ، نفعُ العلم والنصح ، ونفعُ الجاه والبدن ، ونفع المال ، وجميعُ طرق النفع ، وحقيقةُ ذلك كلّه: القيامُ بحقوق الله ، وحقوق خَلْقِهِ ، وأنَّ الفضلَ في ذلك كلّه لله وحدَه ، والمنّة كلُّها له سبحانه: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] .

وقال أهل الجنة بعد ما دخلوها ، وتبوّؤوا منازلهم ، معترفينٍ بفضل ربهم العظيم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ

---

(١) المصدر نفسه ص(٨٠) .

(٢) المصدر نفسه ص(٧٦) .

رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] فجمعَ في هذه الآية بين الإخبارِ باعترافهم وثناءهم على الله بنعمته وفضله ، حيث وصلوا إلى المنازل العالية ، وبَيْنَ ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك بمنّة الله عليهم به ، وهو العمل الصالح الذي هو الإيمان وأعماله(١) .

إنَّ مِنْ شروطِ التمكين لهذه الأمة تحقيقُ الإيمانِ بكافّة معانيه ، وبكافّة أركانه ، وممارسة العمل الصالح بكلِّ أنواعه ، والحرصُ على كلِّ أنواع الخير وصنوف البرِّ ، وتحقيقُ العبودية الشاملة ، ومحاربةُ الشرك بكل أشكاله وأنواعه وخفاياه(٢) .

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٥ ـ ٥٦] .

* * *

---

(١) شجرة الإيمان ص(٩٤) .

(٢) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص(١٦١) .

المبحث السابع

نواقض التوحيد والإيمان

أولاً ـ الشرك: حقيقته، وأقسامه، وما يتعلق بكل قسم من أحكام.

ثانياً ـ الكفر: حقيقته، وأقسامه وما يتعلق بكل قسم من أحكام.

ثالثاً ـ النفاق: حقيقته، وأقسامه، وأبرز صفات المنافقين.

رابعاً ـ الردة: تعريفها، وأنواعها، وأحكامها.

خامساً ـ الفسق: تعريفه، وأقسامه.

سادساً ـ المعاصي: تعريفها، وأقسامها، وحكم مرتكب الكبيرة.

* * *

المبحث السابع

نواقض التوحيد والإيمان

أولاً ـ الشرك حقيقته وأنواعه وما يتعلق بكل نوع من أحكام:

● **تعريف الشرك وبيان حقيقته:**

إنَّ الحديثَ عن التوحيد يستلزِمُ الحديثَ عمّا يناقضه من الشرك ، لأنّه كما قيل (من الكامل):

.... وبضدها تتميّز الأشياءُ

والشرك: هو أن تجعلَ للهِ نِدّاً أو شريكاً في ربوبيته ، أو ألوهيته ، أو أسمائه ، أوصفاته ، وهو المبطلُ للأعمال ، والمانعُ لقبولها قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] .

وحدُّه: أن يصرفَ العبدُ نوعاً من أنواع العبادةِ لغير الله ، فكلُّ اعتقادٍ ، أو قولٍ ، أو عملٍ ثبتَ أنَّه مأمورٌ بهِ مِنَ الشارع ، فَصَرْفُه للهِ وحدَه توحيدٌ وإيمانٌ وإخلاصٌ ، وصرفُه لغيره شركٌ وكفرٌ(١) .

فحقيقة الشرك بالله: أن يُعْبَدَ المخلوقُ كما يُعْبَدُ الله ، أو يعظَّمَ كما يُعَظَّمَ الله ، أو يُصْرَفَ له نوعٌ من خصائص الربوبية والألوهية .

ولقد وردت النصوصُ الكثيرةُ من الكتاب والسنة في التحذير من الشرك ، وبيان خطره ، وأنَّه أعظمُ ذنبٍ عُصِيَ اللهُ بِهِ ، وأنَّه لا أضلَّ مِنْ فاعله ، وأنَّه مخلَّدٌ في النار أبداً ، لا نصيرَ له ولا حميم ، ولا شفيعَ يطاع ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ

---

(١) القول السديد في مقاصد التوحيد للسعدي ص(٣١) .

﴿إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

إنَّ الشركَ هو الذنبُ الوحيدُ المتميِّز عن بقيةِ الذنوب بعدم المغفرةِ لصاحبه إذا ماتَ ولم يَتُبْ منه، وأمّا بقيةُ الذنوبِ فإنَّ صاحبَها إن ماتَ ولم يتبْ منها، فإنَّه تحتَ مشيئةِ الله، إنْ شاءَ عذّبه، وإنْ شاءَ غفرَ له.

إنَّ الذنوب التي هي دونَ الشرك جعلَ الله لمغفرتها أسباباً كثيرة، كالحسنات الماحية، والمصائبِ المكفِّرة في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضِهم لبعضٍ، وشفاعة الشافعين، ومِنْ دون ذلك كلِّه رحمتُه التي خَصَّ بها أهلَ الإيمانِ والتوحيد، وهذا بخلاف الشركِ، فإنَّ المشرك سدَّ على نفسِهِ أبوابَ المغفرة، وأغلقَ دونه أبوابَ الرحمة، فلا تنفعه الطاعاتُ دونَ التوحيد، ولا تفيدُه الشدائدُ والمحنُ شيئاً.

إنَّ الشرك بالله تمجُّه الفِطَرُ السليمة، ولقد بقي البشرُ بعد آدم قروناً طويلةً وهم أمةٌ واحدةٌ على التوحيد والهُدى، ثم أدخلتْ عليهم الشياطينُ الشرورَ المتنوّعة بطرق كثيرة، فكان قومُ نوحٍ لما مات منهم أناسٌ صالحون، وحزنوا عليهم، جاءهم إبليسُ، وأمرهم أن يصوّروا تماثيلهم ليتذكّروا أحوالهم، فكان هذا بابُ الشرِّ العظيم، فلمّا ماتَ الذين صوروهم لهذا المعنى خلفَ مِنْ بعدِهم خَلْفٌ قلَّ فيهم العلمُ، واستفزّهم الشيطانُ وأغواهم، حتى أوقعهم في الشرك.

ثم بعث الله فيهم نوحاً عليه السلام يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته وكمال أخلاقه، فقال: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ٥٩] إلا أنهم عصوه، وما آمن معه إلا قليل.

إنَّ الله تعالى خلق الناسَ على فطرةِ التوحيدِ، ثم استطاعتِ الشياطينُ أن تميلَ بالناس، وتنحرِفَ بهم نحو الوثنيةِ المظلمةِ والشركِ العظيم، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] أي إنَّ الناس كانوا

على ملّةِ آدمَ عليه السلام حتى عبدوا الأصنام ، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام ، فكان أوّل رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض(١) .

إنَّ الأمة الإسلامية التي رضيْت باللهِ رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمدٍ ﷺ رسولاً ، عليها أن تحرصَ على تحقيق التوحيد ، ومحاربةِ الشرك ، لأنها تعلمُ علمَ اليقين أنَّ مِنْ شروطِ التمكين لها تحقيقَ التوحيد وتهذيبَه ، وتصفيتَه من الشرك الأكبر والأصغر ، ومن البدعِ القوليةِ والاعتقاديةِ ، والبدع الفعلية والعملية ، ومن المعاصي ، وذلك بكمالِ الإخلاص للهِ في الأقوال والأفعال والإرادات ، وبالسلامةِ مِنَ الشركِ الأكبرَ المناقض لأصلِ التوحيد ، ومن الشركِ الأصغرِ المنافي لكمالِهِ ، وبالسلامة من البدع(٢) ، وعليها أن تحاربَ شرك القبور ، ووكذلك شركَ القوانين الوضعية المخالفة للشريعة الإسلامية ، وعليها أن تدعوَ إلى إفراد العبودية لله وحده في جميع شؤون الحياة الإنسانية ، ولسانُ حالها ومقالها قولُ الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣] .

● **أقسام الشرك:**

ينقسمُ الشركُ إلى قسمين :

القسم الأول ـ الشرك الأكبر: هو الذي يخرِجُ صاحبَه من ملّةِ الإسلام ، ويوجبُ له الخلودَ في جهنم ، ويحرّمُ عليه الجنةَ ، هذا إذا ماتَ على الشرك .

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] .

والشركُ الأكبرُ أنواعٍ منها :

أ ـ شِرْكُ الدعاء: وهو اللجوءُ إلى غيرِ اللهِ ودعائه وقصدِه ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. فهم يوحِّدون الله في حالِ الضيق والشدّة، وإذا نجّاهم أشركوا، ودعوا غيره .

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٥٠).

(٢) الشيخ عبد الرحمن السعدي وجهوده.

ب ـ **شِرْكُ النّيةِ والإرادةِ والقصدِ**: وهو أن يعملَ العملَ ممّا يرادُ به وجهَ اللهِ عزَّ وجلَّ يعملُه لغيرِ اللهِ، ويقصدُ به مراداً آخر، فهذا شركٌ أكبر، قال عزَّ وجلَّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦] قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢٠].

ج ـ **شِرْكُ الطاعةِ**: وهو طاعةُ الأحبار والرهبانِ وغيرِهم من البشرِ والعلماءِ والسلاطينِ والأمراءِ في تحريم ما أحلَّ الله، أو إباحة ما حرَّم الله، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

عن عَدِيِّ بن حاتم رضي الله عنه أنَّه لما بلغته دعوةُ رسولِ اللهِ ﷺ فرَّ إلى الشام، وكان تنصَّر في الجاهلية، فأُسِرَتْ أختُـه وجماعةٌ من قومه، ثم مَنَّ رسولُ اللهِ ﷺ على أخته، وأعطاها، فرجعتْ إلى أخيها، فرغَّبته في الإسلامِ، وفي القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عديٌّ المدينةِ، وكان رئيساً في قومه طيء، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدّث الناسُ بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عُنقِ عَدِيٍّ صليبٌ من فضّة، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنّهم لم يعبدوهم. فقال: «**بلى، إنّهم حرّموا عليهم الحلالَ، وأحلُّوا لهم الحرامَ، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**».

وقال رسول الله ﷺ: «**يا عدي ما تقول؟ أيفرّكُ أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلمُ شيئاً أكبرَ من الله؟ ما يفرُّك؟ أيفرّك أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل تعلمُ من إلهٍ إلَّا الله؟**» ثم دعاه إلى الإسلام فأسلمَ، وشهدَ شهادةَ الحقِّ. فلقد رأيتُ وجهه استبشر ثم قال: «**إنَّ اليهودَ مغضوبٌ عليهم، والنصارى ضالون**»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه في كتاب: القراءات، باب: ومن سورة فاتحة الكتاب (٢٩٥٣)=

د ـ **شِرْكُ المحبّة**: بأن يصرفَ المحبَّة لغيرِ الله تعالى مما يجب أن يكونَ لله ، ومن أدلته قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقوله ﷺ: «**ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يحبُّه إلَّا لله ، وأنْ يكرَهَ أن يعودَ إلى الكفرِ بعدَ أن أنقذَهُ اللهُ مِنْهُ كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النارِ**»(١) .

● **أمثلة للمشرك للتنفير من حاله:**

وقد اهتمَّ القرآن الكريم بضربِ الأمثال للتنفيرِ من حال المشرك وهذه بعض الأمثال:

المثال الأول ـ مَثَّلَ المشركَ بالساقط من السماء: قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١] .

يحثُّ الله سبحانه عبادَه على إخلاصِ التوحيد ، وإفرادِه بالطاعةِ والعبادةِ دون الأوثان ، ويذكرُ قبحَ الشركِ وبطلانَه بأوضح الأمثلة ، لأنَّ مَنْ يشركُ باللهِ شيئاً من دونه فمثله في بعدِه عن الهُدى وإصابةِ الحقِّ ، وهلاكِه وذهابِه عن ربِّه مثل مَنْ خرَّ من السماءِ ، فتخطّفه الطيرُ ، فهلك ، أو هوت به العواصفُ في مكانٍ بعيدٍ ، فهذا مثلٌ ضربه الله لمن أشركَ باللهِ في بعدِه من الهدى وهلاكه(٢) .

المثال الثاني ـ مثَّل المشرك بالحيران في الأرض: قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١] هذا مثلٌ ضربه الله للآلهة ، ومن يدعو

= وباب: ومن سورة التوبة (٣٠٩٥) وأخرجه أحمد في المسند (٤/ ٣٧٩) وفيه أنّ الأسيرة هي عمّةُ عدي لا أخته ، وقوله: (أيفرُّك) أي يحملك على الفرار.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب حلاوة الإيمان (١٦) ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان خصالٍ من اتصفّ بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣) .

(٢) تفسير الطبري (١٧/ ١٥٥) ، الشرك في القديم والحديث لأبي بكر محمد زكريا (٢/ ١٣٧٠) .

إليها ، وللدعاة الذين يدعون إلى الله ، كمثل رجلٍ ضلَّ الطريق ، إذ ناداه منادٍ: يا فلان ابن فلان ، هلمَّ إلى الطريقِ ، وله أصحابٌ يدعونه: يا فلان ، هلمَّ إلى الطريق ، فإنِ اتبعَ الداعيَ الأول انطلقَ به ، حتى يلقيه في الهلكة ، وإنْ أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق[1].

المثال الثالث ـ مثَّل المشرك بالعبد المملوك لجماعة كثيرين: قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩] هذا مثلٌ ضربه الله سبحانه وتعالى للمشرك والموحّد ، فالمشركُ بمنزلةِ عبدٍ يملكه جماعةٌ متنازعون ، مختلفون متشاحنون ، **والرجلُ المشاكِسُ**: الضيّقُ الخلق ، **فالمشرِكُ** لمّا كان يعبد آلهةً شتّى شُبِّهَ بعبدٍ يملكه جماعةٌ متنافسون في خدمته ، لا يمكنه أن يبلغَ رضاهم أجمعين. **والموحِّدُ** لمَّا كان يعبدُ الله وحدَه ، فمثله كمثلِ عبدٍ لرجلٍ واحدٍ ، قد سَلِمَ له ، وعَلِمَ مقاصدَه ، وعرفَ الطريقَ إلى رضاه ، فهو في راحةٍ من تشاحُنِ الخلطاء فيه ، بل هو سالِمٌ لمالِكِه من غيرِ تنازعٍ فيه ، مع رأفةِ مالِكِه به ، ورحمتِهِ له ، وشفقتِهِ عليه ، وإحسانِهِ إليه ، وتولّيه لمصالِحِه ، فهل يستوي هذان العبدان؟ وهذا من أبلغِ الأمثالِ ، فإنَّ الخالصَ لمالكٍ واحدٍ يستحقُّ مِنْ معونته وإحسانِهِ والتفاتِهِ إليه وقيامِهِ بمصالِحه ما لا يستحقُّه صاحبُ الشركاءِ المتشاكسين ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون[2].

القسم الثاني ـ الشرك الأصغر: وهذا النوعُ لا يخرِجُ صاحبه من الملة ، ولكنّه يُنْقِصُ من توحيده ، وهو وسيلةٌ للشرك الأكبر ، وهو ينقسِمُ إلى نوعين: ظاهر وخفي.

أ ـ فالظاهِرُ من الشرك الأصغر: مكوّنٌ من ألفاظ ، وأفعال.

فمنَ **الألفاظِ**: الحَلفُ بغير الله ، وقولُ الإنسانِ: لولا الله وأنتَ ، أو هذا مِنَ الله ومِنْكَ ، ما شاء الله وشئتَ ، فإنَّ هذا يقتضي المساواةَ بين الله وبين العبد ،

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٣٦).

(٢) أعلام الموقعين (١/ ١٨٧).

وهذا محالٌ ، ولكنّ الصحيح ألاّ يحلف إلا بالله عزَّ وجلَّ ، وأن يقول: لولا الله ثم أنت ، أو هذا من الله ثم منك ، وما شاء الله ثم شئت.

ومن **الأفعال**: لبس الحلقةِ والخيطِ ، وتعليقِ التمائم خشيةَ العين أو الجن ، فمن فعل ذلك معتقداً أنها سببٌ يستدفع بها البلاء ، وأن الدافع للبلاء هو الله وحده ، فقد أشركَ شركاً أصغر ، وإذا فعل ذلك معتقِداً أنَّ هذه الأشياء تدفعُ البلاءَ بعد نزولِهِ ، أو تمنعه قبلَ حلوله ، فقد أشركَ شركاً أكبر ، حيث اعتقدَ شريكاً مع الله في الخلق والتدبير[١].

ب ـ وأما الخفي من الشرك الأصغر: فهو شِركُ الإراداتِ والمقاصدِ والنيَّاتِ ، وذلك مثل الرياء ، والسمعة ، ومثال ذلك أن يعملَ المسلمُ عملاً ، الأصلُ فيه أنَّه لله تعالى ، ثم بعدَ ذلك يدخِلُ فيه شيئاً من الرياء أو السمعة ، فيريدُ مِنَ الناس الثناءَ عليه ، كأنْ يقرأَ مسلمٌ القرآن لله تعالى تقرُّباً له ، وعندما يرى الناسَ تنصِتُ له ، يُلحِّن في صوته ابتغاءَ الثناءِ عليه ، أو يتصدَّقُ إنسانٌ بمالٍ ثم يحبُّ أن يُمدَحَ ويُثْنَى عليه ، أو يُحَسِّنُ الرجلُ صلاته التي يتقرَّبُ بها إلى الله لما يرى من نظر الناس إليه ، وغير ذلك من الأعمالِ والعباداتِ التي تُصْرَفُ لله تعالى ابتداءً. وإلا لو صرف ابتداءً لغير الله لأصبحَ ذلك شركاً أكبرَ يخرجُ من الملة ، ولكن بعدَ البَدْءِ فيها يدخلُ عليه حُبُّ المدحِ والثناءِ على فعلِهِ وعبادتِهِ.

وعاقبةِ الرياءِ الذي يخالِطُ العملَ هو إبطالُ أجرٍ وثوابِ هذا العمل ، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] وقال رسول الله ﷺ: «**إن أخوفُ ما أخافُ عليكم الشركَ الأصغرَ**» فسئل عنه فقال: «**الرياء**»[٢].

إنَّ الشركَ في الإراداتِ والنيَّاتِ بحرٌ لا ساحلَ له ، وقلَّ مَنْ ينجو منه ، فمن أرادَ بعملِهِ غيرَ وجه الله ، ونوى به شيئاً غيرَ التقرّب إليه ، وطلب الجزاءَ منه ، فقد أشركَ في نيته وإرادته.

والإخلاصُ: أن يخلصَ العبد للهِ في أفعاله وأقوالِهِ وإرادتِهِ ونيّته ، وهذه هي

---

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة للقحطاني ص(١٤٢).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٤٢٨) ، (٥/٤٢٩). قال الهيثمي في (مجمع الزوائد) (١/١٠٢): رجاله رجال الصحيح.

الحنيفيَّةُ ملةُ إبراهيم ، التي أمرَ الله بها عبادَه كلَّهم ، ولا يَقْبَلُ من أحدٍ غيرَها ، وهي حقيقةُ الإسلام ، وهي ملَّةُ إبراهيم عليه السلام(١) .

والعبدُ المؤمن يخشى على نفسه مِنَ الرياء ، وأن تصيرَ أعمالُه هباءً منثوراً ، فقد قال الله تعالى عن أقوام: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣] .

وقال الفُضيل في هذه الآية: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ قال: عملوا أعمالاً ، وحسبوا أنّها حسناتٍ ، فإذا هي سيئاتٌ(٢) .

وقريبٌ من هذا أن يعملَ الإنسانُ ذنباً يحتقِرُه ، ويستهين به ، فيكونُ هو سببَ هلاكه ، كما قال تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٥] .

وقال بعض الصحابة: إنّكم لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشعرِ ، كنا نعدها على عهدِ رسول الله ﷺ من الموبقاتِ(٣) .

وأصعب من هذا مَنْ زُيِّنَ له سوءُ عمله فرآه حسناً ، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٤ ـ ١٠٥] قال سفيان بن عُيينة: لمَّا حضرتْ محمّد بن المنكدر الوفاةُ جزعَ ، فَدَعوا له أبا حازم ، فجاء فقال له ابن المنكدر: إنَّ الله يقول: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧] وأخافُ أن يبدو لي مِنَ الله ما لم أكنْ احتسبُ ، فجعلا يبكيان جميعاً ، فقال له أهله: دعوناك لتخفِّفَ عليه فزدته ، فأخبرهم بما قال(٤) .

وقال الفضيل بن عياض: أُخبرت عن سليمان التَّيمي أنه قيل له: أنتَ أنتَ ومَنْ مِثْلُك؟ فقال: مه ، لا تقولوا هذا ، لا أدري ما يبدو لي من الله ، سمعت الله يقول: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧](٥) . وكان سفيان الثوري

---

(١) العقيدة الصافية ص(٤٠٦) .

(٢) المحجة في سير الدُّلجة ، لابن رجب الحنبلي ص(٩٠) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الرقاق ، باب: ما يتقى من محقرات الذنوب (٦٤٩٢) عن أنس رضي الله عنه .

(٤) صفوة الصفوة (٢/ ١٦٧) ابن الجوزي .

(٥) المحجة في سيرة الدلجة لابن رجب ص(٩٢) .

يقول عند هذه الآية: ويلٌ لأهلِ الرياءِ من هذه الآية، وهذا كما في حديث الثلاثة الذين هم أوَّلَ مَنْ تُسعَّرُ بهم النارُ؛ العالِمُ، والمُتصَدِّقُ، والمجاهِدُ(١).

وكذلك من عمل أعمالاً صالحة، وكانت عليه مظالم، فهو يَظُنُّ أنَّ أعماله تنجيه، فيبدو له ما لم يكن يحتسب، فيقتسمُ الغرماءُ أعماله كلَّها، ثم يفضُلُ لهم فضلٌ، فيطرح من سيئاتهم عليه، ثم يُطرُح في النار(٢).

وقد يناقَشُ الحسابَ فيُطْلَبُ منه شُكْرُ النعم، فتقوم أصغرُ النعم فتستوعِبُ أعماله كلَّها، وتبقى بقيةُ النعم، فيُطالَبُ بشكرِها فيعذَّبُ، ولهذا قال ﷺ: «**مَنْ نُوْقِشَ الحسابَ عُذِّبَ**» وفي روايةٍ: «**هَلَكَ**»(٣).

وقد تكون له سيئاتٌ تحبِطُ بعضَ أعماله أو أعمالَ جوارحه سوى التوحيد، فيدخلُ النارَ. وقد يحبطُ العملُ بآفةٍ من رياءٍ خفيٍّ، أو عُجُبٍ به، ونحو ذلك، ولا يشعر به صاحبُه(٤).

قال ضيغم العابد: إنْ لم تأتِ الآخرةُ المؤمنَ بالسرورِ لقد اجتمع عليه الأمرّان، هَمُّ الدنيا وشقاءُ الآخرة.

فقيل له: كيف لا تأتيه الآخرةُ بالسرورِ، وهو يتعبُ في دار الدنيا ويدأبُ؟.

فقال: كيف بالقبولِ، كيف بالسلامةِ؟ ثم قال: كم مِنْ رجلٍ يرى أنَّه قد أصلحَ عملَه، يُجمَعُ ذلك كلُّه يومَ القيامة، ثم يضربُ به وجهُهُ.

ومن هنا كان بعضُ الصالحين يقلقون من هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

---

(١) سبق تخريجه ص(١٠٥).

(٢) هو حديث المفلس وقد سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الرقاق، باب: من نوقش الحساب عذب (٦٥٣٦) بلفظ «عُذب»، وكذلك مسلم في صحيحه، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: إثبات الحساب (٢٨٧٦). وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]. (٤٩٣٩) بلفظ «هلك». وكذلك مسلم في صحيحه. كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: إثبات الحساب (٢٨٧٦).

(٤) المحجة في سير الدلجة ص(٩٦).

ولذلك فالمسلمُ لا يثقُ بكثرةِ العمل ، لأنَّه لا يدري أيقبل منه أم لا؟ ولا يأمنُ ذنوبه ، فإنه لا يدري هل كفَّرت عنه أم لا؟ لأنَّ الأعمالَ مُغَيَّبَةٌ عن العبيدِ ، لا يدرون ما اللهُ صانعٌ بهم[(١)] .

ومن تأمَّلَ هذا حقَّ التأمل أوجبَ له الخوفَ والخشيةَ والقلقَ ، فإنَّ ابنَ آدم معرَّضٌ لأهوالٍ عظيمةٍ من الموتِ ، والقبرِ ، وأهوالِ البرزخ ، وأهوالِ الموقفِ ، كالصراطِ ، والميزانِ ، وأعظمُ من ذلك الوقوفُ بَيْنَ يدي الله عزَّ وجلَّ ، ودخولُ النار ، ويخشى على نفسه الخلود فيها ، بأن يُسلَبَ إيمانُه عندَ الموت ، ولم يأمن المؤمنُ شيئاً من هذه الأمور ، قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] .

قال الشاعر (من الوافر):

أمـــا واللهِ لـــو عَلِـــمَ الأنـــامُ ... لمَـا خُلِقُـوا لمـا غَفلُـوا ونـامُـوْا
لقـد خُلِقُـوا لِمَـا لَـوْ أبْصَـرَتْـهُ ... عيـونُ قلـوبهـم تـاهُـوا وهـامُـوا
ممـــاتٌ ثـــم قبـــرٌ ثـــم حَشْـــرٌ ... وتـــوبيـــخٌ وأهـــوالٌ عِظَـــامُ
ليـومِ الحشـرِ قَـدْ عَمِلَـتْ رجـالٌ ... فصَلُّـوا مِـنْ مخـافَتِـهِ وَصَـامُـوا
ونحـــنُ إذا نُهينـــا أو أُمِـــرْنَـــا ... كـأهـلِ الكَهْـفِ أيقـاظٌ نِيَـامُ[(٢)]

● **الفرقُ بين الشركِ الأكبرِ والأصغرِ:**

الشركُ الأكبر يخرِجُ صاحبه من الإسلام ، بخلافِ **الشرك الأصغر** .

الشرك الأكبرُ يحبِطُ جميعَ الأعمال ، أمّا **الشركُ الأصغرُ** فإنَّه يحبِطُ العملَ الذي خالطَه فقط .

الشركُ الأكبرُ يبيحُ الدمَ والمالَ ، **والشِّرْكُ الأصغرُ** ليس كذلك .

الشركُ الأكبرُ يخلِّد صاحبَهُ في النار ، أمّا **الشرك الأصغر** فلا يخلّد صاحبَه في النار ، وإن دخلها .

الشركُ الأكبر يوجِبُ المعاداةَ ، وقطعَ الموالاة ، فلا يجوزُ موالاة المشرك

---

(١) المصدر نفسه ص(٩٨) .

(٢) المحجة في سير الدلجة ص(١٠١) .

مهما كانت قرابته. أمَّا **الشركُ الأصغرُ** فلا يقطعُ الموالاةَ على الإطلاق، وإنّما يُوَالى بقدر ما لديه من التوحيدِ، ويُعادى بحسب ما فيه مِنَ الشرك[١].

● **آثارُ الشرك:**

إنَّ الشركَ الذي يقعُ فيه الإنسانُ له آثاره الوبيلةُ في دنياه وآخرته، سواءٌ أكان الواقع فيه فردٌ أم جماعةٌ، فمن تلك الآثار: إطفار نور الفطرة، والقضاء على منازع النفس الرفيعة، والقضاءُ على عزَّةِ النفس، ووقوعُ صاحبه في العبوديّةِ الذليلةِ، وتمزيقُ وحدةِ النفس البشرية، وإحباطُ العمل[٢].

ثانياً ـ الكفر حقيقته وأنواعه وما يتعلق بكل نوع من أحكام:

● **تعريف الكفر وحقيقته:**

الكفرُ لغةً **تغطيةُ الشيء**، وسُمِّي الليلُ كافراً لتغطيته كلَّ شيءٍ[٣]، وذكرَ أهلُ التفسير أنَّ الكفر في القرآن على خمسةِ أوجهٍ:

أحدهما: **الكفر بالتوحيد**، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

والثاني: **كفر نعمةٍ**، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

والثالث: **التبرؤ**، ومنه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، أي يتبّرأ بعضُكم من بعضٍ.

والرابع: **الجحود**، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

والخامس: **التغطية**: ومنه قولُه تعالى: ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠] يريدُ الزرّاع الذين يغطّون الحبَّ[٤].

---

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة ص(١٤٣).

(٢) فقه النصر والتمكين ص(٣٠٢).

(٣) التبيان لعلاقة العمل بمسمى الإيمان، علي سوف ص(٢٤٩).

(٤) نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (٢/ ١١٩ ـ ١٢٠).

وأما الكفر **اصطلاحاً**: فهو **الإنكارُ المتعمَّدُ لما جاء به محمّد** ﷺ ، **أو بعضَ ما جاء به محمد** ﷺ **ممّا عُلِمَ من دينه بالضرورة**[١].

والكفر والإيمان ضدّان ، متى ثبتَ أحدُهما ثبوتاً كاملاً انتفى الآخر[٢].

والكفرُ ليس حقيقةً واحدةً ، ولا هو شعبةٌ واحدةٌ ، فلا ينحصِرُ في التكذيبِ أو الاعتقادِ القلبي ، بل هو شُعَبٌ متعدِّدةٌ ، ومراتبُ متفاوتةٌ ، كما أنَّ ما يقابِلُه ـ وهو الإيمان ـ شعبٌ متعدِّدةٌ كما سبق ذكره.

ويقعُ الكفرُ بالتكذيبِ والجحودِ ، والإعراضِ ، والتكبّر عن أوامرِ اللهِ[٣].

وكما أنَّ الإيمان ذو شعب دلَّ عليها حديثُ النبيِّ ﷺ المتفق عليه في قوله ﷺ: «**الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ أو بضع وستون شعبةً: فأفضلها قول شهادةُ أنَّ لا إله إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريقِ ، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان**»[٤]. فكذلك الكفرُ له شعبٌ أيضاً.

- **ـ أقسام الكفر:**

ينقسم الكفر إلى قسمين:

القسم الأول: كفرٌ أكبر يناقِضُ الإيمان ، ويوجب الخروج من الملة ، والخلودَ في النار ، وهو على **خمسة أنواع**:

النوع الأول ـ كفر التكذيب: وهو اعتقادُ كذب الرسل ، وهذا قليلٌ جداً ، لأنَّ الله أيَّدَ رسلَه بالآياتِ ، وأعطاهم من المعجزات ما يقومُ به دليلاً على صدقهم ، وقيامِ الحجّةِ على أممهم ، قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة ص(٤٩).

(٢) الإرشاد إلى معرفة الأحكام للسعدي ص(٢٠٣ ـ ٢٠٤).

(٣) التبيان لعلاقة العمل بمسمى الإيمان ص(٢٥٦).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٥). وأخرجه البخاري في صحيحه مختصراً ، كتاب: الإيمان ، باب: أمور الإيمان (٩).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] وإنَّما يلجأ بعضُ الكفَّار إلى تكذيبِ الرسلِ بألسنتهم فقط، وليس من قلوبهم.

النوع الثاني ـ كفر الإباء والاستكبار: وهو المسمّى **بالكفر الإبليسي**، فإنَّ إبليسَ إنَّما جحدَ أمرَ الله وأنكره عناداً واستكباراً، وهذا النوع يقعُ من معظم الكفار، حيث يقولون: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ [يس: ١٥] وكما يقول قوم فرعون: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧][(١)].

النوع الثالث ـ كفر الإعراض: وذلك بأنْ يُعْرِضَ بسمعه وقلبِهِ عن الرسول ﷺ، لا يصدّقه، ولا يكذّبه، ولا يواليه، ولا يعاديه، ولا يصغي له، ولا إلى ما جاء به البتَّةَ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

النوع الرابع ـ كفرُ الشكِّ: بأنْ لا يجزمَ بصدقِ النبيِّ ﷺ، ولا يكذّبه، وإنما يشكُّ في ذلك، أو يشك في القيامة، ومِنْ هذا الكفرِ كفرُ صاحِبِ الجنّة والبستانِ الذي غرّه ما عنده من الرزق، وفقدَ الإيمانَ باللهِ واليوم الآخر، قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٣٥ ـ ٣٨] فلقد عبّر عن عقيدته في اليوم الآخر بقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ هكذا على سبيل الشك وعدم اليقين، فوقع في الكفر، كما قال له صاحبه ﴿أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾ وهذا هو مصيرُ أصحاب القلوبِ المريضة والعياذ بالله.

النوع الخامس ـ كفر النفاق: وهو إظهارُ الإيمانِ باللسان، وإخفاءُ الكفرِ والتكذيب في القلبِ، وهو **النفاق الأكبر**، وهذا النوع من أشدِّ أنواعِ الكفرِ خطراً على الإسلام والمسلمين، وأصحابُ هذا النفاق يتغلغون في صفوف المسلمين، ويحاولون تفريقَ الكلمة وتمزيقَ الأمة، ودليله قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤٦).

ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨ ـ ٩] (١).

القسم الثاني: كفر أصغر: وهذا لا ينافي أصلَ الإيمان، ولا يذهب به بالكلية، وإنّما ينقص كماله، ويصبح الموصوف به مذموماً شرعاً، وإن بقيتْ أحكامُ الإسلام تجري عليه، لبقاء أصل الإيمان به(٢)، **وهو كلُّ ذنب وردَت تسميتُه في الكتاب والسنّةِ كفراً، وهو لا يصلُ إلى حَدِّ الكفر الأكبر**، وهذا النوع يوجبُ استحقاقَ الوعيد دونَ الخلودِ في النار، ومثال ذلك قوله ﷺ: «**سبابُ المسلمِ فسوقٌ وقتالُه كفرُ**»(٣). فإنَّ الكفرَ هنا معناه الكفرُ الأصغرُ الذي لا يخرجُ من الملّة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] فقد سمّاهم الله مؤمنين مع اقتتالهم(٤).

● ـ إطلاق حكم الكفر، وشروط التكفير، وموانعه، والتوبة منه:

١ ـ إطلاقُ حكم الكفر: ليس كلُّ مَنْ عملَ عملاً أو قال قولاً كفرياً يكون كافراً، إلا إذا وُجِدَت الشروطُ في حقِّ ذلك المعيَّن، وانتفت الموانعُ التي تمنع استحقاقه لذلك الحكم، فقد يقولُ الإنسان الكفرَ أو يعملُه باجتهادٍ أو خطأً ولا يكفُرُ به، وذلك لما يترتَّب على ذلك من الأحكام الشرعية، كإهدارِ دمه، وزوالِ عصمة ماله، وقطع الميراث بينه وبين أولاده، وتحريمِ زوجته عليه، وعدمِ حلِّ ذبيحته، وعدمِ جوازِ تغسيلِه والصلاةِ عليه ودفنِهِ في مقابر المسلمين، وعدمِ جوازِ الاستغفارِ له بعد موته، ولورودِ الوعيد الشديد على مَنْ أطلقَ كلمة

---

(١) العقيدة الصافية ص(٣٩٧).

(٢) عقيدة أهل السنة والجماعة ص(٥١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر (٤٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر» (٦٤).

(٤) عقيدة أهل السنة والجماعة ص(٥١).

الكفر على مُسلمٍ ، ولم يكن كذلك ، ففي الحديث: «**أيما رجلٍ قالَ لأخيه يا كافرُ فقد باءَ بها أحدُهما**»[١].

٢ ـ شروط التكفير:

بيّن علماءُ المسلمين بأنَّ الشخص المعيّن لا يكونُ كافراً حلالَ الدم والمالِ إلا إذا تحققت فيه شروطٌ عدة ، وانتفت عنه موانعُ ، حينئذٍ يجوزُ الحكم عليه بالكفر ، أما إذا انتفى أيُّ شرطٍ ، أو وُجِد أيُّ مانع ، فلا يجوزُ أن يحكمَ عليه بالكفر ، **وليس معنى هذا إعفاءَه من العقوبة تماماً ، بل يُعاقَبُ على حسب حاله ، إنّما الممنوعُ الحكمُ عليه بالكفر ، لا مطلقُ العقوبةِ.**

هناك شروطٌ ثلاثةٌ لا بدَّ من اجتماعها في من عمل عملاً يستحقُّ عليه الوعيد واللعن والكفر ، وإذا سقطَ شرطٌ منها فيمتنع لعنُ الشخصِ أو تكفيرُه ، وهذه الشروط هي:

الشرط الأول ـ العلم: فالله سبحانه وتعالى لم يشرع العقوبةَ قبل إقامةِ الحجّة ، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ﴾ [القصص: ٥٩] وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك: ٨ ـ ٩] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤] وهذه النصوصُ الربانية تفيدُ أنَّ الله تعالى لا يؤاخِذُ عبادَه إلاّ بعدَ قيام الحجة عليهم، وعِلمهم بالحقِّ والصواب[٢]، وقد ثبت في نصوصٍ أخرى أنّ الله لا يؤاخِذُ جاهلاً، ولو كان جهلُه بمسائلَ في العقيدة، فقد قال رسول الله ﷺ: «**كانَ رجلٌ يُسْرِفُ على نفسِهِ ، ولمّا حضره الموتُ قال لبنيه: إذا**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الأدب ، باب: من كفَّر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (٦١٠٤) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر (٦٠).

(٢) ظاهرة الغلو في الدين ، محمد عبد الحكيم حامد ص(٢٦٧).

أنا مِتُّ فأحرقوني ، ثم اطحنوني ، ثم ذُرُّوني في الريح ، فو اللهِ لئن قدرَ عليَّ ربي ليعذِّبني عذاباً ما عذَّبه أحداً ، فلمّا ماتَ ، فُعِلَ به ذلك ، فأمرَ الله الأرضَ فقال: اجمعي ما فيكِ منه، ففعلتْ، فإذا هو قائمٌ، فقال: ما حملكَ على ما صنعتَ؟قال: يا ربِّ خَشْيَتُك ، فَغُفِرَ له» وفي رواية: «**مخافَتُك يا ربِّ**»[١] ، فهذا الرجلُ كان قد وقعَ له الشكُّ والجهلُ في قدرة الله تعالى على إعادةِ ابنِ آدم، بعدما أُحْرِقَ وذُرّي ، وعلى أنّه يعيدُ الميتَ ويحشرَه إذا فعلَ ذلك ، وهذان أصلان عظيمان ، **أحدهما**: متعلِّقٌ بالله تعالى، وهو **الإيمانُ بأنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ**. **والثاني**: متعلِّقٌ: **باليوم الآخر**، وهو الإيمانُ بأنَّ الله يعيدُ هذا الميِّتَ، ويجزيه على أعماله، ومع هذا فلمَّا كان مؤمناً باللهِ في الجملةِ ، ومؤمناً باليوم الآخر في الجملةِ ، وهو أنَّ الله يثيبُ ويعاقِبُ بعدَ الموت وقد عمل صالحاً، وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه، غفرَ الله له بما كانَ منه من الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح[٢].

وكذلك بلال بن رباح رضي الله عنه ، لمّا باع الصاع بالصاعين أمره النبيُّ ﷺ بردّه ، لم يرتِّبْ على ذلك حكمَ آكلِ الربا من التفسيقِ واللعنِ والتغليظِ لعدم علمه بالتحريم[٣].

الشرط الثاني ـ العمدُ: لا بدَّ مِنْ توفّر شرطِ العمد ، لأنَّ الله تعالى قد رفعَ الإثمَ والمؤاخذةَ عن المخطئ والمتأوِّل ، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥] وقال سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، وقد ثبتَ عن النبيِّ ﷺ: «**أنَّ الله تعالى قال: قد فعلتُ**» لمّا دعا النبيُّ ﷺ والمؤمنون بهذا الدعاء[٤]. وقال

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: أحاديث الأنبياء ، باب: حديث الغار (٣٤٨١). وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: التوبة ، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٦) بلفظ قريب.

(٢) الفتاوى (١٢/ ٤٩١).

(٣) الفتاوى (٢٠/ ٢٥٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الإيمان ، باب: بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ، وبيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق ، وبيان حكم الهم بالحسنة والسيئة (١٢٥).

رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ تجاوزَ لي عن أُمَّتي الخطأَ والنسيانَ وما استُكْرِهُوا عليه...**»[١] وذلك يعمُّ الخطأ في المسائلِ الخبريةِ القوليةِ، والمسائلِ العمليةِ، وما زالَ السلفُ يتنازعون في كثير من هذه المسائل، ولم يشهد أحدٌ منهم على أحد لا بكفرٍ ولا بفسقٍ ولا بمعصيةٍ[٢]. تلك أدلة رفعِ الإثمِ والمؤاخذةِ عن المخطئِ والمتأول[٣].

وإذا كان المسلم متأوِّلاً في القتال أو التكفير لم يكفرْ بذلك، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحاطب بن أبي بلتعة: يا رسول الله دعني أضربُ عنقُ هذا المنافق، فقال النبيُّ ﷺ: «**إنَّه شهدَ بدراً، وما يدريكَ لعلَّ الله أن يكون قد اطّلعَ على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتُم فقد غفرتُ لكم**»[٤]، وكذلك ثبت في «الصحيحين» عن أسامة بن زيد أنَّه قتلَ رجلاً بعد ما قال: لا إله إلا الله، وعظّم النبيُّ ﷺ ذلك لمَّا أخبروه وقال: «**يا أسامةُ أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله**»؟ كرَّر ذلك عليه حتى قال أسامةُ: تمنّيتُ أني لم أكنْ أسلمتُ قبل ذلك اليوم[٥]، ولم يوجب عليه قَوَداً ولا دِيةً ولا كفّارةً، لأنّه كان متأوِّلاً، وظنَّ جوازَ قتلِ ذلك القائل لظنّه أنّه قالها تعوُّذاً[٦].

الشرط الثالث ـ الاختيار والقدرة: قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٢١٩) والحاكم في المستدرك ٢/ ١٩٨ وصححه ووافقه الذهبي، انظر شرح الحديث في كتاب جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي (٣٥٠ـ٣٥٦).

(٢) الفتاوى (٣/ ٢٢٩).

(٣) ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث ص(٢٧١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب: الجاسوس (٣٠٠٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر، وقصة حاطب بن أبي بلتعة (٢٤٩٤).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: بعث النبي أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة (٤٢٦٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان. باب: تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله (٩٦).

(٦) ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث ص(٢٧٢).

ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦] ففي قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ استثناءٌ ممّن كفرَ بلسانه، ووافق المشركينَ بلفظهم مُكرَهاً لما ناله من ضربٍ وأذًى، وقلبُه يأبى ما يقولُ، وهو مطمئنٌ بالإيمانِ باللهِ ورسوله ﷺ، وقد نزلت هذه الآيةُ في عمّار بن ياسر، فقد أخذه المشركون، فعذّبوه حتى قاربهم في بعضٍ ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبيِّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: «**كيفَ تجدُ قلبك؟**» قال: مطمئناً بالإيمان، قال النبي ﷺ: «**إنْ عادوا فَعُدْ**»[1].

ولهذا اتفق العلماءُ على أنَّ المكرَهَ على الكفرِ يجوزُ له أن يوالي إبقاءً لمهجته، ويجوزُ له أن يأبى كما كان بلالٌ رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك، والأفضلُ والأولى أنْ يَثْبُتَ المسلمُ على دينه، ولو أفضى إلى قتله[2]. وقد أخبر الله سبحانه وتعالى في غيرِ موضعٍ أنَّه لا يكلِّفُ نفساً إلاَّ وسعها، كقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ [الأعراف: ٤٢] وأمربتقواه بقدر الاستطاعةِ فقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

٣ ـ موانع التكفير:

إنَّ الحكمَ على الشخص المعيَّن يتوقَّفُ على وجودِ شروطٍ، وانتفاء موانعٍ، ومن موانع التكفير: الخطأُ، الجهلُ، العجزُ، والإكراهُ.

أ ـ فالخطأ: لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٥] فوجودُ الخطأ من المسلمِ أحدُ موانعِ تكفيرِ المعيَّن، كما أنَّ الله أمرَ الناسَ أن يطلبوا الحقَّ على قدر وسعهم وإمكانهم، فإن لم يصيبوا الحقَّ في اجتهادهم، فلا يكلِّفُ الله نفساً إلا وسعها، والواجبُ في حقّ المسلم أن يعبدَ الله بحسب ما توصّلَ إليه اجتهادُه، إن كان مؤهّلاً للاجتهاد، وبذل وسعه في طلب الحقِّ.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة النحل (٢/ ٣٨٩) رقم (٣٣٦٢)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. والبيهقي في السنن، كتاب: المرتد، باب: المكره على الردة (٨/ ٢٠٨)، قال ابن حجر في فتح الباري (١٢/ ٣١٢): مرسل ورجاله ثقات.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٧ ـ ٥٨٨).

إنَّ الأدلةَ من الكتاب والسنة متضافرةٌ على أنَّ المجتهد المخطئَ معذورٌ ، كما دلَّ الإجماعُ والقياسُ على ذلك[١] .

ب ـ الجهل : قال تعالى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥] وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] فالجهلُ أحدُ موانعِ تكفيرِ المعيَّنِ ، لأنَّ الإيمانَ متعلِّقٌ بالعلم ، ووجودُ العلم بالمؤمن به شرطٌ من شروطِ الإيمانِ به[٢] .

ج ـ العجز : قال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥] فأولئك كانوا عاجزينَ عن إقامةِ دينهم ، فقد سقط ما عجزوا عنه[٣] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَاۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٩] فهذه الآياتُ في جماعةٍ من المؤمنين كانوا يستخفون بإيمانهم ، وهم عاجزونَ عن الهجرة ، فعذَرَهم اللهُ تعالى[٤] .

ومثالٌ آخر على العجز كمانع من موانع التكفير ، أنَّ **النجاشيَّ** ملك النصارى في الحبشة ، لم يطعه قومه في الدخول في الإسلام ، ولم يدخل معه سوى نفرٍ يسيرٍ منهم ، فلمّا مات ، صلّى عليه النبي ﷺ بالمدينة ، خرجَ بالمسلمين إلى المصلى ، فصفّهم صفوفاً ، وصلّى عليه ، وأخبرهم بموته يوم مات ، فقال ﷺ : «**قد توفّي اليومَ رجلٌ صالحٌ من الحبش ، فهلمّوا فصلّوا عليه**»[٥] . وكثيرٌ من شرائع الإسلام لم يكن دخلَ فيها لعجزِه عن ذلك ، فلم يهاجِرْ ، ولم يجاهِدْ ، بل قد

---

(١) منهج ابن تيمية في مسألة التكفير (١/ ٢٤٩ ـ ٢٥٧) .
(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٦١) .
(٣) الفتاوى (١٩/ ٢٢٠ ـ ٢٢١) .
(٤) المصدر السابق (١٩/ ٢٢٠) .
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الجنائز ، باب: الصفوف على الجنازة (١٣٢٠) ، وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنائز بابٌ: في التكبير على الجنازة (٩٥٣) .

روي أنَّه لم يصلِّ الصواتِ الخمسَ، ولم يصمْ رمضانَ، ولم يؤدِ الزكاةَ الشرعية، لأنَّ ذلك يظهر عند قومه فينكِرون عليه، وهو لا يمكنه مخالفتهم، ويعلم قطعاً أنَّه لم يكن يمكنه أن يحكمَ بينهم بحكم القرآن، لأنَّ قومه لا يقرّونه على ذلك، ولهذا جعل الله هؤلاء من أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] وقال بعضُ العلماء: هذه الآية نزلت في النجاشي، ومنهم من قال: فيه وفي أصحابه[١].

وكذلك ما أخبر الله به عن **حال مؤمن آل فرعون** مع قوم فرعون، وعن حالِ امرأة فرعون.

وكذلك كان **يوسف الصديق** ـ عليه السلام ـ مع أهل مصر، فإنهم كانوا كفّاراً، ولم يمكنه أن يفعلَ معهم كلَّ ما يعرفه من دين الإسلام، لأنَّه دعاهم إلى التوحيد والإيمان فلم يجيبوه[٢].

إنَّ مَنْ عجز عن أداءِ ما شرع الله عليه، واتّقى الله ما استطاعَ، فإنَّه معذور غيرُ مؤاخَذٍ على ما تركه.

د ـ الإكراه: قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦] وهو كلُّ ما أدّى بشخصٍ لو لم يفعل المأمورَ به إلى ضربٍ أو حبسٍ، أو أخذِ مالٍ، أو قطعِ رزقٍ يستحقّه، أو نحو ذلك[٣].

وشروط الإكراه أربعةٌ:

الشرط الأول: أن يكونَ فاعِلُه قادراً على إيقاع ما يهدِّد به، والمأمورُ عاجزاً عن الدفعِ، ولو بالفرار.

---

(١) الفتاوى (١٩/ ٢١٧ ـ ٢١٩).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٢١٨ ـ ٢١٩).

(٣) مناهج ابن تيمية في مسألة التكفير (١/ ٢٦٦).

الشرط الثاني: أن يغلبَ على ظنِّ المكرَه أنَّه إذا امتنعَ أوقع به المكرِهُ ما هدّده به.

الشرط الثالث: أن يكونَ ما هُدِّدَ به فورياً، أو بعدَ زمنٍ قريبٍ جداً، أو جرتِ العادةُ أنّ المهدِّد لا يخلف ما هدده به.

الشرط الرابع: أن لا يظهرَ من المأمورِ ما يدلُّ على اختياره(١).

٤ ـ التوبة من الكفر بعد ثبوته على المعيَّن:

التوبة: هي رجوعُ العبدِ إلى الله، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين(٢). والله سبحانه وتعالى يقبلُ توبة العبدِ من جميع الذنوب، الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٣ ـ ٧٤] وقال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨].

والتوبة تمحو جميع السيئاتِ، وليس شيءٌ يغفِرُ جميعَ الذنوب إلا التوبة، ومعلومٌ أنَّ من سبَّ الرسول ﷺ من الكفّار المحاربين، وقال: هو ساحر، أو شاعر، أو مجنون، أو معلّم، أو مفتر، وتاب: تابَ الله عليه. وقد كان طائفةٌ يسبّون النبيَّ ﷺ مِنْ أهلِ الحرب، ثم أسلموا، وحسن إسلامهم، وقبل النبيُّ ﷺ منهم، منهم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ، وعبد الله بن أبي السرح، وكان قد ارتدَّ، وكان يَكْذِبُ على النبي ﷺ، ويقول: أنا كنتُ أعلّمه القرآن، ثم تابَ، وأسلمَ، وبايعه النبيُّ ﷺ على ذلك(٣)، **فالتوبةُ هي الأمرُ الوحيدُ الذي يمحو الله به الكفر بعد ثبوته، وقد انعقد الإجماع على ذلك**(٤).

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٣١١).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٩٩).
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٩١).
(٤) منهج ابن تيمية في مسألة التكفير (١/ ٢٧٣).

● **الأمثال القرآنية للكافرين:**

١ ـ السرابُ وأعمال الكفار: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩] بيَّنُ الله سبحانه وتعالى أنَّ مثلَ أعمالِ الذين كفروا بالله ِمثْلَ سرابٍ بأرضٍ منبسطةٍ، يرى وَسْطَ النهارِ، وحين اشتدادِ الحرِّ، فيظنُّه العطشانُ ماءً، فإذا أتاه ملتمِساً الشرابَ لإزالةِ عطشه، لم يجدِ السرابَ شيئاً، فكذلك الكافرون في غرورٍ من أعمالهم التي عملوها، وهم يحسبون أنها تنجّيهم عند الله من الهلاك، كما حَسِبَ العطشانُ السرابَ ماءً، فإذا صار الكافرُ إلى الله ِ، واحتاجَ لعمله، لم ينفعه، وجازاه الله الجزاء الذي يستحّقه(١).

ونلاحظ خلال المثل صورةَ السرّاب، ثم صورةَ الظامئِ الذي ظنّه ماء، ثم خيبتُه عند وصولِه إليه، وحذفَ ما عدا ذلك، لأنَّ الخيالَ يتمُّ رسمَها، وفي المثل له لم يُذكَر إلا عملُ الذين كفروا، وطُوِي ما عدا ذلك، لأنَّ الفكرَ قادِرٌ على أن يستدعيه، وهذا من بلاغة القرآن(٢).

٢ ـ ظلماتُ الكفر: قال تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] هذه الآيةُ مثلٌ آخرُ لأعمالِ الكفّار، إلاّ أنَّ المثلَ في انخداعِ الكافرِ بعمله في الدنيا، وغروره به، وهذا المثلُ لأعمالِ الكفّارِ في أنّها عملتْ على خطأ وفساد وضلال وحيرة وعلى غيرِ هدًى، فهي في ذلك كمثل ظلمات في بحرٍ عميقٍ جدّاً، كثيرِ الماء، وفوقَ هذا الموج موجٌ آخر، وفوقها سحابٌ متراكم، فاجتمعت عِدّةُ ظلماتٍ، وهكذا عمل الكافر ظلماتٌ في ظلماتٍ(٣).

فهذا المثلُ يصوّرُ الحالةَ النفسيةَ والفكريةَ والقلبيةَ للذين كفروا بعد أن تركوا نورَ الهدايةِ الربانيّة، إنّهم يطلبون سعادتهم في الظلمات، فقلوبُهم مظلمةٌ بالكفر،

---

(١) الشرك في القديم والحديث (٢/ ١٣٨٢).
(٢) أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع عبد الرحمن حبنكة ص(١٣٣).
(٣) الشرك في القديم والحديث (٢/ ١٣٨٣).

ونفوسُهم تائهةٌ في بحرٍ من ظلماتِ الأهواء والشهوات ، وأفكارُهم تسبحُ في ظلماتِ أسباب لذّات الدنيا ، وإرادتهم تحت كلِّ هذه الظلمات ، فمثلُهم كمَنْ في ظلماتِ قاعِ بحرٍ عميقٍ ، فوقه أمواجٌ ، في العمق الظلمة ، فوقها أمواجٌ ، في السطح تتضاعفُ الظلمة ، فوقها سحابٌ يزيدُ الظلامُ ظلاماً ، ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعض[1].

إنَّ مثلَ الظلماتِ في (سورة النور) دلَّ على حقائقَ علميةٍ تتَّصل بالعلوم الدنيوية المادية التطبيقية أو النظرية ، وإنَّ هذه الحقائق تنقسم ثلاثةَ أقسامٍ :

القسم الأول: دلالةُ المثلِ على معجزةٍ علميةٍ للنبيِّ ﷺ تتمثّل في الإخبارِ بوجودِ أمواجٍ في باطنِ البحارِ العميقة اللُّجّية (المحيطات) والتي لم تكن معلومةً في ذلك الوقت ، بل لم يكن بمقدور البشر اكتشافها ، لكونها على عمق لا تصله إلا الغواصاتُ أو الغواصون المزوّدون بالأكسجين .

القسم الثاني: الإخبارُ عن حقائق علميةٍ في العلوم الدنيوية بما يطابِقُ ما ثبتَ عند المتخصصين فيها ، وقد اشتملَ المثل على فائدتين من هذا القسم :

الأولى: إفادةُ المثل أنَّ أعماقَ البحار العميقةِ مظلمةٌ ظلمةً شديدةً ، مع بيان سبب ذلك ، وهو وجودُ حُجُبٍ حجبت الضوءَ ، هي عبارةٌ عن أوساط شفّافة متعدّدة أسهمت مجتمعةً في حجب الضوءِ عن تلك الأماكن ، وتسبّبت في ظلمتها ، واتفاق ذلك مع ما تقرر في علم البحار ، وعلم الضوء .

الثانية: دلالةُ المثلِ على التفسير العلمي للرؤية، وأنَّه يشترَطُ له وصولُ الضوءِ من مصدر مضيءٍ إلى الجسم المرئي، وإذا انعدمَ الضوءُ ، ولم يصلْ منه شيءٌ إلى الجسمِ ، فإنَّه يُظْلِمُ ولا يُرى ، واتفاقه مع التفسير الصحيح المتقرر عند المتخصصين في ذلك الشأن، كما تضمّن المثل ـ أيضاً ـ إبطالَ التفسير القديم القائم على أنَّ سببَ الرؤيةِ خروج أشعةٍ من العين تسقطُ على الأجسامِ فتحدث رؤيتها .

القسم الثالث: إفادةُ المثل حقائقَ علميةٍ ثابتةٍ في نفسها ، وإن لم تكنْ مسلّمة عند كل المشتغلين بتلك العلوم ، وذلك في الأمورِ العقلية التي تبحثُ عادةً

---

(١) أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع ص(١٣٣).

فيما يسمّى بعلم النفس والسلوك والاجتماع. وقد دلَّ المثلُ على حقيقتين من هذا القسم، هما:

الحقيقة الأولى: أنَّ الكفَّارَ يتقلّبون في ظلماتٍ حالكةٍ، وضلالاتٍ لا ينفكُّون عنها.

الحقيقة الثانية: حقيقةُ أنَّ الكفَّار في خوفٍ وقلقٍ وحَيْرةٍ دائمةٍ[١].

٣ ـ الرماد وأعمال الكفار: قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨] **شبّه اللهُ تعالى أعمالَ الكفّارِ في بطلانها**، وعدمِ الانتفاع بها، برمادٍ مرّت عليه ريحٌ شديدةٌ في يومٍ عاصفٍ، فشبّه سبحانه أعمالَهم في حبوطها وذهابها باطلاً كالهباءِ المنثور، لأنها على غيرِ أساسٍ من الإيمانِ والإحسانِ، ولأنها لغيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وعلى غيرِ أمرِه: **برماد طيرته الريح العاصفُ**، فلا يقدرُ صاحبُه على شيءٍ منه وقتَ شدّةِ حاجته إليه، فلذلك قال تعالى: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ﴾ لا يقدرون يومَ القيامةِ ممَّا كسبوا من أعمالهم على شيء، فلا يرون له أثراً من ثواب، ولا فائدة نافعة.

فإنَّ الله لا يقبلُ إلا ما كان خالصاً لوجهه، موافقاً لشرعه... وفي تشبيهه بالرماد سِرٌّ بديعٌ، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمالُ التي لغيرِ اللهِ وعلى غيرِ مراده طعمةٌ للنار، وبها تسعّرُ النار على أصحابها، وينشئُ اللهُ سبحانه لهم مِنْ أعمالهم الباطلةِ ناراً وعذاباً، كما يُنْشِئُ لأهلِ الأعمالِ الموافقةِ لأمره ونهيه التي هي خالصةٌ لوجهه من أعمالهم نعيماً وروحاً، فأثّرت النارُ في أعمالِ أولئك حتى جعلتها رماداً، فهم وأعمالُهم وما يعبدون من دون الله وقودُ النارِ[٢].

٤ ـ نفقةُ الكفّار والريحُ الشديدة: قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧] **شبَّه الله سبحانه ما ينفقه الكافرُ** ويتصدّقُ به

---

(١) الأمثال القرآنية (٢/ ٧٥٥) د. عبد الله جربوع.

(٢) أعلام الموقعين (١/ ١٧٠).

على وَجْهِ القربة إلى الله وهو مشركٌ باللهِ ، وجاحِدٌ به ، ومكذِّبٌ لرسلِهِ ، أنَّ ذلك غيرُ نافعٍ ، وأنَّه مضمحَّلٌ عند حاجته إليه. ذاهبٌ بعد ما كان يرجو نفعه: **بريحٍ** فيها بردٌ شديدٌ ، وتحمِلُ النارَ ، فأصابت زرعَ قومٍ أمِلوا إدراكَه ، ورَجَوْا رَيْعَهُ ، لكنّهم كفرة ، فأهلكتِ الريحُ التي فيها الصِّرُّ الزرعَ ، ولم يُنْتَفعْ بِشَيءٌ منه ، وكذلك يفعلُ اللهُ بنفقةِ الكافرِ وصدقته ، يبطِلُ ثوابها ، والمراد بالمثل صنيعُ الله بالنفقةِ[(١)] .

وهذا مثل ـ أيضاً ـ ضربه الله تعالى لمن أنفقَ في غير طاعته ومرضاته ، **فشبَّه سبحانه ما ينفقه هؤلاء** من أموالهم في المكارم والمفاخر ، وكسبِ الثناء ، وحُسْنِ الذكر ، ولا يبتغون به وجه الله ، وما ينفقونه ليصدُّوا به عن سبيل الله واتباع رسله: **بالزرع** الذي زرعه صاحبه ، يرجو نفعه وخيره ، فأصابته ريحٌ شديدةُ البردِ جدّاً ، يحرِقُ بردُها ما يمرُّ عليه من الزرع والثمار ، فأهلكتْ ذلك الزرعَ وأيبسته[(٢)] .

٥ ـ قلبُ الموحِّدِ وقلبُ الكافرِ: قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨] بيّن سبحانه وتعالى في هذا المثل أنَّ البلدَ الطيبةُ تربتُه ، العذبةُ مشاربُه ، يخرُج نباته ـ إذا أنزل الله الغيثَ ـ طيباً ثمرُه في حينه ووقته.

والبلدُ الذي خَبُثَ فتربته رديئةٌ ، ومشاربه مالحةٌ ، ويخرجُ نباته بعسرٍ وشدةٍ ، فهذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر ، لأنَّ قلبَ المؤمن لمّا دخله القرآن وآمن به ، وثبتَ الإيمان فيه ، فاض بالخير ، وقلبُ الكافر لمّا دخله القرآن لم يتعلّق منه بشيءٍ ينفعه ، ولم يثبت فيه الإيمان ، فاض بالنكد والشر والفساد[(٣)] .

وقد سمّى الله في كتابه المؤمنَ بالطيّبِ ، والكافر بالخبيثِ ، فقال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧] فالخبيثُ في هذه الآية هم الكفار ، والطيّبُ هم المؤمنون[(٤)] .

---

(١) الشرك في القديم والحديث (٢/ ١٣٨٦).

(٢) أعلام الموقعين (١/ ١٨٦).

(٣) تفسير الطبري (٨/ ٢١١) ، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٢).

(٤) تفسير القرطبي (٧/ ٤٠١) ، الشرك في القديم والحديث (٢/ ١٣٧٥).

هذه بعض الأمثلة القرآنية التي ضُرِبَتْ للكفّار، وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

ثالثاً ـ النفاق: حقيقته وأقسامه، وأبرز صفات المنافقين

١ ـ تعريف النفاق:

النفاقُ: لفظٌ إسلاميٌّ، لم تكنِ العربُ تعرفه قبل الإسلام بهذا المعنى المخصوص، وحاصِلُ عباراتِ العلماء في تعريفه يمكِنُ إرجاعُها إلى أنَّ النفاق هو: **إظهارُ الإيمانِ، وإبطانُ الكفرِ**[(١)].

٢ ـ أقسام النفاق: ينقسِمُ النفاق إلى قسمين:

القسم الأول ـ نفاق الاعتقاد: وهذا النوعُ من النفاق يسمّى **النفاق الأكبر**، الذي يخرجُ صاحبه من ملة الإسلامِ، ويوجِبُ له الخلودَ في النار، ويُحرِّمُ عليه دخولَ الجنة، وذلك لأنَّه أظهرَ الإسلامَ والخيرَ، وأبطنَ الكفرَ والشرَّ، وهؤلاء هم أشدُّ خطراً وبلاءً على الإسلام والمسلمين، لأنَّه يؤمَنُ جانبُهم لما ظهر من أمورٍ تدلُّ على إيمانهم، ويأتي الخطرُ كلُّ الخطرِ من جانبهم، فهم الذين يُشيعونَ الفاحشة في الذين آمنوا، وهم الذين يذبذبون الصفَّ المسلم، وغير ذلك، ولكنّ الله كاشِفٌ أمرهم، وهو على إذلالهم قديرٌ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨ ـ ١٠].

القسم الثاني ـ نفاق العمل: وهو النفاقُ الذي لا ينقلُ صاحبه عن الملّة، بل يظلُّ معه مسلماً، ويبقى معه إيمانُه، وهذا النفاقُ العمليُّ هو **الاتصاف ببعض أعمال المنافقين التي لا تنقض الإيمان**، بل هي في المعاملات، وذلك مثل الكذب في الحديث، وإخلاف الوعد، والغدر عند الخصام، والخيانة عند الائتمان، فإنَّه قد يجتمعُ في العبدِ بعضُ خصالِ الخيرِ، وبعضِ خصالِ الشرِّ، ويستحقُّ من الثواب على قدر ما عنده من خصالِ الخيرِ، ويستحقُّ من العذابِ

---

(١) النفاق وأثره في حياة الأمة د. عادل الشدي ص(٢٠).

على قدر ما عنده من خصال الشرِّ والنفاقِ، وكان الصحابةُ رضوان الله عليهم يخافون النفاق، ويحذرون من الوقوع فيه، والاقتراب منه[١]، قال ابن أبي مُليكة رحمه الله: أدركتُ ثلاثينَ من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ كلُّهم يخافُ النفاقَ على نفسه[٢].

إنَّ اتهامِ بعضِ الصحابةِ أنفسَهم بالنفاقِ والخوفِ من الوقوع فيه يدلُّ على أشياء كثيرةٍ، ومعانٍ رفيعةٍ منها:

● **مدى حرص الصحابة رضوان الله عليهم على إيمانهم وتوحيدهم**، وحفظ إيمانهم من أن تشوبه شائبةٌ تعكّر صفوه، أو تنقص كماله.

● **تواضع الصحابة رضوان الله عليهم**، وعدمِ اغترارِهم بأعمالهم.

● ما يجبُ أن يكونَ عليه العبدُ من الخوفِ والرجاء، فإنَّه يخاف ربَّه أن يقعَ فيما يغضبه، وفي الوقت نفسه يرجو رحمته[٣].

٣ ـ أبرز صفات المنافقين:

أ ـ الإفساد في الأرض بتهديم شريعة الله، واتهام المؤمنين بالسفه: قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١١ ـ ١٣].

ب ـ خداع المؤمنين: قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

ج ـ الإعراض عن التحاكم إلى شرع الله: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠ ـ ٦١].

---

(١) العقيدة الصافية ص(٤١٢).
(٢) المصدر نفسه ص(٤١٣).
(٣) المصدر نفسه ص(٤١٣).

د ـ الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف: قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

هـ ـ اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين: قال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨ ـ ١٣٩][(١)].

هذه أبرزُ صفاتِ المنافقين، أما التي ذكرت في القرآن الكريم فكثيرة.

رابعاً ـ الرِّدَّة: تعريفها وأقسامها، وأحكامها:

١ ـ تعريف الردة:

الردة: **هي رجوعُ المسلم العاقلِ البالغِ عن الإسلام إلى الكفر، مختاراً غير مكره**، ويستوي فيه الذكر والأنثى[(٢)].

٢ ـ أنواع الردة:

النوع الأول ـ الارتداد بالقول: كسبِّ الله تعالى، والنطقِ بقولٍ يكفُر به.

النوع الثاني ـ الارتدادُ بالفعل: كالسجودِ للأصنامِ والكواكبِ ونحوها، أو إذا أتى بفعلٍ صريحٍ، كالاستهزاءِ بالدين، أو امتهانِ القرآن، أو وضعه في القاذورات.

النوع الثالث ـ الارتداد بالاعتقاد: كاعتقادِ الشريك لله سبحانه وتعالى، أو اعتقادِ حِلّ شيءٍ من المحرّمات المجمَع عليها إجماعاً قطعياً.

النوع الرابع ـ الارتداد بالشك: كما لو **شكّ في شيءٍ من واجبات الدين**، كالصلاة أو الصيام، أو الزكاة، **أو يشك في تحريم الشرك، أو شيء من المحرمات المعلومة من الدين بالضرورة**، مثل الزنا، والخمر، أو **شك في رسالة النبي** ﷺ **أو غيره** من الأنبياء أو في صدقه، أو في دين الإسلام، أو في

---

(١) الإيمان للزنداني ومجموعة من العلماء ص(١٥٣ ـ ١٥٤).

(٢) العقيدة الصافية ص(٤١٨).

صلاحيته لهذا الزمان أو غيره من الأزمنة[١].

٣ ـ الأحكام التي تترتب على الارتداد:

أ ـ استتابةُ المرتد، فإنْ تابَ ورجعَ إلى الإسلام في خلال ثلاثةِ أيامٍ قُبِلَ منه ذلك.

ب ـ إذا أبى أن يتوب وجب على القاضي أن يأمرَ بقتله، لقول النبي ﷺ: «**مَنْ بَدَّلَ دينَهُ فاقتلوه**»[٢].

ج ـ يُمْنَعُ من التصرُّف في ماله في مدَّة استتابه، فإن أسلم فهو له، وإلاّ صار فيئاً لبيتِ المالِ مِنْ حين قتله أو موته على الردة، وقيل: من حينِ ارتدادِهِ، يُصْرَفُ في مصالح المسلمين.

د ـ انقطاعُ التوارثِ بينَه وبين أقاربه، فلا يرثُهم، ولا يرثونه.

هـ ـ إذا مات أو قتل على ردته، فإنه **لا يُغسَّل**، **ولا يُصلى عليه**، **ولا يُدفن في مقابر المسلمين**، وإنَّما يدفن في مقابر الكفار، أو يُوارَى في التراب في أماكن غير مقابر المسلمين، **هذا في الدنيا**.

وأما **في الآخرة** فإنها تستوجِبُ العذابَ الشديد، والخلودَ في النار[٣]، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

٤ ـ الأشياء التي يصيرُ بها المسلم مرتداً (والعياذ بالله):

أ ـ الشرك بالله تعالى: وهو أن يجعلَ لله نداً من مخلوقاته، يُدعى كما يُدعى الله، ويُخاف كما يُخاف الله، ويُتوكل عليه كما يُتوكل على الله، أو يُصرف له شيءٌ من العبادات، فإذا فعل ذلك فقد كفر، وخرجَ من ملّة الإسلام، قال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

---

(١) العقيدة الصافية ص(٤١٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، لا يعذب بعذاب الله (٣٠١٧).

(٣) العقيدة الصافية ص(٤١٩).

ب ـ إظهار الطاعة والموافقة للمشركين على دينهم: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥ ـ ٢٨].

ج ـ موالاة المشركين والكافرين: قال تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١] وقال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨].

د ـ الجلوس عند المشركين في مجالس شركهم من غير إنكار: قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

هـ ـ الاستهزاء بالله أو بكتابة أو برسوله ﷺ: قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦].

و ـ ظهور الكراهية والغضب عند الدعوة إلى الله، وتلاوة كتابه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر: قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢].

ز ـ كراهية ما أنزل الله على رسوله ﷺ من الكتاب والحكمة: قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

ح ـ جحود شيءٍ من كتاب الله ولو آية، أو بعضها، أو شيءٍ عن النبيِّ ﷺ: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١].

ط ـ عدم الإقرار بما دلت عليه آيات القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة: قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤].

ي ـ الإعراض عن تعلم دين الله، والغفلة عن ذلك: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

ك ـ كراهية إقامة الدين، والاجتماع عليه: قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

ل ـ تعلُّم السحرَ، وتعليمه، والعمل بموجبه: قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ﴾ [البقرة: ١٠٢].

م ـ إنكار البعث: قال تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

ن ـ التحاكم إلى غير حكم الله عزَّ وجلَّ: قال تعالى: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

خامساً ـ الفسق: تعريفه وأقسامه:

١ ـ تعريف الفسق:

الفِسْقُ: هو الخروجُ عن طاعةِ الله ِسواءٌ كان خروجاً كليّاً أو جزئياً.

٢ ـ أقسام الفسق: ينقسم الفسق إلى قسمين:

القسم الأول ـ فسق ينقل عن الملة وهو الكفر: فهو فسقٌ كلي، يخرجَ صاحبه عن طاعة الله وعبوديته، ولقد سمَّى الله تعالى الكفرَ المخرجَ عن الملة الموجبَ لصاحبه النار، سمَّاه فسقاً، كما قال تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠] وسمَّى الله تعالى أصحاب النارُ فُساقاً، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ [السجدة: ٢٠].

القسم الثاني ـ فسقٌ لا ينقل من الملة، وهو فسق جزئي، وهو يطلَقُ على

بعض المعاصي ، وعلى بعض العصاة ، وصاحبه ما زال في حظيرة الإسلام ، ولقد سمَّى الله المؤمنين الذين يرمون المحصناتِ ، ثم لم يأتوا بالشهداء ، بأنهم فاسقون ، وهم ما زالوا في حظيرة الإسلام ، يتمتّعون بعقيدة المسلمين ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٤] .

سادساً ـ المعاصي: تعريفها وأنواعها وحكم مرتكب الكبيرة

١ ـ تعريف المعاصي:

المعاصي: هي تركُ المأموراتِ ، وفِعْلُ المحظوراتِ ، أو ترك ما أوجب وفرض في كتابه ، أو على لسان رسوله ﷺ ، وارتكاب ما نهى الله عنه أو رسوله ﷺ من الأقوالِ والأعمالِ الظاهرةِ أو الباطنةِ[١] .

ولفظُ المعصيةِ والفسوقِ والكفرِ إذا أطلقت دخل فيها الكفرُ والفسوقُ ، كقوله : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٣] وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [هود: ٥٩] فهذه معصيةُ لجنس الرسل[٢] .

وقد جاء معنى العصيان بألفاظ كثيرة في القرآن الكريم :

أ ـ الذنب : قال تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ [العنكبوت: ٤٠] .

ب ـ الخطيئة : قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: ٩٧] .

ج ـ السيئة : قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤] .

د ـ الحُوب : قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٢] .

هـ ـ الإثم : قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] .

و ـ الفسوق والعصيان : قال تعالى : ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ [الحجرات: ٧] .

---

(١) الكبائر والصغائر ، حامد محمد المصلح ص(١٩).

(٢) المصدر نفسه ص(٢٠).

ز ـ **الفساد**: قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣].

ح ـ **العتو**: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

٢ ـ أقسام المعاصي: تنقسم المعاصي إلى قسمين: **كبائر وصغائر** حسب تقسيمها في الكتاب والسنة للأدلة الآتية.

أما في **الكتاب** فمنها قوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النساء: ٣١] ففي هذه الآية بيانُ أنَّ الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر(١)، وقوله جلَّ جلاله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ [النجم: ٣٢] في الآية استثناءٌ منقطع، لأنَّ اللمم من صغائر الذنوب ومحقّرات الأعمال، فهو استثناءٌ من عامَّةِ الكبائر، وقوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ [الحجرات: ٧] فجعلها مراتبَ ثلاثاً، وسمّى أولها: **كفراً**، وثانيها: **فسقاً**، وثالثها: **عصياناً**(٢). **وقوله تعالى**: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩] **وهذا نصٌّ صريحٌ في أنَّ ما يعمل الإنسان يدوَّن عليه صغيراً كان أو كبيراً**(٣).

وأما في **السنة** فقد جاءت أحاديث كثيرة منها:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ: أيُّ الذنبِ أعظمُ عند الله؟

قال: «**أَنْ تجعلَ للهِ نِدّاً وهو خلقَكَ**».

قال: قلتُ له: إنَّ ذلك لعظيمٌ. قال قلت: ثم أيْ؟

قال: «**أن تقتلَ ولدَكَ مخافةَ أن يطعمَ معك**».

قلت: ثم أي؟.

---

(١) الكبائر والصغائر ص(٢٣).
(٢) المصدر نفسه ص(٢٣).
(٣) الكبائر والصغائر ص(٢٣).

قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»(١).

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئّكم بأكبرِ الكبائر؟**» ثلاثاً: «**الإشراكُ باللهِ، وعقوقُ الوالدين، وشهادةُ الزور، أو قول الزور**» وكان رسولُ اللهِ متكئاً فجلسَ، فما زل يكرِّرُها حتَّى قلنا ليتَه سكت(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ: مكفِّراتٌ ما بينهنَّ إذا اجتنبتِ الكبائرُ**»(٣).

فهذه الأدلةُ ـ وغيرُها كثيرٌ ـ تدلُّ دلالةً صريحةً على أنَّ المعاصي منها ما هو كبائر، بل وأكبر الكبائر، كما جاء في الأحاديث السابقة.

القسم الأول الكبيرة:

تعريف الكبيرة: كل ذنب ختمه الله تعالى بنارٍ أو غضبٍ، لأو لعنةٍ أو عذابٍ(٤)، وقيل: **كلُّ ما أُوْجِبَ فيه حدٌّ، أو وَرَدَ فيه توعُّدٌ بالنار**، أو جاءت فيه لعنةٌ(٥). وقال بعض أهل العلم وغيرهم: إنّه يمكن أن تعرَّف الكبائرُ بالعدِّ بدلاً من الحدِّ، ومنهم مَنْ قال عن الكبائر: هي إلى السبعين أقربُ منها إلى السبع(٦). وذكر الهيتمي عن العلائي أنَّه صنَّفَ جزءاً جمع فيه ما نصَّ عليه النبيُّ ﷺ أنَّه كبيرة وهي: الشركُ، والقتلُ، والزنا، وأفحشُه بحليلةِ الجارِ، والفرارُ من الزحفِ، وأكلُ الربا، وأكلُ مال اليتيم، وقذفُ المحصنات، والسحرُ، وشهادةُ الزور،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] (٤٤٧٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده (٨٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها (٨٧). وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الشهادات، باب: ما قيل في شهادة الزور (٢٦٥٤) بلفظ قريب.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الطهارة، باب: الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر (٢٣٣).

(٤) الزواجر لابن حجر (١/ ٩).

(٥) الكبائر والصغائر ص(٢٧).

(٦) تفسير الطبري (١/ ٤١).

اليمينُ الغموس ، والنميمةُ ، والسرقةُ ، وشربُ الخمرِ ، واستحلالُ بيت الله الحرام ، ونكثُ الصفقة ، وتركُ السنةِ ، والتعرَّبُ بعدَ الهجرةِ ، واليأسُ من روحِ اللهِ ، والأمنُ من مكر اللهِ ، ومنعُ ابن السبيل من فضلِ الماءِ ، وعدمُ التنزُّه من البولِ ، وعقوقُ الوالدين ، والتسبُّبُ إلى شتمهما ، والإضرارُ في الوصية ، فهذه الخمس والعشرون هي مجموعٌ ما جاء في الأحاديث منصوصاً عليه أنَّه كبيرة[١] .

إنَّ ما ذكره صحيحٌ من حيث كونها كبيرةً منصوصاً عليها ، والأدلةُ عليها في مظانِّها ، ولكن ليس هذا مجموعُ ما جاء في الأحاديث الصحيحة المنصوصِ عليها ، بل قد ورد غيرُها ، ونذكر منها ـ على سبيلِ المثالِ لا الحصر ـ الآتي : الكذب ، وقاتل نفسه ، والمكثر من اللعن بغير حق ، وتشبُّه الرجال بالنساء والعكس ، وسوءُ الجوار ، والخيانة ، والرشوة ، وتغييرُ منار الأرض . . . الخ .

الخلاصة؛ إنَّ الكبائر غيرُ منحصرةٍ بعدٍّ ولا حدٍّ منضبط ، بل إنها كلُّ معصيةٍ دلَّ الدليل على توكيد التحريم وتغليظه ، سواء تُوَعِّدَ عليها بلعنٍ ، أو غضبٍ ، أو نارٍ ، أو عذابٍ ، أو حدٍّ ، أو غير ذلك ، ممّا عظمَ ضررُها في الوجود ، أو اقترن بارتكابها ما تعظمُ به[٢] .

القسم الثاني الصغيرة:

تعريف الصغيرة: ما ليس فيها حدٌّ في الدنيا ، ولا وعيدٌ في الآخرة[٣] ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ [النجم: ٣٢] ، **واللمم**: ما **كان بين الحدين ، لم يبلغ حدَّ الدنيا ولا حدَّ الآخرة**: موجبة قد أوجَب الله لأهلها النار ، أو فاحشة يقام عليها الحدُّ في الدنيا[٤] .

والصغيرة مع الإصرار تشكِّلُ خطراً على صاحبها ، وربما تهلكه ، قال رسول الله ﷺ : «**إيَّاكُمْ ومحقَّراتِ الذنوب ، فإنَّما مثل محقّراتِ الذنوب ، كمثلِ قومٍ نزلوا بطنَ وادٍ ، فجاءَ ذا بعودٍ ، وجاء ذا بعودٍ ، حتى حَمَلوا ما أنضجوا به**

(١) الكبائر والصغائر ص(٢٨) .
(٢) المصدر نفسه ص(٢٩ ـ ٣٣) .
(٣) أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان (٣/ ١٣٠٧) .
(٤) المصدر نفسه (٣/ ١٣٠٧) .

خُبْزاً ، وإنَّ محقّرات الذنوبِ متى يُؤْخَذُ بها صاحبُهَا تُهْلِكُه»[١] . ولأنَّ السيئةَ وإنْ صغرتْ تجرُّ أختها ، حتى توقع فاعَلَها في ما هو أكبرُ من الكبائر ، ولهذا دفعُ السيئةِ بالحسنةِ لا بالسيئةِ ، قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] وقال رسول الله ﷺ: «**اتّقِ اللهَ حيثُما كنتَ ، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُهَا**»[٢] . فإنَّ العبد إذا وقعَ في سيئةٍ عليه أن يعملَ حسنةً تمحو تلك السيئة التي عملها ، فيبدّل مكان السوءِ إحساناً ، ومكان السيئةِ طاعةً ، فإنَّه إذا وُفِّقَ لفعلِ الحسناتِ ألفها وأحبَّها ، واطمئنَّ قلبُه لها ، فلا يفارِقُها أبداً ، حتى لو أجبرَ على سيئةٍ لم يأنسْ بها ، وقلبُه يؤنِّبُهُ ، وإيمانُه ينهاه عنها ، فهو يزدادُ كلَّ يوم خيراً ، وعن الشرِّ بُعداً[٣] .

٣ ـ حكم مرتكب الكبيرة:

سلك الصحابةُ والتابعون لهم بإحسان منهجاً وسطاً في شأنِ مرتكبِ الكبيرة ، فلم يكفّروه ، ولم يقولوا بأنّه كاملُ الإيمان ، بل إنّه مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته ، أو هو مؤمن ناقصُ الإيمان ، أو مؤمنٌ عاصٍ ، وهذا الحكم عليه إنَّما هو في الدنيا ، أما في الآخرة فهو تحت مشيئة الله تعالى ، إن شاء عذّبه ، وإن شاء غفر له ، وبهذا الحكم عليه جمعوا بين النصوص الشرعية التي تصف أهل الإيمان ، والنصوص التي لم تخرج الفاسقَ من دائرةِ الإسلام[٤] .

إنَّ فساق الملة ليسوا مخلَّدين في النار ، وليسوا كاملين في الدين والإيمان والطاعة ، بل لهم حسنات وسيئات ، يستحقّون بهذا العقاب ، وبهذا الثواب[٥] .

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٦/ ١٦٥) بهذا اللفظ. وأخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٣٣١) ، بلفظ قريب ، من حديث أبي مالك سهل بن سعد الساعدي. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٩٠): رجاله رجال الصحيح ، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين ، ورجال إحداهما رجال الصحيح ، غير عبد الوهاب بن عبد الحكم ، وهو ثقة.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه ، كتاب: البر والصلة عن رسول الله ﷺ ، باب: ما جاء في معاشرة الناس (١٩٨٧) وقال: حسن صحيح.

(٣) الكبائر والصغائر ص(٣٥).

(٤) أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان ، عبد العزيز عبد الله (٣/ ١٣١٥).

(٥) المصدر نفسه (٣/ ١٣١٥) ، الفتاوى (٧/ ٦٧٩).

وقد اتفق الصحابةُ والتابعون لهم بإحسانٍ وسائر أئمة المسلمين على أنّه لا يخلدُ في النار من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من إيمانٍ ، واتفقوا أيضاً على أنَّ نبينا ﷺ يشفعُ فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته[١] .

وقد استدلَّ علماءُ الأمة الإسلامية على قولهم في مرتكب الكبيرة بالعديدِ من الأدلة من الكتاب والسنة :

أما الأدلة من القرآن الكريم فمنها :

أ ـ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] وقد أبانت هذه الآيةُ أنَّ كلَّ صاحبِ كبيرةٍ ففي مشيئة الله ، إنْ شاءَ عفا عنه ، وإن شاءَ عاقبه ، ما لم تكن كبيرتُهُ شِرْكاً بالله[٢] .

ب ـ قال تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات : ٩ ـ ١٠] رغم أنَّ القتالَ بين المسلمين من الكبائر لم ينتفِ عن المتقاتلين اسمُ الإيمان ، ولم يخرجوا به عن أهله[٣] ، وقد استدلَّ كثيرٌ من العلماء بهذه الآية على أنَّ المعصيةَ وإنْ عظمتْ لا تُخرِجُ من الإيمان[٤] .

ج ـ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ﴾ [البقرة : ١٧٨] مع أنَّ الله عزَّ وجلَّ أوعدَ القاتلَ بالخلودِ في النار عقوبةً له على جريمته ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] ومع ذلك لم ينفِ عن هذا القتل العاصي صفةَ الإيمانِ ، فهو أخٌ لأولياء المقتول ، وهم مؤمنون : ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ

---

(١) الإيمان ، لابن تيمية ص (٢٠٩) .
(٢) تفسير الطبري (٤/ ١٢٩) .
(٣) دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين د. أحمد جلي ص(١٢٧) .
(٤) علي بن أبي طالب للصلاَّبي ص(٣٨٣) .

﴿أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ والمرادُ بالأخوّة إخوةُ الدين[١] ، والقاتل جزاؤه جهنم ، فإن شاء الله أن يغفر له غفر له[٢] .

د ـ ولم ينف القرآن الكريم صفة الإيمان عن آكل أموال الناس بالباطل ، أو آكل الربا ، ما دام غيرَ مستحلٍّ لذلك ، فيقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] .

وورد أيضاً من **الأحاديث الصحيحة** التي تنصُّ على أنَّ المعاصي لا تُخْرِجُ عن الملة ، ومن ذلك:

أ ـ عن أبي ذر رضي الله عنه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وعليه ثوبٌ أبيضُ ، وهو نائمٌ ، ثم أتيتُه وقد استيقظَ ، فقال: «**ما مِنْ عبدٍ قال: لا إله إلا الله ، ثم ماتَ على ذلك إلا دخلَ الجنَّةَ**» .

قلتُ: وإن زنى وإن سرق؟ .

قال: «**وإن زنى وإن سرق**» .

قلت: وإن زنى وإن سرق؟ ثلاثاً .

ثم قال في الرابعة: «**وإنْ زنى ، وإنْ سرق ، على رَغْمِ أنفِ أبي ذر**»[٣] .

ففي قوله: «**وإن زنى وإن سرق**» دليلٌ على أنَّ أصحابَ الكبائر لا يُقْطَعُ لهم بالنار ، وأنَّهم إنْ دخلوها أُخْرِجوا منها ، وخُتِمَ لهم بالخلود في الجنة[٤] .

ب ـ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كنّا مع رسولِ اللهِ في مجلسٍ ، فقال: «**بايعوني على ألاّ تشركوا باللهِ شيئاً ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا ، ولا تقتلوا النفسَ التي حرّمَ الله إلا بالحق ، فمن وفّى منكم فأجرُهُ على اللهِ ، ومَنْ أصابَ شيئاً**

---

(١) دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين ص(١٢٧) .

(٢) سنن البيهقي (٨/ ١٦) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: اللباس ، الثياب البيض (٥٨٢٧) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب: الدليل على من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات مشركاً دخل النار (٩٤) .

(٤) شرح صحيح مسلم (٢/ ٩٧) .

من ذلكَ فعوقبَ به ، فهو كفارةٌ له ، ومن أصابَ شيئاً مِنْ ذلكَ فستره الله عليه ، فأمرُهُ إلى الله ، وإنْ شاءَ عفا عنه ، وإن شاء عذّبه»[١] .

ومما يستدل به إجماعُ الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان على أنَّ صاحب الكبيرة مؤمن بإيمانه ، فاسقٌ بكبيرته ، وهو تحت مشيئة الله تعالى في الآخرة[٢] .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : الإيمان ، باب : الحديث (١٨) ومسلم في صحيحه ، كتاب : الحدود ، باب : الحدود كفارات لأهلها (١٧٠٩) .

(٢) أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان (٣/ ١٣١٨) .

الخاتمة

وبعد: فهذا ما يسّره الله لي من الحديث عن الإيمان بالله عزَّ وجلَّ في هذا الكتاب ، وقد سميتُه «**الإيمان بالله جلَّ جلاله**» ، فما كان فيه من صوابٍ فهو محضُ فضلِ الله عليَّ ، فله الحمد ، وله المنة ، وما كان فيه من خطأ ، فاستغفرُ الله تعالى ، وأتوبُ إليه ، والله ورسوله ﷺ بريءٌ منه ، وحسبي أني كنتُ حريصاً ألاَّ أقع في الخطأ ، وعسى ألاّ أُحْرَمَ من الأجر .

وأدعو الله أن ينفع بهذا الكتاب بني الإنسان أينما وُجدوا ، وأن يكون سبباً في زيادة إيمانهم وهدايتهم أو تعليمهم أو تذكيرهم ، وأن يذكرني من يقرؤه من إخواني المسلمين في دعائه ، فإنَّ دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابةٌ إن شاء الله تعالى .

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

وبقول الشاعر (من الوافر) :

إلهي لا تعذّبني فإنّي ... مقرٌّ بالذي قَدْ كانَ منّي
ومالي حيلةٌ إلاّ رجائي ... وعفوُك إنْ عفوتَ وحُسْنُ ظنّي
فَكَمْ مِنْ زلّةٍ لي في البرايا ... وأنتَ عليَّ ذو فَضْلٍ وَمَنِّ
إذا فكّرتُ في نَدَمي عليها ... عضَضْتُ أنامِلي وَقَرَعْتُ سِنّي
يظنُّ الناسُ بي خيراً وإنّي ... لشرُّ الناسِ إنْ لم تعفُ عنّي

سبحانك اللهمَّ وبحمدك ، أشهدُ أن لا إله إلا أنت ، أستغفرُك وأتوبُ إليك .

* * *

فهرس الموضوعات

الإهداء ٤
المقدمة ٥

المبحث الأول
معنى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وفضلها وشروطها

أولًا: معنى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ١٩
ثانياً: فضل كلمة (لا إله إلا الله) ٢٣
ثالثاً: أفضل الذكر (لا إله إلا الله) ٢٥
رابعاً: أشعة كلمة (لا إله إلا الله) ، تبدّد ظلمات القلوب ٢٦
خامساً: التوافق بين (لا إله إلا الله) و(إياك نعبد) ٢٧
سادساً: شروط (لا إله إلا الله) ٢٧
١ ـ العلم بمعناها نفياً وإثباتاً علماً ينافي الجهل بها ٢٨
٢ ـ اليقين المنافي للشك ٢٨
٣ ـ القبول لما اقتضته هذه الكلمة بالقلب واللسان ٢٩
٤ ـ الانقياد لما دلّت عليه المنافي لترك ذلك ٢٩
٥ ـ الصدق المنافي للكذب ٣٠
٦ ـ الإخلاص ٣٠

٧ ـ المحبة لهذه الكلمة ، ولما اقتضته ودلت عليه ، ولأهلها العاملين بها ، الملتزمين بشروطها ، وبغض ما ناقض ذلك ٣١
سابعاً: ارتباط (لا إله إلا الله) بالولاء والبراء ٣١
ثامناً: آثار الإقرار بـ (لا إله إلا الله) ٣٥

المبحث الثاني
ثبات وجود الخالق

أولًا: دليل الخلق ٤٢
ثانياً: دليل الفطرة والعهد ٤٤
ثالثاً: دليل الآفاق ٤٧
١ ـ نقص الأكسجين في الارتفاعات ٤٧
٢ ـ حركة النجوم والكواكب في مداراتها ٤٧
٣ ـ دوران الأرض والجبال ٤٨
٤ ـ حاجز بين بحرين مالحين ٤٨
٥ ـ اهتزاز الأرض وزيادتها بالمطر ٤٩
٦ ـ أوهن البيوت ٥٠
رابعاً: دليل الأنفس: ٥٠
١ ـ الإحساس والجلد ٥٠
٢ ـ البصمات وتحديدها لهوية الإنسان ٥١
خامساً: دليل الهداية: ٥٢
١ ـ النحل ٥٣
٢ ـ الهدهد ٥٤
سادساً: دليل انتظام الكون وعدم فساده ٥٥
سابعاً: دليل التقدير ٥٦
ثامناً: دليل التسوية ٥٧

المبحث الثالث
توحيد الربوبية

١ ـ معنى توحيد الألوهية (توحيد العبادة) ٦١
٢ ـ توحيد الألوهية (توحيد العبادة) من لوازم توحيد الربوبية ٦١
٣ ـ السنن العامة ٦٣
٤ ـ السنن الخاصة ٦٤
٥ ـ سمات السنن الإلهية ٦٤
٦ ـ توحيد الربوبية أعظم برهان على توحيد الألوهية (توحيد العبادة) . . . ٦٤

المبحث الرابع
توحيد الأسماء والصفات

أولاً: الأسس التي يقوم عليها توحيد الأسماء والصفات ٦٩
ثانياً: أدلة هذا النوع من التوحيد ٧٠
ثالثاً: أسماء الله الحسنى ٧٢
١ ـ أسماء الله تبارك وتعالى كثيرة ٧٢
٢ ـ أسماء الله تبارك وتعالى توقيفية ٧٣
٣ ـ من أسماء الله الحسنى ما يختص به سبحانه ٧٣
٤ ـ من أسماء الله عزَّ وجلَّ ما يجوز أن يذكره وحده منفرداً ٧٣
٥ ـ من أسماء الله عز وجل ما لا يذكر إلا مع نظيره ٧٣
٦ ـ معنى الإحصاء في قوله ﷺ: (إنَّ الله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً) ٧٤
رابعاً: الصفات الإلهية: ٧٥

أ ـ الصفات العقلية ٧٦
ب ـ الصفات الخبرية ٧٦
١ ـ الصفات الذاتية ٧٦
● بعض الصفات الذاتية ٧٦
أ ـ صفة الحياة ٧٦
ب ـ صفة العلم ٧٧
ج ـ صفة القدرة ٧٩
د ـ صفة الإرادة ٧٩
هـ ـ إثبات صفة السمع والبصر ٧٩
و ـ إثبات صفة الكلام ٨٠
ز ـ علو الله على خلقه ٨١
ح ـ إثبات صفة الوجه ٨٢
ط ـ إثبات صفة اليدين ٨٢
ي ـ إثبات صفة العين ٨٣
ك ـ إثبات صفة النفس ٨٣
٢ ـ الصفات الفعلية ٨٤
● بعض الصفات الفعلية ٨٥
أ ـ إثبات استواء الله على عرشه ٨٥
ب ـ صفة المجيء ٨٦
ج ـ صفة الرضا ٨٦
د ـ صفة المحبة ٨٦
هـ ـ صفة الغضب ٨٧
و ـ صفة السخط ٨٧
ز ـ صفة الكراهة ٨٧
٣ ـ بعض الصفات التي تطلق من باب المقابلة ٨٧

٤ ـ الله منزّهٌ عن كل صفة نقص ٨٧
٥ ـ صفات الله كلها صفات كمال ٨٨
٦ ـ من لوازم استحقاق الله تعالى لصفات الكمال وحده تفرده بالحكم . ٨٩
٧ ـ نفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها ٩٠
٨ ـ آثار الصفات الإلهية في النفس والكون والحياة ٩٠
خامساً: أثر الصفات الإلهية على الأخلاق: ٩٤
سادساً: وصف الله نفسه بالمغفرة لا يعني الإغراء بالمعاصي: ١٠٠

المبحث الخامس

توحيد العبادة

أولًا: تعريفه ومكانته خاصة ١٠٥
ثانياً: الطريقة القرآنية في الدعوة إلى توحيد العبادة ١٠٨
ثالثاً: معنى العبادة وشروط قبولها.......................... ١١١
أ ـ معنى العبادة ١١١
ب ـ شروط قبول العبادة ١١٢
الشرط الأول: الإخلاص ١١٢
الشرط الثاني: الموافقة للشرع ١١٣
رابعاً: حقيقة العبادة............................. ١١٥
خامساً: أنواع العبادة ١١٨
النوع الأول: الدعاء.......................... ١١٨
أ ـ التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى أو صفة من صفاته العلى ١١٩
ب ـ التوسل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة التي يقوم بها العبد ١١٩
ج ـ التوسل إلى الله تعالى بدعاء الصالحين الأحياء ١٢٠

النوع الثاني: النذر ١٢١
النوع الثالث: الذبح ١٢٢
النوع الرابع: التوكل ١٢٣
النوع الخامس: الاستعانة ١٢٤
النوع السادس: الاستغاثة ١٢٤
النوع السابع: الخشية ١٢٥
النوع الثامن: الخوف ١٢٦
النوع التاسع: المحبة ١٢٦
سادساً: أقسام العبادات ١٢٨
١ ـ عبادات اعتقادية ١٢٨
٢ ـ عبادات قلبية ١٢٨
٣ ـ عبادات قولية ١٢٨
٤ ـ عبادات بدنية ١٢٨
٥ ـ عبادات مالية ١٢٨
سابعاً: أفضل العبادات ١٢٨
ثامناً: تحكيم الشريعة وارتباطها بالتوحيد ١٣٠
١ ـ ربطها بتوحيد العبادة ١٣٠
٢ ـ ربطها بتوحيد الربوبية ١٣٠
٣ ـ ربطها بتوحيد الأسماء والصفات ١٣١
٤ ـ ربطها بالإيمان ١٣٤
٥ ـ ربطها بالإسلام ١٣٤
٦ ـ ربطها بالشهادتين ١٣٤
٧ ـ طاعة غير الله والإعراض عنه كفر وشرك ١٣٥
تاسعاً: الآثار الحسنة للحكم بما أنزل الله تعالى ١٣٥
١ ـ الاستخلاف والتمكين ١٣٥

٢ ـ الأمن والاستقرار ١٣٦
٣ ـ النصر والفتح ١٣٨
٤ ـ العز والشرف ١٣٨
٥ ـ بركة العيش ورغده ١٣٩
٦ ـ الهداية والتثبيت ١٣٩
٧ ـ الفلاح والفوز ١٤٠
٨ ـ المغفرة وتكفير السيئات ١٤٠
٩ ـ مرافقة النبيين والصّدّيقين في الجنة ١٤١
عاشراً: الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله ١٤١
١ ـ قسوة القلب ١٤٢
٢ ـ الضلال عن الحق ١٤٢
٣ ـ الوقوع في النفاق ١٤٣
٤ ـ الحرمان من التوبة ١٤٤
٥ ـ الصَّدُّ عن سبيل الله ١٤٥
٦ ـ غياب الأمن وانتشار الفوضى ١٤٦
٧ ـ انتشار العداوة والبغضاء ١٤٧
٨ ـ الحرمان من النصر والتمكين ١٤٨
٩ ـ هول العقاب الذي ينتظر المبدلين لشرعه ١٤٨
١٠ ـ الإهانة عند قبض الأرواح ١٤٩
١١ ـ الأكل من النار وغضب الجبار ١٥٠
١٢ ـ العذاب المهين ١٥١
حادي عشر : حماية الرسول ﷺ لتوحيد العبادة ١٥٢
١ ـ النهي عن الغلو والإطراء ١٥٢
٢ ـ زيارة القبور والنهي عن اتخاذها مساجد ١٥٣
٣ ـ الرقي والتمائم ١٥٤

٤ ـ الاستسقاء بالأنواء ١٥٦
٥ ـ السحر ١٥٧
٦ ـ الكهانة ١٥٨
٧ ـ الشفاعة ١٥٩

المبحث السادس

الإيمان بالله جل جلاله

أولاً: الإيمان لغة وشرعاً وزيادة ونقصاناً ١٦٣
ثانياً: الإسلام والإيمان والإحسان ١٦٥
ثالثاً: أصل الإيمان بالله جل جلاله ١٦٦
رابعاً: الأسس التي يقوم عليها الإيمان بالله جلَّ جلاله ١٦٨
١ ـ الكفر بالطاغوت ١٦٨
٢ ـ الإيمان بالغيب ١٦٨
٣ ـ امتثال الأوامر واجتناب النواهي ١٦٨
٤ ـ الإخلاص لله في العبادة ١٦٩
٥ ـ صدق المتابعة للنبي ﷺ ١٦٩
٦ ـ العلم ١٧٠
خامساً: شرح بعض الآيات القرآنية التي تحدثت عن الإيمان: ١٧١
١ ـ زينة الإيمان ١٧١
٢ ـ نور الإيمان ١٧١
٣ ـ روح الإيمان ١٧٤
سادساً: أسباب قوة الإيمان ١٧٤
١ ـ معرفة أسماء الله الحسنى ١٧٥
٢ ـ تدبر القرآن على وجه العموم ١٧٥

٣ ـ معرفة سيرة النبي ﷺ وشمائله ١٧٦
٤ ـ التفكر في الكون والنظر في الأنفس ١٧٧
٥ ـ الإكثار من ذكر الله في كل وقت ١٧٨
أ ـ الحياة الطيبة الحقيقية ١٧٨
ب ـ القوة في الأبدان وإحياء المعاش والجهاد ١٧٩
ج ـ رقة القلب وخشوعه ١٨٠
د ـ النجاة من عذاب الله تعالى ١٨٠
هـ ـ الذاكر من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة ١٨٠
و ـ تكثير الشهود يوم القيامة ١٨٠
٦ ـ معرفة محاسن الدين ١٨١
٧ ـ الاجتهاد في التحقق في مقام الإحسان ١٨٣
٨ ـ الدعوة إلى الله ١٨٤
٩ ـ توطين النفس على مقاومة ما ينافي الإيمان ١٨٥
١٠ ـ معرفة حقيقة الدنيا واعتبارها ممر للآخرة ١٨٦
سابعاً: صفات المؤمنين: ١٨٨
١ ـ سورة المؤمنين ١٨٨
أ ـ الخشوع في الصلاة ١٨٩
ب ـ الإعراض عن اللغو ١٨٩
ج ـ تطهيرهم لأنفسهم بأداء الزكاة ١٩٠
د ـ حفظ الفروج ١٩٠
هـ ـ رعاية الأمانة والعهد ١٩٢
و ـ المحافظة على الصلوات ١٩٣
٢ ـ سورة الفرقان ١٩٣
أ ـ السكينة والوقار ١٩٤
ب ـ الحلم ١٩٤

ج ـ إحياء الليل بالصلاة ١٩٤
د ـ القصد والاعتدال في الإنفاق ١٩٥
هـ ـ عدم الشرك بالله والتحرج عن قتل النفس والزنا ١٩٥
و ـ عدم شهادة الزور ١٩٦
ز ـ الانتفاع بموعظة القران ١٩٦
ح ـ الرغبة في مضاعفة السالكين في الدرب إلى الله تعالى ١٩٦
ثامناً: من فوائد الإيمان وثمراته: ١٩٧
١ ـ الاغتباط بولاية الله الخاصة ١٩٧
٢ ـ الفوز برضا الله تعالى ٢٠١
٣ ـ دفاع الله عن المؤمنين ٢٠١
٤ ـ الحياة الطيبة ٢٠٢
٥ ـ حصول البشارة بكرامة الله ٢٠٢
٦ ـ حصول الفلاح والهدى ٢٠٣
٧ ـ الانتفاع بالمواعظ والتذكير ٢٠٣
٨ ـ قطع الشكوك التي تضر بالدين ٢٠٤
٩ ـ ملجأ المؤمنين ٢٠٤
١٠ ـ المنع من الوقوع في الموبقات المهلكة ٢٠٦
١١ ـ الشكر والصبر ٢٠٦
١٢ ـ تأثيره على الأعمال والأقوال ٢٠٧
١٣ ـ هداية الله إلى الصراط المستقيم ٢٠٨
١٤ ـ محبة الله والمؤمنين من خلقه ٢٠٨
١٥ ـ رفع الله مكانتهم ٢٠٩

المبحث السابع
نواقض التوحيد والإيمان

أولاً: الشرك حقيقته وأقسامه وما يتعلق بكل قسم من أحكام: ٢١٣
● تعريف الشرك وبيان حقيقته ٢١٣
● **أقسام الشرك**: ٢١٥
القسم الأول: الشرك الأكبر ٢١٥
أ ـ شرك الدعاء ٢١٥
ب ـ شرك النية والإرادة والقصد ٢١٦
ج ـ شرك الطاعة ٢١٦
د ـ شرك المحبة ٢١٧
● أمثلة للمشرك للتنفير من حاله ٢١٧
المثال الأول: مثل المشرك بالساقط من السماء ٢١٧
المثال الثاني: مثل المشرك بالحيران في الأرض ٢١٧
المثال الثالث: مثل المشرك بالعبد المملوك لجماعة كثيرين ٢١٨
القسم الثاني: الشرك الأصغر ٢١٨
أ ـ الظاهر من الشرك الأصغر ٢١٨
ب ـ الخفي من الشرك الأصغر ٢١٩
ج ـ الفرق بين الشرك الأكبر والأصغر ٢٢٢
د ـ آثار الشرك ٢٢٣
ثانياً: الكفر حقيقته وأقسامه وما يتعلق بكل قسم من أحكام......... ٢٢٣
● تعريف الكفر وحقيقته ٢٢٣
● **أقسام الكفر**: ٢٢٤
القسم الأول: كفر أكبر يناقض الإيمان: ٢٢٤

أ ـ كفر التكذيب ٢٢٤

ب ـ كفر الإباء والاستكبار ٢٢٥

ج ـ كفر الإعراض ٢٢٥

ح ـ كفر الشك ٢٢٥

ر ـ كفر النفاق ٢٢٥

القسم الثاني: كفر أصغر لا ينافي أصل الإيمان ٢٢٦

● إطلاق حكم الكفر وشروط التكفير، وموانعه، والتوبة منه ٢٢٦

١ ـ حكم إطلاق الكفر ٢٢٦

٢ ـ شروط التكفير ٢٢٧

الشرط الأول: العلم ٢٢٧

الشرط الثاني: العمد ٢٢٨

الشرط الثالث: الاختيار والقدرة ٢٢٩

٣ ـ موانع التكفير: ٢٣٠

أ ـ الخطأ ٢٣٠

ب ـ الجهل ٢٣١

ج ـ العجز ٢٣١

د ـ الإكراه ٢٣٢

شروط الإكراه ٢٣٢

٤ ـ التوبة من الكفر بعد ثبوته على المعين ٢٣٣

● الأمثال القرآنية للكافرين: ٢٣٤

١ ـ السراب وأعمال الكفار ٢٣٤

٢ ـ ظلمات الكفر ٢٣٤

٣ ـ الرماد وأعمال الكفار ٢٣٦

٤ ـ نفقة الكفار والريح الشديدة ٢٣٦

٥ ـ قلب الموحد وقلب الكافر ٢٣٧

ثالثاً: النفاق حقيقته وأقسامه وأبرز صفات المنافقين ٢٣٨
١ ـ تعريف النفاق ٢٣٨
٢ ـ أقسام النفاق ٢٣٨
القسم الأول: نفاق الاعتقاد ٢٣٨
القسم الثاني: نفاق العمل ٢٣٨
٣ ـ أبرز صفات المنافقين ٢٣٩
أ ـ الإفساد في الأرض ٢٣٩
ب ـ خداع المؤمنين ٢٣٩
ج ـ الإعراض عن التحاكم إلى شرع الله ٢٣٩
د ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٤٠
هـ ـ اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ٢٤٠
رابعاً: الردة تعريفها وأنواعها وأحكامها ٢٤٠
١ ـ تعريف الردة ٢٤٠
٢ ـ أنواع الردة ٢٤٠
٣ ـ الأحكام التي تترتب على الارتداد ٢٤١
٤ ـ الأشياء التي يصير فيها المسلم مرتداً ٢٤١
خامساً: الفسق تعريفه وأقسامه ٢٤٣
١ ـ تعريف الفسق: ٢٤٣
٢ ـ أقسام الفسق: ٢٤٣
القسم الأول: فسق ينقل من الملة ٢٤٣
القسم الثاني: فسق لا ينقل من الملة ٢٤٣
ثامناً: المعاصي تعريفها وأقسامها، وحكم مرتكب الكبيرة: ٢٤٤
١ ـ تعريف المعاصي ٢٤٤
٢ ـ أقسام المعاصي ٢٤٥
القسم الأول: الكبيرة ٢٤٦

القسم الثاني: الصغيرة ٢٤٧
٣ ـ حكم مرتكب الكبيرة ٢٤٨
الخاتمة: ٢٥٣
فهرس الموضوعات: ٢٥٥

* * *

كتب صدرت للمؤلف

١ ـ السيرة النبوية : عرض وقائع وتحليل وأحداث .
٢ ـ سيرة الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه : شخصيته وعصره .
٣ ـ سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : شخصيته وعصره .
٤ ـ سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه : شخصيته وعصره .
٥ ـ سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : شخصيته وعصره .
٦ ـ سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي رضي الله عنه : شخصيته وعصره .
٧ ـ الدولة العثمانية : عوامل النهوض والسقوط .
٨ ـ فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم .
٩ ـ تاريخ الحركة السنوسية في إفريقية .
١٠ ـ تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي .
١١ ـ عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين .
١٢ ـ الوسطية في القرآن الكريم .
١٣ ـ الدولة الأموية : عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار .
١٤ ـ معاوية بن أبي سفيان : شخصيته وعصره .
١٥ ـ عمر بن عبد العزيز : شخصيته وعصره .
١٦ ـ خلافة عبد الله بن الزبير .
١٧ ـ عصر الدولة الزنكية .
١٨ ـ عماد الدين الزنكي .
١٩ ـ نور الدين محمود .
٢٠ ـ دولة السلاجقة .
٢١ ـ الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد .
٢٢ ـ الشيخ عبد القادر الجيلاني .
٢٣ ـ الشيخ عمر المختار .
٢٤ ـ عبد الملك بن مروان بنوه .
٢٥ ـ فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة .

٢٦ ـ حقيقة الخلاف بين الصحابة .
٢٧ ـ وسطية القرآن في العقائد .
٢٨ ـ فتنة مقتل عثمان .
٢٩ ـ السلطان عبد الحميد الثاني .
٣٠ ـ دولة المرابطين .
٣١ ـ دولة الموحدين .
٣٢ ـ عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج .
٣٣ ـ الدولة الفاطمية .
٣٤ ـ حركة الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي .
٣٥ ـ صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس .
٣٦ ـ استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول ﷺ : دروس مستفادة من الحروب الصليبية .
٣٧ ـ الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء .
٣٨ ـ الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) .
٣٩ ـ المشروع المغولي : عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار .
٤٠ ـ سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك .
٤١ ـ الإيمان بالله جلّ جلاله .
٤٢ ـ الإيمان بالملائكة .
٤٣ ـ الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية .
٤٤ ـ الإيمان باليوم الآخر .
٤٥ ـ الإيمان بالقدر .
٤٦ ـ الإيمان بالرسل والرسالات .
٤٧ ـ الشورى فريضة إسلامية .
٤٨ ـ العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية .
٤٩ ـ الحريات من القرآن الكريم .
٥٠ ـ الدولة الحديثة المسلمة دعائمها ووظائفها .
٥١ ـ المعجزة الخالدة .

* * *

المؤلف في سطور

● ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م).

● حصل على درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقدير ممتاز، وكان الأول على دفعته عام (١٤٣١ ـ ١٤١٤هـ) الموافق (١٩٩٢ ـ ١٩٩٣م).

● نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلامية، كلية أصول الدين ـ قسم التفسير وعلوم القرآن عام (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م).

● نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بمؤلَّفه: فقه التمكين في القرآن الكريم ـ جامعة أم درمان الإسلامية في السودان عام (١٩٩٩م).

● له باع طويل في الدعوة إلى الله تعالى، وحضور في مجالس العلم.

● له يد بيضاء في كثير من المنتديات واللقاءات والبرامج الإعلامية.

● غزير الإنتاج، واسع العلم، لبق الحديث، يجادل بالتي هي أحسن. يتميز بأسلوب سهل ممتنع.

● وله كثير من المؤلفات، ومنها:

١ ـ السيرة النبوية.

٢ ـ سير الخلفاء الراشدين.

٣ ـ سلسلة أركان الإيمان.

٤ ـ العدالة والمصالحة الوطنية.

٥ ـ الدولة الحديثة الإسلامية.

٦ ـ الحريات من القرآن الكريم.

● الموقع الرسمي للدكتور: http://www.alsallaby.com

● البريد الإلكتروني: abumohamad2@maktoob.com

❊ ❊ ❊